



العباسة أخت الرشيد

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

العباسة أخت الرشيد

روايات
تاريخ الإسلام

العباسة أخت الرشيد

تشتمل على نكبة البرامكة وأسبابها ، وما يتخلل ذلك من وصف مجالس الخلفاء العباسيين ، وملابسهم ، ومواكبهم ، وحضارة دولتهم في عصر الرشيد

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

ابطال الرواية

* **هرون الرشيد**	: الخليفة العباسي
* **جعفر البرمكي**	: وزير الرشيد
* **العباسة**	: اخت الرشيد
* **زبيدة**	: زوجة الرشيد
* **ابو العتاهية**	: شاعر الرشيد
* **الامين**	: ابن هرون الرشيد
* **عتبة**	: جارية العباسية
* **الفضل بن الربيع**	: وزير الامين
* **مسرور الفرغاني**	: الجلاد

مراجع رواية العباسة اخت الرشيد

هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

★ تاريخ الطبري ـ الفخري ـ ابـن الاثير ـ أبي الفـداء ـ المسعودي
★ كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني
★ تاريخ ابن خلكان
★ العقد الفريد
★ إعلام الناس للأتليدي
★ مروج الذهب للمسعودي
★ فوات الوفيات
★ نفح الطيب
★ ديوان ابي نواس
★ سراج الملوك
★ الفرج بعد الشدة

- ١ -

فذلكة تاريخيــة

كانت عاصمة الاسلام في أيام الخلفاء الراشدين يثرب (المدينة) . فلما آلت الخلافة الى بني أمية اتخذوا دمشق عاصمة لهم ، اذ كـانت مقر أحزابهم من قبائل العرب . وظلت كذلـك حتى ذهبت دولتهـم بقيام دولة آل العباس سنة ١٣٢ هـ . فجعل هؤلاء عاصمة ملكهم علـى حدود فارس ، حيث بدأ انتشار دعوتهم وقد كـانوا قبـل ذلـك في « الكوفة » ، ثم انتقلوا الى « الأنبار » عـلى نهر الفرات ، وفيهـا توفي أبو العباس السفاح أول خلفائهم ، وخلفه المنصور أخوه ، فقتل أبا مسلم الخراساني ــ قائد جند الشيعة العباسيين ــ خشية أن يطمع في الخلافة لنفسه . ثم أصبح يخشى أصحاب أبي مسلم وأشياعه ، وبخـاصة بعـد أن ثار عليه منهم جماعة الراوندية ، وكـادوا يفتكون به لولا أن دفعهم عنه معن بن زائدة . فرأى المنصور بعد اخماد ثورتهم أن يتحوط لمثلها بتشيد حصن يأوي اليه بأهله ورجال حكومته ، فبنى بغـداد عـلى

هيئة دائرة عرفت بـاسم مدينة المنصور ، وجعـل قصره في منتصفهـا وسماه قصر الذهب ، وجعل قصور الأمراء ودور الدولـة ومرافقهـا حوله وبينهـا الاسواق للبيع والشراء . وبنى حول المدينة ثـلاثة أسوار متتالية : يحيط أولهـا بالابنية ، ووراءه فراغ فيه القلاع ونحوها . ثـم يلي ذلـك سور ثان متين وراءه فراغ للمرور . ثم سور ثالث وراءه خندق فيه المـاء . وجعل للمدينة أربعة أبواب سماهـا بأسماء المدن التي تفضي اليها ، وهي أبواب : البصرة والكوفة ، والشام ، وخراسان . وأنشأ فيها أربعة شوارع كبيرة تمتد من الأبواب الى قلب المدينة .

وظل المنصور مقيمـا بقصر الذهب ، حتى اذا استقرت الامور وأمن على نفسه ،أنشأ لنفسه قصرا آخر خارج المدينة على شاطيء دجلـة وسماه قصر الخلد ، وظـل القصران مقر الخلفاء العباسيين بعد المنصور الى أيام الرشيـد .

على ان مدينة المنصور لم تكف لاقامة الجند ومن اليهم من الصناع والتجار وغيرهم ، وهذا عدا من تقاطروا اليهـا من المسلمين وغـيرهم وابتنوا المنازل خارجهـا ، فرأى المنصور أن يخفف هذا الازدحام فأنشأ قصرا ومسجدا عـلى البر الشرقي في مكان سمي الرصافة ، ورغب الناس في البناء حولهما . ثم اتفق أن عاد المهدي ابنه ومعـه جيشه قادمين مـن خراسان فأنزلهم بالرصافة ، وأقطعهم القطائع ليبتنوا المنـازل ويبقـوا بها ، ففعلوا . وعرفت المدينة الجديدة أول الامر باسم « معسكر المهدي ». ثم امتدت جنوبا وشمالا ، وجـاء الخلفاء بعد ذلـك فواصلوا التعمير وابتناء القصور شرق دجلة وغربها ، ومن بينها « قصر الخلد » و « قصر زبيدة » على الضفة الغربية ، و « قصر جعفر البرمكي » ووراءه « قصر الأمين » على الضفة الشرقية . ونشأ حول مدينة المنصور أحياء أخرى على

الجانب الغربي ، أهمها حي الكرخ ، وفيه كـان يقيم التجـار من الفرس وغيرهم من الأجانب • وحي الحربية في الشمال وأكثر سكانه من العرب ، وعرفت المدينة باسم بغداد •

وكانت بغداد في أيام الرشيد مؤلفة من قسمين : أحدهمـا شرقي والآخر غربي ، تصلهما ثلاثة جسور أهمها جسر بغداد الموصـل بـين مدينة المنصور والرصافة • وكـانت تشق أحياءهـا فروع من نهـري دجلة والفرات شيدت على ضفافهـا القصور والحدائق ، ومن تلـك الفروع : نهر عيسى ، ونهر طابق ، ونهر الدجاج ، ونهر البزازين ، ونهر الصراة ، ونهر جعفر •

وكـان أهل بغداد في أيام الرشيد في رغد من العيش ، فالأموال تنصب في خزائنها بالملايين ، والخليفة يغدق العطـايا والهبات ، والناس يتقاطرون الى بغداد التمـاسا للكسب ، والارتزاق ، وفيهـم العربـي والفارسي والرومي والتركي والكردي والأرمني والكرجي والسنـدي والهندي والصيني والزنجي والحبشي ، على اختلاف مللهـم ونحلهـم ، فبينهم الصانع والتاجر والنخاس والشاعر والمغني والنحوي والمحـدث • وبينهم المسلم والذمي ، والحر والمولي والعبد ، والغلام والجـارية • وكلهم يحومون حول دار الخلافة أو دور الأمراء والوزراء ، يبيعونهـم السلع أو يتملقونهم بالمديح ، ومختلف ألوان الزلفى • وهؤلاء يبذلون الاموال بسخاء ، ويأنفون أن تعد عطاياهم بمئات الدراهم دون الالوف وألوف الالوف •

ولا عجب ، فقد كان المـال ينصب في خزائنهم انصباب السـيل ، اذ كانوا يشاطرون أهل الارض غلاتهم ، فضلا عن الجزية وغنائم الحرب •

- ٢ -

ابو العتاهية

كان أبو العتاهية من المرتزقين بالشعر على أبواب الخلفاء العباسيين ، وأصله من الموالي كاكثر شعراء ذلك العصر . وكـان في أول أمره يصنع الجرار ثم يحملها في قفص ويدور في الكوفة ليبيعها . فلمـا كان عهد المهدي بن المنصور وفد على بغداد ، وما لبث أن ارتقـى الى مجـالسة الخليفة الـذي فتن به وبشعره فاصطحبه في رحلات الصيد والنزهـة وأغدق عليه الجوائز والهبات . ثم كـان ذلك شأن أبي العتاهية في خلافة الهادي بن المهدي ، فلمـا مات الهادي بعد قليل آلى أبو العتاهيـة على نفسه الا يقول شعرا بعده .

وحدث أن طلب منه الخليفة الجديد هرون الرشيد أن يقول شعرا ، ولكنه أبى ، فغضب عليـه الرشيد وأمـر بحبسه في حجـرة مساحتها خمسة أشبار في مثلها . فلما طال عليه الحبس صنع أبياتا يشـكو فيهـا حاله ، وبعث بها الى ابراهيم المـوصلي المغني المشهور فغنـاها أمـام الرشيد ، فعفا عنه وأمر لـه بخمسين ألـف درهم . ثم قربه اليه فأصبح ذا حظوة كبيرة عنده ، لا يكاد يفارقه في حـل أو سفر الا في طريق الحج . وجعل له راتبا سنويا ، غير الجوائز ، وغير مـا كـان ينالـه من هبـات رجال الدولة وجوائزهم وهداياهم . وكان من مشاهير أهل الطمع والبخل ؛ فمضى يجمـع المـال ويدخره دون أن ينفق منـه شيئا ، ولا سيما بعـد أن نذر الزهـد وعاهد نفسه على ألا ينظم الشعر ، فقـل تكسبه منه . على انـه أخذ يغتنم الفرص للاكتسـاب مـن أبواب أخرى .

وكـان أبو العتاهية في خلافة الرشيد حـوالي سنة ١٧٨ هـ . يحضر مجلس محمـد الأمين بن الرشيد لعلـه يصيب كسبا أو جائزة ، كما أنه

كـان من المقربين الى زبيدة أم الأمين وينال من جوائزها الكثير •

وكـان الأمـين يومئذ في السابعة عشرة من عمره ، ميالا الى القصف واللهـو منذ نعومة أظفاره . ولا يخلـو مجلسه من المغنين وأهل الخلاعة والجواري والغلمان . وهو أول مـن استكثر من الغلمان والخدم وتفنن في انتقائهم وتزيينهم • وكذلك كان يشهد مجلس الأمـين كثيرون مـن الشعراء الميالين الى القصف والمجـون . وفي مقدمتهم الحسن بن هـانىء المعروف بأبي نواس •

ولم يكن يشهد مجلس الأمـين من أهل الجد والدهـاء الا من كان له هدف سياسي لا يرى الوصول اليه الا على يد الامـين أو أمه زبيدة • وكانت أحب نساء الرشيد اليـه ، ولها كلمـة مسموعة عنده لأنها ابنة عمـه ، في حين أن أكثر نسائه الأخريات من الجـواري المعتقات كأكثر من سبقوه من الخلفاء العبـاسيين • ولهذا لم يكن بينهم خليفة أمـه وأبوه هاشميان الا الأمين • فكان الذين يحبون التقرب من الرشيد بالدالـة أو الوساطة أو الدسائس يتزلفـون الى زبيدة بالثنـاء على الامين ابنها ، مـع علمهم بأنه ليس أهلا للخلافـة ، وكانوا في الوقت نفسه يتحاملون على أخيه المأمون لأن أمه جـارية فارسية . ويحطون من قدره رغم علمهم بأنه أرقى من الامين عقلا وأدبا •

وكان الفضل بن الربيع أكثر الناس سعيـا في هذا السبيل . لأن أباه كان وزيـرا للمنصور والمهدي ، وكان هو يرشح نفسه للوزارة • ولكن هرون الرشيد قرب اليه يحيي بن خالـد البرمكي الذي كان من أوائل أنصاره ومؤيديـه ؛ وجعل الوزارة لجعفر بن يحيي • فشق ذلك علـى الفضل بن الربيع ؛ وثارت في نفسـه عـوامل الحسـد ، فأخذ لا يدخر وسعا في استنباط الاسباب للانتقام • ولم يجد سـبيلا أصلح الى ذلك من التزلف الى زبيدة وابنها ، ولا سـيما أن زبيدة كانت تكره الفرس عامة والبرامكـة

خاصة ، وجعفر بن يحيى على الأخص ، لعلمها بأنه حمل الرشيد على مبايعة المأمون (ابن جاريتها) بولاية العهد بعد ابنها الأمين . فكانت تقرب كل من ينصر ابنها ويطعن على المأمون . ولذلك كان الفضل يحضر مجلس الأمين في لهوه ويسايره في قصفه ويتملقه للغرض السالف الذكر .

واتفق أن شهد أبو العتاهية مجلسا للأمين ، فأعرب هذا عن رغبته في ابتياع بعض الجواري البيض ممن يحسن الغناء ، ليضمهن الى المغنيات في قصره ، وأكثرهن يومئذ من الجواري الصفر ، اذ جرت عادة القوم باتخاذ الجواري البيض للتسري فقط ، ثم رأى ابراهيم الموصلي مغني الرشيد أن يعلم بعضهن الغناء ، فازدادت قيمتهن منذ ذلك الحين .

وقال الفضل بن الربيع للأمين : « ان كبير النخاسين أتى ببعض الجواري البيض الحسان ، وأنزلهن عند يهودي من تجار الرقيق في بغداد اسمه فنحاس ، والناس معجبون بجمالهن الفتان . وحبذ له ابتياع بعضهن ، وأن يعهد الى ابراهيم الموصلي في أن يعلمهن الغناء . فوافق الامين ، وأخذ الفضل على نفسه أن يذهب في الغد الى دار فنحاس ، فينتقي له أحسنهن طلعة وأطربهن صوتا .

فلما سمع أبو العتاهية ذلك تنسم منه ربحا كبيرا بالتواطؤ مع فنحاس ، لعلمه أن الامين لا يبالي ما ينفق من المال في هذا السبيل .

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فرأى أن يعجل بالذهاب الى فنحاس ليخبره بعزم الامين ، مدعيا انه هو الذي حمله على ابتياع الجواري من عنده ، ثم يغريه بزيادة الثمن على أن يكون له نصيب معلوم منه لقاء سعيه في الامر .

* * *

خرج أبو العتاهية من قصر الامين في الجانب الشرقي من بغداد ،

قاصدا الى دار فنحاس النخـاس في الجانب الغربي للمدينـة ، بقرب دار الرقيق التي أنشأها المنصور لسكنى غلمانه وجواريه . وكان أبو العتاهية أبيض اللون أسود الشعر نظيف الثياب ، له وفرة جعدة وهيئـة حسنة ، وفيه لباقة وحصافة . وقد ارتدى تلك الليلة ثيابـا بسيطة ـ عـلى غير ما تعود لبسه في مجلس الخليفة أو ابنه ، قبـل أن يعلن تزهده وتركـه نظم الشعر . وربما كان بخله الشديد هو الذي حسن له ارتداء ثيـاب الفقراء ، وعليهـا عباءة بسيطة ، وعلى رأسه عمامة لا تختلف عن عمائم عامة الناس ، الا أنه غير شكل عمامته والتف بعباءته ، اخفاء لحقيقة أمره .

ولمـا وصل الى شاطىء دجلة ، وقف مترددا بين أن يستقل احدى السفن ليصل بهـا الى الجسر ثم يذهب من هناك ماشيا الى دار الرقيق ، وبين أن يأخذ طريقه كله الى الدار ماشيا فرارا من نفقة الانتقال بالسفينة أو على دابة من دواب الاجرة . وفيما هو كذلك رأى بالقرب من الشاطىء شراعا منشورا لسفينة تمخر عباب المـاء على عجل . فـاستبشر وعـزم على ركوبهـا ، وكـان الليل قد سدل نقـابه وسكنت الطبيعة لبعد ذلك المكـان من الطرق المزدحمة في الكرخ ، ولأن الأبنية القائمـة على ضفاف دجلة كلهـا من القصور الشماء والحدائق الغناء للخليفة والامراء والوزراء ومن اليهم . وسرعان ما رفع صوته طالبا وقوف السفينة ، وأخـذ يكرر النـداء حتى سمعه ربانهـا فأجابه بأنه لا يستطيع الوقوف . ولكـن أبا العتاهية لم يكف عن النداء والتوسل الى الرجـل لكي يحملـه في السفينة . ثم سمع حطـا صادرا منها ، ورأى النوتية قد سارعوا الى ارخاء شراعها لتبطيء في سيرها . ثم رآهم يقتربون بهـا من مكـانه ، وشعر من حركـاتهم بأنهم لا بد ذاهبون في مهمة عاجلة لا للنزهة في مياه النهر على عادة أهل بغداد ، ورجح ذلـك عنده ان الليلة لم تكـن مقمرة تصلح للنزهة . ثم برز من السفينة رجل حتى وقف على حافتها ونادى :

« من أنت ؟ » .

فقال أبو العتاهية : « اني غريب أدركني المساء ، وأحب الشخوص الى حي الحربية ، لكني لا أعرف الطريق اليه » .

فلما سمع الرجل قوله ، هبط من مكانه على حافة القسطنطينية ، وتوارى في داخلها هنيهة ثم عاد الى الظهور ، وصاح قائلا : « مرحبا بك تفضل » . ثم أدنى السفينة من الشاطيء ، وأمر بعض النوتية فألقوا لوحا من الخشب بين السفينة والشاطيء ، فسار عليه أبو العتاهية حتى دخل السفينة ، فأدرك أن ربانها هو الذي كلمه ، فحياه وجلس على دكة بجانب الشراع ، ثم أجال نظره فلم يجد هناك غير النوتية ، وهم أربعة يستعينون على سرعة المسير بالتجذيف . وحانت منه التفاتة الى مؤخر السفينة فرأى على نور القبس رجلا وامرأة بثياب أهل البادية وقد جلسا الاربعاء وأحنيا رأسيهما من النعاس ، وبجانب الرجل نعال غليظة من نعال أهل الحجاز . ورأى بين أيديهما غلامين توسدا ظهر السفينة وجعلا رأسيهما على جانبي حجر المرأة ، وهما في ثياب أهل البادية . وقد غطتهما المرأة بطرف من الخز الموشى . فاستغرب ذلك وجره حب الاطلاع الى الاستفهام .

ومضت السفينة تشق عباب الماء في جو هاديء لا يسمع فيه صوت لغير مجراها . وما لبثوا أن أطلوا على أبنية بغداد وقد أنيرت القصور على الضفتين ، ثم سمعوا أصوات المؤذنين يدعون الناس الى صلاة العشاء ، فانتهز أبو العتاهية هذه الفرصة للتحدث الى الربان فقال له :

« ألديك طنفسة أصلي عليها العشاء ؟ » .

فنهض الربان وجاءه بطنفسة فرشها على ظهر السفينة بالقرب من الغريبين وغلاميهما في مؤخر السفينة . فنهض أبو العتاهية للصلاة . وأخذ يتفرس في وجوه الجالسين دون أن يشعرهم بذلك . فلاحظ أن

الرجل والمرأة في طور الكهولة . ورجح أن يكونا من الحجاز لخشونة البادية الظاهرة في قيافتهما . ثم رأى وجهي الغلامين في نور القبس فأدرك أنهما أخوان أحدهما في الخامسة من عمره والآخر في نحو الرابعة ، وعجب مما لاحظه من بياض لونهما وجمال عيونهما الطويلة الاهداب كأنها مكحولة ، واستبعد أن يكونا ابني ذينك البدويين . فلما فرغ من الصلاة دفعه حب الاستطلاع الى التوجه الى ربان السفينة وقال له : « يلوح لي أن رفاقنا الليلة غرباء مثلي . فمن أي البلاد هم ؟ » .

فقال الربان : « مالك ولهذا السؤال ؟ » .

قال : « لأن الغرباء أنسباء » .

فاغتصب الربان ضحكة وقال : « دع عنك الفضول فاني لم أسالك من أين أتيت أو الى أين تذهب ! » . ثم تركه وتحول الى حافة السفينة . وكانت قد جاوزت الجسر الاول . وهو مؤلف من بعض السفن الراسية . تضم السلاسل بعضها الى بعض . وفوقها ألواح من الخشب لمرور الناس والدواب . فأطلت على مدينة المنصور واقتربت من الجسر الاوسط ، ونادرا ما كان يفتح ، فقال الربان لأبي العتاهية : « هذا آخر شوطنا فاذهب في سبيلك » .

واستاء أبو العتاهية من خشونة الربان ، وهم بأن يذكر له اسمه ليحمله على احترامه ، بوصفه من الشعراء ذوي النفوذ ، ولكنه آثر السكوت وأسرع الى حافة السفينة ليهم بالنزول ، فاذا هو بقرب قصر الخلد حيث يقيم الرشيد ، وقد أضيء القصر بالشموع الملونة ، فانبعث الانوار من النوافذ على أغراس الحديقة ، وتضوعت الروائح الزكية فاختلطت رائحة البخور والطيب بشذا الازهار والرياحين ، فتذكر المهمة التي هو بسبيلها وما يتوقعه من الكسب ، فأغضى عما كان يبعثه عليه حب الاستطلاع وقال للربان متضاحكا : « هل تنزل في قصر أمير

المؤمنين ؟ » .

فأجابه الرجل بقوله : « سننزلك وراءه بالقرب من الجسر » . فقال : « حسنا » . ثم تأهب للنزول فأصلح عمامته وشد منطقته فوق القباء وتزمل بالعباءة ، حتى اذا دنت السفينة من الشاطيء الغربي ألقوا له خشبة مشي عليها نحوه .وهو يثني على الربان لحسن وفادته ، وذهنه مشغول بما شاهده في السفينة ، ولكن سروره بما يتوقعه من الكسب ما لبث أن أنساه كل ما عداه !

وما بلغ الشاطيء حتى سار مهرولا متجها نحو الشمال حتى قطع طريق باب خراسان ، ودخل طريق دار الرقيق فرأى الحوانيت قد أغلق أكثرها والطرق مزدحمة بعابريها . فحدثته نفسه أن يكتري حمارا يركبه ولكن بخله غلب عليه فظل ماشيا يطيل خطواته حتى أقبل على دار فنحاس ، وكانت فخمة فسيحة كأنها قصر أمير أو وزير ، ولا عجب فقد كان صاحبها من كبار الاثرياء لمكاسبه من بيع الرقيق للخلفاء وأولادهم وللوزراء والكبراء ، وكان كلما جيء له بجارية جميلة أو غلام جميل بعث الى قصر الخليفة أو أحد الامراء بمن يغرونه بالشراء . وأكثر هؤلاء الوسطاء يومئذ من بطانة صاحب القصر والمترددين اليه من الشعراء والمغنين . ولم تكن هذه أول مرة يقوم فيها أبو العتاهية بهذه المهمة .

فلما أطل أبو العتاهية على دار فنحاس ، فطن الى أن الوقت متأخر ، وخشي أن يكون الرجل قد أوى الى فراشه ، ولا سيما انه لم يكن يميل الى السماع أو الشراب ، وكل همه أن يربح من تجارته ، فاعتاد أن يتناول عشاءه عند الغروب ، ثم يذهب الى فراشه منذ وقت العشاء .

ولاحظ أبو العتاهية بعد ذلك أن الدار تبدو فيها الانوار على غير المعتاد ، فانشرح صدره وتفاءل خيرا ، ثم مضى في طريقه اليها حتى

اقترب من بابها الخارجي ، فلمح عنده أشباحا ، وسمع لغطا . ثم تبين أن هناك دابتين ترجل عنهما شخصان معهما غلامان ، ودهش اذ وجدهم الغرباء الذين تركهم في السفينة ، ثم تبادر الى ذهنه ان الغلامين من الرقيق جيء بهما للبيع ، ولكنه استبعد ذلك لأن بداوة الرجل وملامحه لا تدل على أنه من النخاسين تجار الرقيق .

ووقف أبو العتاهية منزويا بحيث يرى ويسمع ولا يعلم به أحد ، فرأى الرجل بعد أن ترجل حمل أحد الغلامين على كتفه ، ثم اقترب من الباب ودقه دقا عنيفا ، ووقف ينتظر ، بينما وقفت المرأة خلفه تحمل الغلام الآخر ، ثم سمعها تقول له : « أتظنهم في انتظارنا ؟ » .

فأجابها الرجل بقوله : « لا شك في ذلك ، ألا ترين الانوار في القصر ؟ ان مولاتنا لا بد أن تكون في انتظارنا على أحر من الجمر ، لأننا أبطأنا عليها ! » .

وأدرك ابو العتاهية أن لهجتهما غير لهجة أهل مكة أو المدينة ، ورجح أن يكونا من أهل بغداد المولدين ، فزادت رغبته في الوقوف على حقيقة أمرهما . ثم ما لبث أن رأى نافذة الباب فتحت وأطل منها رأس امرأة في نحو الاربعين من عمرها ، بيدها مصباح وقع نوره على وجهها وظهرت ملامحها ظهورا تاما ، فشاهد وجها مشرقا ، وعينين سوداوين ، وحاجبين مقوسين ، ومبسما لطيفا ، وشعرا قد ضفر ضفرا بسيطا . وحسب أول الامر أنها من الجواري البيض ، ولكنه ما كاد يتفرس في وجهها حتى خفق قلبه ، اذ كان يشبه وجها عرفه وأحب صاحبته منذ بضع عشرة سنة ثم حيل بينهما . وفيما هو في ذلك اذ سمعها تقول للطارق الغريب : « الحمد لله اذ وصلتم أخيرا . لماذا أبطأت علينا يا رياش ؟ » .

فرد عليها رياش بقوله : « لقد أبطأنا مرغمين ، اسألي برة عما

لاقيناه مـن العوائق أثنـاء الطريق ، فقد ذهبنا أولا الى سيدنا أعزه الله فأبقـانا عنده الى المساء . ثـم جئنا من هناك توا الى هنـا . هل مولاتنا هنا يا عتبـة ؟ » .

فلما سمع أبو العتاهيـة اسم المرأة تحقق انها الجـارية التي عرفها في قصر المهدي فأحبها وأكثر من التشبيب بهـا دون أن يجرؤ على طلبها ، ثم احتال في عيـد النيروز فأهدى الى المهدي برنية فيهـا ثوب مطيـب وكتب على حواشيه بيتين يعرض فيهما بطلبها منه ، وهمـا في:

نفسي بشيء من الدنيا معلقة الله والقائـم المهـدي يكفيها
اني لأيـأس منهـا ثم يطمعني فيها احتقـارك للدنيا وما فيها

فأدرك المهدي يومئذ غرضـه فهم بدفع عتبة اليه . ولكنها قالت : « يا أمـير المؤمنين أتدفعني الى رجل بائع جـرار متكسب بالشعر ؟ » . فأبقاها وأمـر له بملء البرنية مالا ، ونهـاه عن التشبيب بالجارية فكف عن ذكرها مرغما . ولما مـات المهدي تفرقت جواريه فلم يدر أبو العتاهية مصيرها ، الى أن رآها تلك الليلة ، فهاجت ذكرى غرامه القديم .

* * *

أمـا عتبة فانحرفت عن النافذة وأمرت البواب أن يفتح البـاب فدخـل (ريـاش) يحمل أحد الصبيين على كتفه وقد ألقى الصبي رأسه على زنديه فوق رأس الرجل واستغرق في النوم ، وكذلك كان الصبي الآخر على كتف المرأة . وعتبة تسير بين أيديهما بالمصباح في فناء الدار حتى تواروا عن بصر أبي العتاهية . ثم رأى البغلتين في الزقاق عـائدتـين يسوقهما المكاري ، فظل واقفا يفكر فيما رآه وقد نسي المهمة التي جاء من أجلها وأصبح همه كشف ذلك السر ، خصوصا بعد أن سمعهمـا

يتساءلان عن مولاتهما فقال في نفسه : « من عسى أن تكون تلك السيدة ! لعل في الامر سرا أكتسب من وراء كشفه مالا » • فرأى أن يؤخر دخوله هنيهة لئلا يلحظ أهل البيت أنه عرف شيئا من أمر القادمين فتربص حتى سمع صرير الباب وهو يغلق ثم سمع صوت ايصاده ، فتقدم نحوه ودقه فسمع رجلا ينادي : « من ؟ » •

فأعاد القرع ففتحت نافذة الباب وأطل رجل من أنباط السواد اسمه « حيان » كان فنحاس قد جعله بوابا وكان يعرف أبا العتاهية ، فلما رآه في تلك الساعة من الليل استغرب قدومه لكنه رحب به وفتح له ، فدخل أبو العتاهية يتظاهر بالتعجب قائلا له : « هل مولاك في البيت يا حيان ؟ » •

قال بلهجة الانباط وهم يلفظون الحاء هاء والعين همزة والقاف كافا « نام •• هل تريد الدخول اليه ؟ » •

قال وهو يمشي في فناء الدار : « لم يكن مرادي الدخول عليكم في هذه الساعة لو لم أر البيت مشعشعا بالانوار على غير المعتاد ، لأني لم أعهد المعلم فنحاس يسهر الى ما بعد العشاء فاستغربت ذلك وأحببت أن أعرف الباعث ، ولعله احتفال بزواج أو بقدوم قادم » • قال ذلك وهو يمازح البواب لعله يبوح بشيء •

فأجابه : « ليس ثمة ما يكلك (يقلق) الراحة ولكنني لا أأرف (أعرف) سبب السهرة •• » • ثم غير الحديث فقال : « أتريد أن ترى سيدي الآن ؟ » •

قال : « نعم •أين هو ؟ » •

فقال : « اني ذاهب لأدأوه (لأدعوه) لك » • وأسرع حتى دخل في دهليز اتصل منه بسلم صعد عليه وأبو العتاهية يتبعه لئلا يبقى خارجا ويحدث ما يمنعه من الصعود • وكان الدهليز والسلالم كلها مضيئا

بالشموع ، ولكنه لم ير أحدا من الخدم أو الجواري في طريقه ، ولم يسمع صوتا ، فعلم أن القوم يريدون التستر . ثم وصل حيان الى غرفة تعـود أبو العتاهية أن يجالس فنحاس فيها ، وكـانت مظلمة فأدخل اليها حيان مشمعة فيها عدة شموع ودعـاه للجلوس ، فجلس وذهب النبطي ليدعو مولاه . فمكث أبو العتاهية في انتظـاره يدبر الحيلة للبقاء هناك تلك الليلة ويود أن يعرف مقر أولئك الاضيـاف في القصر ، فسمع صوت غـلام يضحك فعرف أنهم في غرفة قريبة من غرفته يعرف الطريق اليها .

ثم عاد حيان وهو يقول : « ان سيدي ذهب الى الفراش ، هـل أوقظـه ؟ » .

فاستبشر أبو العتاهية وقال : « دعه نائما وسأقابله في الصباح .. » . قال ذلك وتثاءب وتمطى يتثاءب ويتناعس فقال له البواب : « هل تريـد أن تنام أم آتيك بالطعام قبـلا ؟ » .

قال : « لا حاجة بي الى الطعام ولكنني أشكو التعب فقد كنت في مكـان بعيد وتعبت من كثرة الركوب فلما اقتربت من قصركم ورأيت الانوار فيه دهشت وأتيت أقضي ساعة مع المعلم فنحاس فصرفت الدابة والمكـاري ولا أدري أأجـد دابة بقرب هذا المكـان اذا أحببـت الذهـاب ؟ » .

فقال حيان : « اذا كـان لا بد من ذهابك فان في الاصطبل دواب كثيرة ، ولكني لاأرى حاجة الى السرعة فاسترح عندنـا الليلة واذا شئت أن تنام أخذتك الى حجرة فيها فراش » .

قال : « ولكني لا أستطيع النوم والأنوار تملأ الدار » .

قال : « قد أخذنا في اطفاء الانوار ولا تلبث أن ترى القصر مظلما » .

قال : « اذا كان الامر كذلك فاني أنام هنا أولى من أن أذهب ثم أعود غدا ، لأني جئت الى المعلم فنحـاس بصفقة فيهـا كسب كثـير

بـاذن الله » .

فازداد البواب رغبة في استبقائه لعلمه أن سيده يتوقع منـــه ذلك لجشعه مع ما له من الثروة الطائلة . وكـــان فنحاس يهمه كسب المـــال ولا يبالي الوسيلة الى كسبه ، فكثيرا ما كـــان يغضي في سبيل ذلـــك عن أمور لا يغضي عنها الحر . ورأيه ان الناس على ضلال في أمر دنياهم فهم يتمسكون بأمور اعتبارية لا طائل تحتها يسمونها الشرف أو عزة النفس ، ويبذلون في سبيلها حياتهم أو يضيعون عليها أموالهم ويفوتهم كسب المال ، وما كـــان الشرف ليشبعهم اذا جـــاعوا أو يدفئهم اذا بردوا أو يرويهـــم اذا عطشوا ! أما المـــال فهو السلطـــان أو هو الصولجـــان فمن قبـــض عليه كـــان سلطانا تطأطيء له الرؤوس . تلك مباديء المعلم فنحاس ، وكـــان أبو العتاهية يعرف ذلـــك فيه وكثيرا ما استعانه على أعمـــال يكسبان هما الاثنان بقضائها .

فلمـــا رأى البواب في استضافة أبي العتاهية ما يسر مولاه ألح عليه بأن يبيت ، ودعاه أن يتبعه . فسارا وأبو العتاهية يتلفت لعله يعـــرف الغرفة التي تتوق نفسه الى معرفة سر أهلهـــا . ثم وقف حيان أمـــام باب فتحه ودعاه الى الدخول واذا هناك فراش على طنفسة لا بـــأس بها فقال أبو العتاهية : « هذا فراش نظيف أكثر الله خيرك » . وتنـــاعس فتركه حيان ومضى . وكـــان أبو العتاهية قد عرف الجهة التي فيهـــا أولئـــك الناس فلمـــا ذهب حيان وأطفئت الانوار ونام أهـــل البيت واستولى السكون على المكـــان نزع عمامته وعبـــاءته وخرج يتلمس الحـــائط وركبتاه ترتجفان ، حتى أصبح موقع الغرفة قريبا ان لم يدل عليها الصوت دل عليها النور المنبعث من شقوق بابها .

فلما وصل الى باب الغرفة سمع أناسا يتكلمون همسا كأنهم يحاذرون أن يسمعهم أحد ، فوقف بالباب ونظر من ثقب فيه الى الداخل فـــرأى

امرأة عليها ثياب الملوك وهيبة الملائكة جالسة على سرير في صدر المكـــان وفي حجرهــا ذانك الطفلان وقد ضمتهما الى صدرها وأخذت تقبلهمــا وعيناهــا تتلألآن بالدمع وفي ملامح وجهها مزيج من علامــات السرور والحزن ، فلم يدر أتبكي فرحا أم حزنا • وأطـال أبو العتاهية نظــره الى وجه المرأة فاذا هي بين الخــامسة والثلاثين من عمرها وفي وجههــا جمال وهيبة لم يشاهد مثلهما على كثرة من رآهن من الجواري الحسان في دور الخلفاء والامراء وفي دار جعفر البرمكي أو غيره من البرامكة • رأى فرقا شاسعا بين ما يعرف من جمال أولئكن وبين ما في جمال هذه من الهيبة والوقار • ولو تأملت الهيبة لرأيت مصدرها عينان لم تكونا كبيرتــين ولا واسعتين ولكنهمــا ترسلان أشعة براقة • ولم يكن فيهما ذبــول كعيون الغواني بل كانتا حادتين تشعران الناظر بأنهما اخترقتا صــدره وأصابتا قلبه واستطلعتا خفايا سره • ولم يكن لون المرأة أبيــض مع تفاخرهم يومئذ بجمال هذا اللون بل كــانت حنطية مشربة حمرة ، ولهــا مبسم ينطق بغير كلام يدل على عواطفها كما تدل المرآة على ما يقــابلها • ورأى أبو العتاهية على جبينها عصابة مكللة بالجواهر . فدهش لهــذه العصابة لأنه لم يكن رأى مثلها من قبل وأول من اتخــذ العصابة المكللة بالجوهر علية بنت المهدي (أخت الرشيد) فعلت ذلــك اذ كــان في جبينها فضل سعة شوه جمالهــا فأحدثت العصائب لتستر ذلــك العيب فكان من أجمل ما اخترع •

وكانت قد صففت شعرهــا تصفيفا على شكل جمة تعرف بالجمة السكينية نسبة الى سكينة بنت الحسين لأنهــا أول من صففها • ورأى أبو العتاهية في مقدم تلك الجمة طرة مرصعة بالمــاس على شكل طائر عيناه من الزمرد وفي أجنحته فصوص من الياقوت الاحمر مرتبة بين فصوص المــاس ترتيبا عجيبا ، وقد اشترك تلألؤها بأشعة النور حتى توهــم أبو

العتاهية أن الغرفة مضيئة من نور الطرة لا من الشموع . وقد غطت رأسها بخمار من الحرير عنابي اللون مزركش بالقصب . وفي أذنيها قرطان كل منهما لؤلؤة واحدة بحجم بيضة الحمامة ، وفي عنقها عقد من الجوهر .

وأما ثوبها فمن أثمن المنسوجات غاية في البساطة . لونه سماوي وعلى حواشيه وشي دقيق . فذهل أبو العتاهية لمنظر تلك السيدة وقال في نفسه : « لا شك أن هذه الحورية من أهل بيت الرشيد ولا بد لها من شأن اذا أطلعت عليه ابتززت الاموال » .

ونظر في جوانب الغرفة فرأى الرجل والمرأة لا يزالان بثياب أهل الحجاز وقد قعدا على الارض باحترام وتهيب ، وكان الرجل كهلا قد وخطه الشيب ، وتفرس أبو العتاهية في وجهه فلم ير فيه ملامح أهل البادية فعلم أنه تخفى بذلك اللباس لغرض ما . وأما المرأة فلما رأى وجهها على النور تبين له أنها جارية من الجواري وقد كبرت سنها — ولفتت صاحبته عتبة انتباهه فقد كانت جالسة بين يدي السرير تخفف عن مولاتها وتلاطفها . وتأمل أبو العتاهية في عتبة فرأى الجمال لا يزال في وجهها وقد تغيرت عما كانت عليه من قبل فازدادت سمنة وبضاضة . وكانت في تلك الليلة مكشوفة الرأس وقد ضفرت شعرها بضع عشرة ضفيرة علقت في طرف كل منها قطعة من النقود أو الحلى ، وفي عنقها عقد ثمين وفي يديها الاساور والدمالج وعليها ثوب أحمر مشجر بعروق خضراء .

فدهش أبو العتاهية من هذه المناظر واصطكت ركبتاه من التأثر وأتعبه الانحناء لأنه لم يكن يستطيع النظر من الثقب الا اذا انحنى . على أنه صبر يتنصت لما قد يدور من الحديث ، وأول كلمة طرقت أذنه ساعة وصوله الى الباب عبارة عرف من غنتها انها لصاحبته عتبة وهي

قولها : « لا بأس عليك يا مولاتي . لماذا تبكين ؟ » .

فرفعت السيدة رأسها الى عتبة وضمت الطفلين الى صدرها وهي تقول وصوتها مختنق من البكـاء : « قلبي يحدثني يا عتبة انهـا آخـر مرة أراهما فيهـا » .

فصاحت : « معاذ الله يا مولاتي بل أرجو أن تريهما مرارا في كل عام كما كنت تفعلين الى اليوم . وهذا رياش حفظه الله لا يدخر وسعا في القدوم الينا كلمـا أمرت .. وعسى أن يقضي الله باطـلاق حريتك فيكونـان معك كل حين » .

فتنهدت السيدة وقالت : « آه يا عتبة انك ترجين محالا .. فان غريسنا ظالم مستبد صاحب سلطـان مطلق وقد انغمس في ملذاته وتمتع بكـل ما تشتهيه نفسه وأصبح لا يبالي سواه هلك عطشا أم مات جوعا أم ذاب لوعة . انه رجل لا شفقة عنده ولا رحمة وانما تهمه ملذاته .. » . قالت ذلـك وهي تخرج من كمهـا منديلا من الحرير مزركشا بـالقصب مسحت دموعهـا به .

فقالت عتبة : « تلك حال الرجال كلهم يا مولاتي فانهم أصحـاب السيادة وقد فضلوا أنفسهم على المرأة فحللوا لأنفسهم ما حرموهـا منه وتمتعوا بما حظروه عليهـا . يتزوج الرجـل عدة نساء ويقتني الجواري والسراري ويمنع المرأة من أن تتزوج برجل تحبه ويحبها . ولكن .. » .

فقطعت السيدة كلام الجـارية وقالت : « ليس بين الرجال من فعل كأخي ولا بين النساء من أصيب بمصابي .. زوجني برجل هو جمعني به وحببه الي وعقد له علي ، ثم حرم علينا ثمـار العقد ، مما أحلـه الله لأحقر خلقه . وهو يخطر في قصره وحوله مئات من الجواري الروميات والسمر والسود » .

ولمـا بلغت الى هنا غصت بريقها وشرقت بدموعها ، وكان الغلامان

في حجرها وكبيرهما ينظر في وجهها مستغربا وهي تتكلم • فلمـا رآهـا تبكي شاركها في البكـاء ، ولمـا رآه أخوه يبكي بكى أيضا ، وبكت عتبة ، وعلا صوت البكاء في الغرفة •

وتجلدت عتبة وأخذت تخفف عن مولاتها فقالت : « لا يخفى عليـك يا مولاتي أن أخاك أمير المؤمنين حرسه الله منعك من الزواج بالوزير لأنه غير كفء فانك بنت خليفة وأخت خليفة يتصل نسبك بعم النبي • والوزير مولى فارسي كسائر الموالي فكيف تتزوجينه ومثلك تتزوج هـاشميا • وأمير المؤمنين يحبك وانما منعك من الزواج تنزيها لمقامك » •

فأجابتها : « ويلك يا عتبة •• ألا تزالـين مخدوعة بهذه الخزعبلات •• اذا كان أخي يعد الزواج بالموالـي أو العبيد حطة بمقام الخلافـة فما بالـه يتزوج الجواري ويستولدهن ويولي أولادهـن العهد ، أم ان الجارية أرفع مقاما من المولي ناهيك بمن في قصوره مـن الجواري مما ملكت يداه •• فلماذا لا يقتصر على ابنة عمـه زبيدة وهو يظهر لها الحب والتبجلـة • ولكنه أطاع شهواته ولم يجد من يصـده فانغمس وأترف ورآنـي ضعيفة فاستبد بي • جمعني بشاب لا أعرف في أبناء عمي من بني هـاشم خيرا منه ، وزوجني بـه ثم منعني منه وأصبحنـا نعد التقرب خيانة ونخاف أن يطلع أحـد على سرنا كأننا من أهـل الفجـور نعوذ بالله •• ولكن من يستطيع أن يقول ذلك لأخي وينجو من الموت ؟! » •

- ٣ -

العباسة عروس الرواية

عـلم أبو العتاهية من الحديث أن السيدة هـي العباسـة أخت

الرشيد . وكان يعلم أن الرشيد عقد عليها لجعفر بن يحيي البرمكي وزيره ليحل له النظر اليها لأن الرشيد كان يحب جعفر ويحب الاجتماع به ولا يصبر على بعده ، وكان يحب أخته العباسة أيضا ويحب أن يراها كثيرا ، فعقد لجعفر عليها حتى يحل له أن يراها في مجلسهم ، ولخوفه مما وراء ذلك . وعلم أبو العتاهية مما رآه وسمعه ان جعفر دخل بالعباسة سرا وان الغلامين هما ثمرة ذلك الزواج ، وانها تخاف أن يعرف أخوها الرشيد ذلك فيقتلها . فخفق قلب أبو العتاهية فرحا بهذا الاكتشاف لما يرجوه به من الكسب الكثير ، فان أعداء جعفر يبتاعون مثل هذه الوشاية بألوف الدنانير لا سيما الفضل بن الربيع . ودمعت عينا أبي العتاهية ليس تأثرا لحال العباسة ولكن من حملقته من ذلك الثقب . وأحس ان العطاس يكاد يدهمه فخاف أن يعطس فيفتضح أمره ، وجعل يفرك أرنبة أنفه حتى أذهب العطاس فعاد الى التلصص والنظر فسمع عتبة تخفف عن العباسة وتقول لها : « دعينا من البكاء الآن فقد تكبدت المشقة وتعرضت للخطر لتشاهدي ولديك فقبليهما وتزودي منهما ودعي المقادير تجري بما يشاء الله » .

فأطاعتها والغلامان في حجرها شاخصان اليها وقد استغربا ما رأياه منها ، فلما رأتهما ينظران اليها والدمع في عيونهما لم تتمالك عن الابتسام وعيناها تقطران دمعا وتناولت الكبير وضمته وجعلت تقبله في خديه وفي عينيه وجبينه ورأسه وعنقه وصدره وتستنشق ريحه وهو مغرق في الضحك يحسبها تلاعبه أو تداعبه . واني له أن يشعر بما يجول في خاطرها أو بما يهيج من عواطفها وهو لا يعرف من ملاذ الدنيا الا الاكل والشرب ولم يكابد من حوادث الزمان الا اللعب بالرمل أو بالكعاب . وما مطامع الدنيا عنده الا ثدي أمه . فاذا فطم كان همه بطنه ومطمعه عجلة يديرها أو كرة يلاعبها وتسليته حصى يبني بها بيتا

أو طينا يصطنع منه تمثالا . يرى المائت فيظنه نائمـا ويلقى الثعبـان فيحسبه حبلا . لا يخـاف الهجر ولا يحاذر الفقر ولا يعرف نوائب الدهر . ربما أحب هرة تلعب بـين يديه أكثر مما يحب والديه لأنه يحب كل مـا تنتهي راحته اليه . ولو عقـل لقاس تعلقه بطير صاحبه بضعة أيـام ثم طار منه بتعلق الام بابنها وهو حشاشة قلبها وبضعة من نفسهـا وحبيب قلبها . لا لـوم على الاطفال اذا لـم يدركوا حب الوالدين لهم لأنـه سر مغلق على غيرهمـا . ومهما يكن من ارتقاء عواطف الشبيبة واختلاطهم بالعائلات ومشاهدتهـم حنان الوالدات فهم لا يدركون حقيقة ذلـك الحنان حتى يولد لهم الاولاد ، فيذوقوا مرارة التربية وحلاوتها بين مداعبة ولـد يشرق وجهه صحة ويسيل كلامه لطفا وتزيده اللكنة عذوبة ، وبين سهر على طفل يقاسي الالم ويعجزه التعبير عن موضعه لاحتباس كلامه أو يكتمه خوفا من مرارة الدواء . والوالدان بين ذلك يراقبان حركـاته ويحصيان أنفـاسه وقد غلت أيديهما وتفطر قلباهما وضاقت الدنيـا عليهمـا . ولا سيما الام فانها ألصق بولدهـا في طفولتـه ، اذا مشى قلبها معه ،أوضحك رقصت جوارحها له واذا تكلم كـانت كلها آذانا لعله يلتمس منها شيئا يسره ويسرها أن يناله ولو كـان في نيله شقاؤها . وهي تزداد حبا له كلما تعذبت في تربيته ويزداد حنانهـا عليه بـازدياد شقائها به . فمن أين لغير الابوين أن يفقهوا ذلك أو يدركوا حنو الوالدة — حتى المتزوجين الذين لم يرزقوا أولادا لا يستطيعون ادراك حب الوالدة لولدها الا تخيلا ، وأين الحقيقة من الخيال ؟

فأخذت العباسة تستنشق ريح ولديها وهي تجهش بالبكـاء وقلبها يتردد بين اليأس والرجاء ، والغلامان يضحكـان والسذاجة الفطريـة ظاهرة في وجهيهما وسلامة النية وطهارة القلب باديتان في كل حركة من حركاتهما . وقد أصاب المصورون اذ شبهوا الملائكة بالاطفال ، فانهـم

مثال الطهارة والقداسة وصدق اللهجة ، فهم لا يخفون عواطفهم ، ولا يكظمون ما في نفوسهم ، ولذلك كانت المشاعر الطبيعية ظاهرة فيهم وأقواها حب الذات . فالطفل يحب ذاته ويحب كل ما يرى فيه نفعا لنفسه . وهو يحسد ولكنه لا يكظم بل يظهر ذلك فيه ولا يستحي من اظهاره ـ ولذلك لما رأى أحد الاخوين أمه تلاعب أخاه وتقبله ألقى نفسه على صدرها كأنه يزاحمه على ما يكنه ذلك الصدر ، فقبلته العباسة ثم التفتت الى عتبة وعيناها تتكلمان عنها وقالت : « ما ألطف هذين الولدين وما ألطف اسميهما (الحسن والحسين) هل يسمح الله أن أعيش معهما ولو في كوخ حقير أو في خيمة بالبادية » .

فابتدرتها عتبة قائلة : « ان الله على كل شيء قدير .. الا ترين ان قد آن لك أن تعودي الى قصرك فان الفجر أصبح قريبا ونخاف أن يشعر أحد بنا فنقع فيما نحذره » .

قالت : « يعز علي الذهاب يا عتبة ولكن لا بد منه .. أين النقود التي أتيت بها ؟ . ادفعيها الى رياش .. » .

فتناولت بدرة ودفعتها اليه فتناولها وأثنى على العباسة ونهض فقبل يدها وكذلك فعلت برة . فقالت لهما العباسة : « لا حاجة بي الى أن أوصيكما بالحسن والحسين فانهما فلذة كبدي » .

وكان الحسن أكبرهما سنا فلما علم عزم أمه على الفراق ورآها وقفت ترامي عليها وأمسك بيدها وأسند خده على راحتها وقال وصوته مختنق : « تعالي معنا يا ماما .. وقولي لأبي يجيء معنا أيضا .. » .

فنظرت العباسة الى الغلام فرأته يرنو اليها وفي عينيه دمعتان ترددان بين المآقي وشفتاه ترتجفان لا تطاوعانه على الكلام . وكان يحاول التلفظ ويحاذر أن يسبقه البكاء وقد غص بريقه . فلا تسل عن قلب العباسة عند سماعها تلك العبارة ومشاهدتها ذلك المنظر وقد كانت

من أول اجتماعها بابنيهـا تتخوف من ساعة فراقهما وتغـالب نفسهـا وتتجلد وقد ضاق صدرهـا لاحتباس عواطفهـا . فلمـا رأت ما رأته وسمعت الحسن يذكر أباه ويطالبها به غلبتهـا عواطفهـا وأحست بمـا تكـابده من ألم الفراق وثقل المحـاذرة والتخوف فلم تتمالـك أن قعدت بغتة وضمت الغلام الى صدرها وقالت : « صدقت يا ولداه » . وأغرقت في البكـاء حتى أغمي عليهـا .

وكانت عتبة واقفة تراعي حركات مولاتها وتشاركها في كل عاطفة من عواطفها وقد همت بأن تخفف عنها فلما رأتهـا قعدت بغتة خافت عليها من الاغماء لأنها شاهدت اغماءها على هذه الصورة غير مرة فلما سمعتها تصيح وتبكي تحققت أنها سيغمى عليهـا فتناولت احدى الشموع مـن الشمعة وهرعت الى الباب وفتحته لتستدعي خادما يأتيها بالمـاء لترش سيدتها . وكـان أبو العتاهية لا يزال واقفا ينظر من ثقب الباب . فلمـا أسرعت عتبة اليـه وفتحته على غير انتظار والشمعة بيدها أخذها وارتبك في أمره وكاد الدم يجمد في عروقه فوقف كأنه صنم من الاصنام يحدق بعينين جامدتين كـأنه لا يرى شيئا . أما عتبة فظنته لأول وهلة خادمـا من خدم المنزل فصاحت به : « هات المـاء » . ثم رأت من لبـاسه أنه ليس من الخدم فاستغربت وقوفه هناك على هذه الصورة . أما هو فلم يطل جموده الا لحظة ثم انتبه وأخذ يجري فرارا . فتذكرت أنها تعرفه ثم فطنت الى أنه أبو العتاهية فأشكل عليها أمره . على أن خوفهـا على سيدتها من الاغماء غلب عليها فأسرعت الى غرفة الخدم وصاحت بهـم فنهض بعضهم وجاءوها بالمـاء فعادت الى سيدتها ورشتها به فـأفاقت . وأخذت تخفف عنها وذهنها مشتغل بأبي العتاهية وأدركت من ارتباكـه عند رؤيتها أنه كـان يسترق السمع والبصر وقد يكون سمع شيئـا من أحاديثهم وهو لايؤمن على السر ، وفي اطلاعـه على أمر هذين الغلامين

خطر على العباسة ، فكانت تخاطب مولاتها وتخفف عنها والقلق والارتباك باديان في وجهها وهي تتردد بين أن تطلع العباسة على هـذا الامر أو تكتمه عنها ولكنهـا آثرت كتمانه لئلا تزيد في أحزانها ومخاوفهـا وعزمت على تدبير وسيلة تمنع أبا العتاهية من افشاء هـذا السر . فلمـا صح عزمها ذهب قلقها وعادت الى التهويـن على العباسة والتخفيف عنهـا وأشارت الى رياش أن يذهب مع برة بالغلامـين فأطاعها ونهض فحمـل الغلامين على كتفيه وهو يلاعبهما ويضاحكهما ، وكـانا قد اعتادا لهوه ومجونه وظلت عتبة بجانب العباسة تحدثها وهـذه تتنهد وأثر الاغمـاء باد عليها . فلما خرج رياش وبرة أمرت الخادم الذي كـان قد جاءهـا بالماء أن يستقدم حيان فذهب وعـاد وحيان معه وآثار النعاس ظاهرة في عينيه اذ أيقظوه فجأة فوقف بين يدي عتبة فقالت له : « ان مـولاتي تريدك أن ترسل مع هذين من يكتري مركبا يركبانه الى دجلة » .

فخرج ولحقت به ودغته على انفراد وأبلغته ثناء مولاتها عليه ودفعت اليه بصرة هدية من مولاتها ثم أعقبتها بأخرى لمولاه المعلم فنحاس .

فأثنى حيـان على كرمها وجودها فقطعت كلامـه قائلة : « هـل أبو العتاهية هنا منذ زمن طويل ؟ » . وقد ذكرت اسمه ليعلم حيان أنها واثقة من وجوده هناك .

فقال : « بل جاءنا الليلة » .

قالت : « اصدقني .. » .

قال : « صدقتك . فانه جاء لبعض شأنه مع المعلم فنحاس الليلـة وكان المعلم قد ذهب الى فراشه فدعوته للمبيت عندنا فبات » . قـال ذلك غير متردد أو وجل فتحققت أنه صادق فيما يقول فقالت : « أطلب اليك قضاء حاجة لا تكلفك تعبا فهل تقضيها لي ؟ » .

قال : « سمعا وطاعة لك » .

قالت : « أريد أن تستبقي هذا الشاعر عندكم ، فلا يخرج قبل أن أعود في صباح الغد » •

فاستغرب طلبها وقال : « أخاف الا يقبل مولاي بقاءه » •

قالت : « قل لـه ان أمـير المؤمنين يريد استبقاءه لأمر يهمه » •

فلما سمع ذكر أمير المؤمنين خفق قلبه لأنـه لم يكن يعلـم من أمر العباسة سوى أنها امرأة من سراري بغداد استأجرت الغـرفة في تلك الليلة لأمـر خاص : « سأقول ذلك لمولاي » •

قالت : « احذر أن تستخف بقولي » •

قـال : « سمعا وطاعة » •

فقالت : « فاعدد لنـا البغال لنرجع » • وأسرعت الى سيدتها فرأتها في انتظارها وقد استبطأتها فسألتها عن سبب تغيبهـا ، فـذكرت انهـا ذهبت لتأمر حيان بأن يعد البغال ، فصدقتها ثم خرجتا ومضتا •

أما حيـان فأخذ يفكر فيما سمعه من عتبـة عن الاحتفاظ بأبـي العتاهية فلم يفهم لذلـك سببا معقولا وقد خوفه ذكرها أمـير المؤمنين فعزم على ابلاغ سيده ما سمعه منها في الصباح ليلقي تبعة ذلك عن عاتقه • وكان قد مضى معظم الليل فمضى الى فراشه •

أما ابو العتاهية فانه فر من وجه عتبة وقـد ذعر وكـاد الدم يجمد في عروقه من تلك المفاجأة ، لكنه ظنها لم تعرفه • فـوصل الى فـراشه وركبتاه تصطكان ، فاستلقى بعد أن أغلق الباب ولبث صامتا يتوقع أن يسمع صوتا أو يشعر بوقع أقدام أو حركة تدله على ما كـان من تـأثير المفاجأة فمضت برهة وهو يحبس أنفاسه مبالغة في الاصغـاء ويصيـخ بسمعه والعتمة قد تكـاثفت وشبح عتبة نصب عينيه • وأخذ يفكـر فيما عسى أن تكون العاقبة فخاف وغلب عليه الحذر • وكـانت الحجرة التي بات فيها تشرف على الزقـاق المؤدي الى باب الدار من نافذة مقفلة

فما لبث أن سمع قرقعة اللجم وجلبة السياس فنهض ونظر من شق النافذة فرأى رياشا وبرة قد ركبا ومعهما الغلامان فتربص ليرى ما يكون من أمر العباسة وجاريتها فسمع حركة السياس في اعداد الركائب ورآهما وقد خرجتا على بغلين وفي ركاب العباسة سائس يده على كفل البغلة وقد التفت بعباءة وغطت رأسها بما يشبه العمامة • فتحقق من ذهابهما فاطمأن قلبه وعاد الى فراشه مفكرا فيما جاء من أجله الى فنحاس فعزم على أن يبكر في الصباح اليه ويفاتحه بالامر ثم ينصرف الى بيت الامين أو الى الفضل بن الربيع ويجيء مع من ينتدبانه لانتقاء الجواري •

★ ★ ★

نام أبو العتاهية وهو يهجس ولم يطل نومه حتى سمع جلبة في الزقاق يتخللها قرقعة اللجم وصهيل الخيل فذعر ووثب من فراشه الى النافذة ففتحها فرأى الصباح قد لاح • وأطل فرأى عدة رجال على أفراس جياد عرف من سروجها وما عليها من أكسية الديباج أنها من اصطبل الامين فخفق قلبه وتفرس في الراكبين فرأى بينهم الفضل ابن الربيع وحوله جماعة من حاشية الامين ورأى في ركابهم جماعة من الخدم وسمع الفضل يقول : « أرى القوم نياما » •

فأجابه أحد الفرسان : « وماذا لو أيقظتهم ، ان المعلم فنحاس يؤثر المال على النوم »•

فضحك الفضل وقال : « الا اذا ظننا آتين لأخذ ماله أو حياته » ••

ثم تقدم أحد الخدم وقرع الباب وأخذ الفرسان في النزول عن جيادهم وأول من نزل الفضل وكان طويل القامة رقيق المفضل خفيف شعر

اللحية أسمر اللون تخالطه صفرة ولا يزال في عنفوان الشباب وقد غلب عليه ما يدعونه المزاج الصفراوي فساعده على كتمان عواطفه والتظاهر بالصداقة لأعدائه والسعي في الوشاية بهم وأهل هذا المزاج من أقدر الناس على الكظم والتظاهر بما يشاءون من الالوان وكتمان ما تكنه ضمائرهم ، فهم لذلك يصبرون على الضيم وينتهزون الفرص لنيل مآربهم فلا يخرجهم الغضب عن طور التعقل كما يفعل بأهل المزاج العصبي أو الدموي الذين اذا غضبوا ظهرت أمارات الغضب في عيونهم وجباههم ولذلك ندرت فيهم رباطة الجأش والصبر على المكاره .

فلما رأى أبو العتاهية الفضل قال في نفسه : « لا بد من أمر بعثه على التعجل في المجيء ولا بد أن يكون الأمين قد حمله على ذلك تشوقا لما وعد به نفسه من الجواري لاهتمامه بأسباب القصف والترف ورغبته في الغناء . وخاف أبو العتاهية أن يحول قدوم الفضل في تلك الساعة دون ما يتوقعه من الكسب وهو لم يتحدث الى فنحاس بعد فتحول عن النافذة يقصد الى غرفة فنحاس فرأى أهل الدار في هرج يتقدمهم حيان مسرعا الى الدهليز لاستقبال القادمين . وكان البواب قد أنبأه بقدومهم فلم ينتبه لأبي العتاهية . أما هذا فظل سائرا الى غرفة المعلم فنحاس وكان بابها مقفلا فناداه قائلا : « الا يزال المعلم فنحاس نائما ؟ » .

وسمع وقع خطواته داخل الغرفة ثم فتح الباب وأطل منه المعلم فنحاس بلباس النوم وقد نبش شعر رأسه وانتفش واختل نظام سالفيه ولحيته . وكانت لحيته شمطاء يخالطها شيب قليل مع ميل الى الطول والاسترسال وقد شطرها شطرين ، وأنفه كبير مستدق ذهب طوله باحديدابه . وقد استيقظ بغتة فنهض وقميصه مفتوح من أعلاه فبان أسفل عنقه وأعلى صدره وفيهما تجعد يتخلله شعر أجعد حتى ظهر كأنه

من المتشردين .

فحالما وقع نظره على أبي العتاهية صاح فيه : « ما وراءك يا أبا العتاهية ؟ » .

فدخل أبو العتاهية وأغلق الباب وراءه وقال : « جئتك مساء أمس بمهمة ، وكنت قد رقدت فانتظرتك حتى الساعة ولما استبطأتك جئت لايقاظك ، فعسى ألا أكون قد أزعجتك » .

فقال وهو يصلح لحيته وشاربيه وقميصه : « ليس ثمة ازعاج ، قل ما الخبر » .

قال : « لا تخف مسألة رابحة .. أوعزت الى مولانا ولي العهد باقتناء بعض الجواري يبتاعهن منك ، وأنت تعلم نفوذ الشعراء عند الخلفاء وأهل الدولة ، فلما قبل جئت أنقل الخبر اليك فلا تضع تعبي » .

فقطع فنحاس كلامه قائلا : « فهمت .. كن براحة بال .. اذا جاء رسوله أضفت نصيبك الى الثمن بارك الله فيك .. انك رجل غيور محب .. واذا شئت جعلت نصيبك من الربح جارية جميلة » .

قال : « لا حاجة بي الى الجواري » .

فضحك وأخذ يبحث عن قبائه وجبته وقال : « طيب . فاني أفهم بالاشارة ، فافهم أنت . ولا يتم الشرط الا بعد وقوع البيع » .

قال : « سيتم البيع تو الساعة لأن الامين أرسل الفضل بن الربيع وقد وصل الى دارك وأظنهم أدخلوه دار الرقيق الآن ، واحذر أن تطلع أحدا على ما دار بيننا .. » .

فوضع فنحاس يده على فم أبي العتاهية ، وقال : « لله ما أصغرك كنت أظنك ذكيا » . ثم عاد الى تسريح شعره واصلاح شأنه فمشط لحيته وفتل شاربيه وشد على خصره منطقة فوق القباء ، ولبس الجبة وخرج وأبو العتاهية في أثره ، واذا بحيان يسرع نحوهما فلما وقع

نظره على أبي العتاهية أجفل وتذكر وصية عتبة ، فـأراد أن يوقف مولاه ليخبره عن القادمين ويبلغه الوصية فابتدره فنحاس قـائلا : « فهمت أنا ذاهب اليهم أين هم ؟ » • وقد حسبه قادمـا ليخبره بمجيء الفضل • فلم يجسر حيان أن يخبره بغرضه أمـام أبي العتاهية فقال : « جاء مولانا الفضل بن الربيع فأدخلنـاه دار الرقيق وهو في انتظـارك هناك » وأجل الخبر الآخر الى فرصة أخرى •

أما أبو العتاهية فنظر الى حيان وتبسم وهو لا يعلم ما في ضمـيره فحياه حيان متأدبا ومشى في أثره •

★ ★ ★

مشى المعلم فنحاس يجر أذيال جبته حتى خرج من دهليز داره الى باب بجانب الباب الكبير هو مدخل دار الرقيق • فـأشرف منه على فناء واسع تحيط به غرف عدة ربما زاد عددها على ثلاثـين غرفـة • وكان الفناء مزدحما بالخدم من رجال الفضل وأنظارهم متجهـة الى الغرف كأنهم يشاهدون فيهـا شيئا غريبـا • وبجانب البـاب من الداخـل غرفة مفروشة بالطنافس وفيهـا الوسائـد مصفوفة بين الجدران المزخرفة بالنقوش الملونة ، وكـان الفضل قد دخل هذه الغرفـة مع بعض خاصته ولبث في انتظـار المعلم فنحاس ، الذي أقبل على الغرفة فرأى الفضل في صدرهـا جالسا الأربعاء وقد أسند مرفقيـه على ركبتيـه فهرع اليه وأكب على يده ليقبلها ويدعو له فضحك له الفضل ومنحه يـده وقال : « أظننا أقلقناك بهذه الزيارة » •

قال : « كلا يا مولاي فان زيارتكم شرف كبير » •

فأشار اليه أن يجلس ، وقال له : « ان مولانـا ولي العهد رغب الينا

أن نأتيه ببعض الجواري الحسان ممن يحسن الغناء ، فأحببنا زيارتك لمشاهدة دار الرقيق والتفرج على ما حوته من الجواري والغلمان ، فقد قيل لنا أنها تحوي من كل معنى طربا » .

فقال في خضوع وأدب : « لقد تجشمتم المشقة بهذه الزيارة فأوليتموني شرفا لا أستحقه ، وكنتم في غنى عن ذلك باشارة منكم فننقل دار الرقيق بجملتها الى ما بين يدي مولانا حفظه الله ولكن اقبال سعدنا حملكم على تكبد هذه المشقة . أما اذا شئتم أن تشاهدوا الرقيق في هذه الدار فانكم ترون فيها ما لا يجتمع في سواها لأني لم أدخر وسعا في اقتناء أحسن الرقيق الابيض والاصفر والاحمر والاسود من الجواري والغلمان على اختلاف القدود واللغات والاسنان من المولد في العراق أو الحجاز والمجلوب من أقاصي بلاد الترك والروم وطبرستان وخراسان والسند والمغرب ، وفيهم الصقلبي والصقلبية والرومي والرومية والتركي والتركية والفارسي والفارسية والارمني والارمنية والسندي والسندية والبربري والبربرية ... » .

فسأله الفضل : « هل عندك بعض الجواري المغنيات ؟ » .

قال : « كيف لا .. وقد تعلمن الغناء عند مغني مولانا أمير المؤمنين نفسه وحفظن الاشعار المطربة وأتقن الضرب على آلات الطرب وفيهن العوادة والطمبورية حتى صاحبة الدف والمزهر » .

فضحك الفضل وقال : « كأني بك تصف جواري أمير المؤمنين .. ولعل المغنيات اللواتي أشرت اليهن من الجواري الصفر والسود ومولانا انما يريد مغنيات من الجواري البيض » .

فقال : « كل ما يطلبه مولانا عندي » .

قال : « ولكن أهل بغداد لم يعلموا الجواري البيض الغناء على ما أعلم وجعلوهم للتسري كما لا يخفى عليك ولا أعرف أحدا علم الغناء

للبيض الا ابراهيم الموصلي مغني أمير المؤمنين .. » .

قال : « ألم أقل لمولاي انه يجد عندي كل ما يطلبه ؟ » .

فتحفز الفضل للقيام فنهض المعلم فنحاس ، ونهض سائر الحاشية ومشى هو بين أيديهم حتى خرجوا من الغرفة الى فناء الدار فتسارع الخدم الى الانزواء ووسعوا الطريق للفضل فمشى والمعلم فنحاس بين يديه وفي أثر الفضل رجال حاشيته ، حتى اذا قطعوا الفناء وصلوا الى الغرفة الاولى من جهة اليمين وكان بابها مفتوحا قليلا ففتحه فنحاس بيده فرأى الفضل سربا من الفتيات البيض صغيرات لا تتجاوز أكبرهن العاشرة من العمر ، لا يكسو أبدانهن الا ما يستر العورة من الأطمار البالية وخشونة البادية ظاهرة عليهن بارسال شعورهن على طبيعتها لم يمسها مشط . ورأى جمال البداوة يتجلى في اشراق وجوههن بالبياض المشرب حمرة دليل الصحة والعافية ، ناهيك بجمال العيون . وفيهن شقراء الشعر زرقاء العينين وسوداء الشعر والعينين وما بين ذلك . أما هن فذعرن لفتح الباب ولما رأين الفضل ورجاله نفرن نفور الظباء من الصيادين وظهر الخوف في وجوههن ، والحجرة أضيق من أن تتسع لفرارهن فجعلن يتسترن بعضهن وراء البعض وعيونهن شاخصات وأخذ بعضهن في البكاء ، واستغثن بلغة لم يفهمها أحد من الوقوف . فدهش الفضل لذلك المشهد الغريب ونظر الى فنحاس فابتدره هذا قائلا : « لا تعجب يا مولاي لما تراه في هؤلاء من بداوة الفطرة فان معظم اللواتي في قصور الخليفة والامراء من الجواري الحسان والقيان والمطربات كن في بادىء الامر مثل هؤلاء وقد أتيت بكم الى هذه الحجرة لأريكم حال الجواري عند قدومهن لتعلموا كم نقاسي في تربيتهن حتى تنبغ منهن الجارية التي تباع بألف دينار أو عشرة آلاف أو عشرين ألفا » .

فقال الفضل : « حقا انه عمل شاق .. هل كانت فريدة ومنة ودينار وأم الخال وغيرهن من الجواري الفاتنات في مثل هذه الخشونة ؟ » .

قال : « نعم أن أكثرهن مجلوب على هذه الحال » .

قال : « من أين تأتي بهن ؟ » .

قال : « ان النخاسين يخترقون بلاد الترك والصقالبة والروم ويتحملون المشاق والاخطار ليأتوا بهن » .

قال : « وكيف يؤتى بهن ؟ » .

قال : « يغزون البعض غزوا والبعض الآخر شراء من الأبوين أو الاقارب بثمن بخس ويبيعونهن لنا بأغلى الاثمان » .

فقال الفضل : « أيجوز حرمانهن من ذويهن ليحملن صغيرات على هذه الصورة ؟ » .

فتبسم فنحاس وقال : « ان استرقاقهن من أكبر أسباب سعادتهن لأنهن ينتقلن من خشونة البداوة وشظف العيش الى المدينة والترف وقد يبلغن من رخاء العيش ما لا يبلغه بنات الامراء ، خصوصا من كانت منهن جميلة الوجه رخيمة الصوت والقليل منهن من ينبغ .. فربما نبغت واحدة من كل خمسين أو ثمانين . فمن وجدنا فيها ذكاء وصوتا رخيما علمناها الغناء وحفظناها الأشعار . ونعلم الباقيات بعض الاعمال البيتية وغيرها على قدر الطاقة .. وسترى فيما تمر به من الغرف أصنافا من الجواري على اختلاف الطبقات .. » .

فاستغرب الفضل ما سمعه وأراد الاكتفاء بما رأى فسبقه فنحاس الى الغرفة التالية وفتحها ، وأراه فيها بنيات سود البشرة جعد الشعور فطس الأنوف فعرف الفضل أنهن من بنات الزنج وهن أقرب الى القذارة والوحشية من أهل الحجرة الاولى . والسواد أقبح الألوان يندر اجتماعه

مع الجمال . ولحظ فنحاس أن الفضل ميال الى الانتقـال من هنـاك فمشى أمامـه يقول : « هؤلاء صغار الزنوج يحملـن الينا النخاسون من أقاصي السودان سبيا واختطـافا بلا ثمن فنبتاعهـن بثمن بخس وأكثرهـن يتعلمن الخدمـة ويغلب أن نجعلهـن في خدمـة الجواري البيض » .

وقبل أن يصلوا الى الحجرة الثالثة قال فنحاس : « وفي هذه الحجرة بنات من البربر يحملهن النخاسون من بادية افريقية . وأكثـر هـذا الصنف من الجواري ينقل الى بغداد بدلا من الجزيـة كمـا لا يخفى على مولاي ، وفي الغرفة التي تليهـا جوار صفر من بـلاد السند ، وفي التي بعدها جوار حمر من بلاد الروم ، وفي الغرف الاخرى طبقات من أولئك الجواري ، بين سراري ومواشط وحواضن وطباخات وخبازات ونحو ذلك من ضروب الخدمة . وفي بعض هذه الغرف طبقات من أصناف المماليك البيض والسود ، وكلهم قد تدربوا على الاعمـال المنزلية بـين طـاه وخباز وفراش وسائس . وفيهـم من أتقن الادب وحفظ الشعر والعربية ومنهم المغنون والندمـاء والمضحكـون وغيرهم بين بيض وسود على اختلاف الاسنان .

* * *

رأى الفضل ان أمر التفرج قد يطول فقال : « أرنا أمثلة من أغرب ما عندك ودعنا من هذا التفصيل فليس في الوقت متسع لرؤية كل من في هذه الغرف » .

فقال : « هل تريد أن أريك الغلمـان الصغار من البيض والسود ، فانهم في مثل ما رأيته » .

قال : « أرنا الجواري الصبيات » .

فتجاوز فنحاس عدة غرف حتى وصل الى حجرة فتح بابها فاذا فيها فتيات بيض بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر تبدو سذاجتهن ، ويلبسن أكسية من الاثواب البسيطة ، وشعورهن مرسلة أو مجدولة وفي آذانهن الاقراط وفي أعناقهن عقود من الخرز الملون وفيهن جمال النساء وحياؤهن . ولما رأين الفضل ورجاله غلب عليهن الحياء وتولاهن الخوف ، فوقع نظر الفضل على واحدة منهن رأى في عينيها سحرا وفي قامتها رشاقة وقد زادتها السذاجة جمالا وهيبة ، فوقعت من نفسه موقعا حسنا فناداها بالعربية فلم تفهم مراده ، ولكنها أدركت أنه يناديها فنفرت واختبأت وراء جارتها وحولت وجهها وغطته بذراعها فأعجبه ذلك النفور ، فقال : « أين أبو العتاهية أو أبو نواس يصف لنا هذا المنظر ببيت من الشعر » .

فتذكر فنحاس أبا العتاهية والتفت يتوقع أن يراه الى جانبه فلم يجده وأوشك أن ينطق باسمه لو لم يتذكر تكتمه فقال : « صدق مولاي فان هذه الجارية من طبرستان اشتريتها في جملة جوار من نوعها وليس فيهن أجمل منها .. فكيف لو رأيت الجواري المولدات من البصريات والكوفيات ذوات الالسن العذبة والقدود المهفهفة والاوساط المخصرة والاصداغ المزرفنة والعيوز المكحلة وحسن زيهن وزينتهن وفيهن الطويلة البيضاء والسمراء اللعساء والصفراء والعجزاء ، وبينهن من اذا صبت عليها جرة ماء وهي قائمة فلا يصيب ظاهر فخذيها شيء لعظم عجيزتها مثل ما يتحدثون عن عائشة بنت طلحة التي كانت اذا همت بالنهوض يساعدها عليه اثنان » .

فضحك الفضل لمهارة فنحاس في وصف النساء على شيخوخته وقال له : « أراك ماهرا في وصف الحسان يا معلم فنحاس » .

فأجابه على الفور ويده على لحيته : « وأين قضيت هذه الشيبة يا مـولاي » •

فقال الفضل : « اذهب بنا الى الجواري المولدات » •

فتحول الي الجانب الآخر من الفناء فتبعه الفضل ورجاله وفنحاس يقول : « أظنكم تعبتم من الوقوف فهيا الى الجواري المغنيات اللواتي حفظن الاشعار وأتقن الضرب على العود وغيره من آلات الطرب » ومشى حتي وصل بهم الي غرفة فتح بابهـا ووسع للفضل مدخلهـا فنظر الفضل فرأى الغرفة مفروشة بالبسط وفيهـا الوسائد وفي بعض جوانبها ثلاث من الجواري البيض جالسات ، وقد فاحت رائحة المسك منهن • عـلى احداهن ملحفة معصفرة فوق غلالة حمراء وعلى رأسها عصابة مزركشة ، وقد أرخت تحت العصابة سالفتين علقت في طرف كل سالفة ياقوتة حمراء وأرخت شعرها كأنه الليل وتبخرت بالعود وتعطرت • وكـانت مقدمة على صاحبتيها لأنها أجمل خلقة ، على أن صاحبتيها كـانتا في مثل لبـاسها ولكنها تفضلهما بجمالها ورشاقة قدها وبعينيهـا السوداوين كأنهمـا مكحولتان ولونها أبيض فيه صفاء البلور وفي عنقها عقد مـن العقيق • وكـانت جالسة بين رفيقتيها على وسادة • فلمـا فتح الباب ابتدرهـا فنحاس قائلا : « قومي يا قرنفلـة ، وقبلي يد مولانـا الفضل بـن الربيع » • وكانت تعرف هـذا الاسم وعلاقته ببلاط الخليفة ، فتحفزت للوقوف وطـال تحفزها لثقل أوراكها على حد قول الشاعر :

فقيامها مثنى اذا نهضت   من ثقلـه وقعودها فـرد

ثم نهضت ومشت وهي تتمايل وسراويلها تتثنى فـوق قدميهـا • حتى اذا دنت من الفضل بن الربيع هشت له وابتسمت ابتسـام التحية بلطف ورقة وانحنت لتقبيـل يده فمنعهـا • والتفت الى فنحاس مستحسنا فقال فنحاس : « خاطبها يا مولاي فانها فصيحة اللسان » •

فحياها الفضل فأجابت بأفصح عبارة ، فأدرك من لهجتها أنها بصرية ولكنها تختلف عن أهل البصرة بلون الوجه وسائر الملامح فنظر الى فنحاس وقال له : « لعلها من أهل البصرة ؟ » .

قال : « كلا ولكنها ربيت في البصرة منذ طفولتها وأصلها من بلاد الكرج ، وقد ابتعتها صغيرة مثل الفتيات اللواتي شاهدتهن في الحجرة الاولى فآنست فيها ذكاء وجمالا فأرسلتها الى عميل لي في البصرة علمها العربية والقرآن وحفظها الاشعار . ولما عادت الي أعجبني نطقها ورخيم صوتها ورأيت ما علمته من رغبة رجال الدولة في الاقتداء بأمير المؤمنين بتعليم الجواري البيض الغناء فرغبت الى الموصلي في تعليمها فأبى حتى بذلت له المال الكثير وصرت أبعثها اليه كل صباح تأخذ عنه صوتا بعد صوت حتى اتقنت هذه الصناعة وأصبحت نادرة بين جواري بغداد لا نظير لها حتى في بلاط الخليفة » .

وكان فنحاس يتكلم والفضل يتأمل جمال الجارية وكانت قد أنزلت عودا كان معلقا على الحائط فانحسر كمها عن يدها فبانت بضاضة زندها وعليه الاساور والدمالج وبان الخضاب في كفها ورأى قرطيها يلمعان في أذنيها . فقال له الفضل : « قلت انها تحفظ الشعر والعربية ؟ » .

قال : « اسألها ما شئت واسمع حديثها أو أنظر الى عصابتها واقرأ ما زركشته عليها » .

فتقدم الفضل ونظر الى العصابة فرأى عليها بيتا من الشعر بحروف من الذهب هو :

ليس حسن الخضاب زينا لكفي   حسن كفي زين لكل خضاب

فأعجبه ذلك والتفت الى فنحاس وهو يقول : « ما أجمل هذه العصائب لله در مخترعها ... » .

قال : « أظنك تعني مولاتنا علية أخت الرشيد ، فالحق انها قد أوجدت للحسان سببا كبيرا من أسباب الجمال » .

قال الفضل : « هل تعلم السبب الذي من أجله اتخذت هذه العصائب ؟ » .

قال : « كلا يا مولاي » .

قال : « أنا أخبرك عن السبب . ان في جبين علية فضل سمة كانت تسمح به ، فأرادت اخفاء ذلك العيب فاتخذت العصائب المكللة بالجواهر لتستر بها جبينها ، فأحدثت والله شيئا ما رأيت فيما ابتدعته النساء أجمل منه » .

فتحقق فنحاس أن الفضل سيشتري هذه الجارية لا محالة فأراد أن يرغبه في الاخريات ، فأشار الى احداهما اشارة فهمتها فانزوت في بعض جوانب الغرفة ، والتفتت الى مرآة معلقة بالحائط بحيث لا يظهر وجهها لأحد وكان الفضل مشتغلا عن ذلك بمراقبة الجارية الاولى وهي تتلهى باصلاح العود ، فلما علم فنحاس ان الجارية الثانية أتمت وصيته التفت الى الفضل وقال : « وأنظر الى ما على وجه هذه . تقدمي يا سوسنة » . وأشار اليها فأتت تتهادى بمشيتها وثوبها الارجواني يتموج بلمعانه .

فتفرس الفضل في وجهها فرآها قد كتبت على خدها بالمسك « الفضل بن الربيع » . فافتتن بذلك ورغب في هذه الجارية أيضا .

فأدركت الثالثة رأيه وخافت أن تبقى وحدها وهي تعد ذهابها مع الفضل نجاحا كبيرا لا تطمع في أحسن منه ، فانزوت جانبا وبيدها تفاحة عالجتها سرا ثم عادت حتى أقبلت على الفضل وقدمت التفاحة له فتناولها واذا عليها بيت من شعر مكتوب بالغالية وهو :

أقول والركب قد مالت عمائمهم وقد سقى القوم كأس النعسة السهر

فأدرك الفضل أنها تشير الى ما يقوله ناظم هذا البيت (أبو ذهل الجمحي) بعده :

يا ليت أني بأثوابي وراحلتي عبد لأهلك هذا الشهر مؤتجر
ان كان ذا قدرا يعطيك نافلة منا ويحرمنا ما أنصف القدر

فكأنها تعرض برغبتها في الذهاب مع رفيقتيها فاستحسن الفضل فطانتها وعزم على ابتياع الجميع ، وكان في عزمه سماع غنائهن ولكنه رأى أنه أبطأ ولم يكن ميالا للهو والقصف وانما طاوع الامين لغرض له في سياسة الدولة ، فهم بالرحيل لساعته .

★ ★ ★

خرج الفضل من الغرفة ، وتبعه رجاله وفنحاس بين أيديهم يقول : اذا شاء مولاي أريته أصنافا أخرى من الجواري البيض والسمر والحمر والسود ولكنه رأى أحسن ما عندي » . قال ذلك ترغيبا له فيمن وقع اختياره عليهن . وسار حتى أدخلهن غرفة الاستقبال فجلسوا فأمر فنحاس بمائدة الشراب فاعتذر الفضل لأنه لا يرى في الوقت سعة لذلك والتفت الى فنحاس وقال : « بعني هؤلاء الجواري الثلاث ؟ » .

فوقف فنحاس اجلالا وقال : « وهل على ولي العهد شرط أو مساومة فان الجواري جواريه ونحن كلنا عبيده سواء أعطانا مالا أم لم يعط .. » .

فلم تجز حيلة فنحاس على الفضل فقال : « نحن كلنا صنائع ولي العهد ، ولكن البيع والشراء حلال » .

قال : « اني أستحيي أن أسمي ثمنا فافترض ما تراه » .

قال : « ذلك اليك فاطلب ما تريده » .

قال : « مثلـك يعرف قيم الاشياء ، ومولانـا ولي العهد كريم اذا أعجبه أمر فلا يبالي ما يؤدي .. ونحن نقبل منه أن يؤدي ما أداه مولانا أمير المؤمنين .. » .

قال ذلك وابتسم كأنه يخلط بين الجد والهزل .

فقال الفضل : « وكم أدى أمير المؤمنين ؟ » .

قال : « أعطى ثمن الجارية مائة ألف دينار ، ولم تكن أحسن مـن قرنفلة أو سوسنة » . وضحك .

فضحك الفضل حتى استلقى ، وقال : « ألا تدري ما نأتي عـن السخاء ؟ . انه فعل ذلـك في أول خلافته فلما أمر وزيره يحيي بن خالد أن يؤدي هذا المال اعتذر ، فغضب أمير المؤمنين ، وأراد يحيي أن يبـين ما يتحمله بيت المـال في هذا السبيل فجعل المـال دراهم فبلغ ألف ألف وخمسمائة ألف ، وعرضها في الرواق الذي يمر به الخليفة ، فلمـا رآه استكثره وعلم أنه أسرف » .

فقال فنحاس : « فاذا لم يشأ مولانا ولي العهد أن يعطي عطاء أبيه فليكن كما فعل وزير أبيه .. » .

فعلم الفضل أنه يشير الى جعفر البرمكي عدوه وذكر ما بينهما مـن المنافسة ولكنه تغـاضى ولم يبد في وجهـه تأثر وقـال : « ما الذي أعطـاه ؟ » .

قال : « ألم يعط ثمن الجارية أربعمائة ألف دينار ؟ . فهل يليق بولي العهد أن يشتري بأقل من ذلـك ؟ . سأرسل الجواري الى قصر ولـي العهد والذي يعطيه مقبول » .

فاستاء الفضل من هذه المساومة ، وشق عليه أن يجعل الامين أقل سخاء من عدوه والناس يومئذ يكتسبون الاحزاب السياسية بالسخاء ،

وكـان فنحاس عالما بتلك المنافسة مطلعا على دخائل الجميع ، ولـم يقل ما قاله الا على علم بأن الفضل لن يساومه حفظـا لكرامة مولاه الامـين ورفعا لمنزلته بين رجال دولته حتى لا يجدوا ما ينزلـه في أعينهم . فنجح فنحاس واراد الفضل أن يظهر كرم الامين فقال : « لو كـان جواريك هؤلاء من طبقة الجارية التي ابتاعها الوزير لحق لـك هذا الطلب فما أنذا سأجعل ثمن الجواري مائة ألف دينار » .

فتزاهد فنحاس وقال : « كل ما يعطيه مولانا كرم منه فانتا ومـا نملك من بعض صنائعه » .

ولم يفت الفضل تملق اليهودي ولكنه جاراه وقال : « بـارك الله فيك . أرسل الجواري الى قصر مولانا مع وكيلك لأخذ المال » .

قال : « سأرسلهن حالا وليس قبض المال ممـا يستعجل فيه » .

فلما قال ذلك تحفز الفضل للوقوف فسبقه رفاقه الى النهـوض وأسرع أحدهم الى الخدم في فناء الدار ، فأشار اليهم أن يسرعوا في اعداد الركائب واشتغل الفضل في اجابة فنحاس على عبارات المجاملة والاطراء وهو أثناء ذلـك يتلثم بطرف عمامته اخفاء لمـا جاء من أجله .

- ٤ -

القبض على ابي العتاهية

لم يكد الفضل يخرج من باب البيت حتى سمع جلبة تم رأى جماعة من الرجال يتماركون وعليهم أردية تغطي أثوابهم كأنهم متنكـرون ،

ولكنه عرف من قلانسهم الطويلة المدعمة بالعيدان من داخلها أنهم من جند الدولة ـ وأول من ألبس الجند هذا الزي أبو جعفر المنصور فاستغرب تنكرهم بالاردية فوق أثوابهم ، وما لبث أن سمع صوتا ينادي : « أنا من رجال الفضل بن الربيع اتركوني وشأني » .

فلما سمع الفضل اسمه تقدم فتفرق أصحاب القلانس وكانوا متكأكئين على رجل يوثقونه وهو يحاول التملص من أيديهم وحالما وقع بصره عليه عرف أنه أبو العتاهية فاستغرب وقوعه في تلك الورطة وظل بهيتا وشللا فرأى في بعض جوانب الزقاق امرأة ملثمة تأمرهم أن يوثقوا الرجل ولما رأته بالغت في التنكر والتستر والرجال يحاولون شد وثاق أبي العتاهية وهو يهددهم بأنه من رجال الفضل وهم يقولون : « ما لنا والفضل تعال أجب الخليفة » . ووقعت عين الفضل على عين أبي العتاهية فرآه يشير اليه ويستنجده وفي استنجاده معنى توقع منه خيرا !

فصاح الفضل بهم : « اتركوا الرجل . من أمركم بأخذه ؟ » . فأجابوه وهم يشدون وثاقه : « انه طلبة أمير المؤمنين » ولم يلتفتوا اليه .

فقال : « ومن قال ان أمير المؤمنين أمر به وما شأنكم في ذلك ؟ » .

فتقدم عريفهم ونظر الى الفضل فرأى من بزته أنه من كبار أهل بغداد ، ولكنه أنكر تلثمه وقال : « أنا من جند أمير المؤمنين وقد أمرنا بالقبض على هذا الرجل » .

قال : « لا أراكم من الجند وليس عليكم شارة الدولة » .

فابتسم الرجل وخلع الرداء وأدار ظهره ليقرأه ما هو مطرز بين كتفيه فقرأ : « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » . ثم أشار العريف الى سيفه المعلق بمنطقه .

فضحك الفضل وقال « هذه ثياب قديمة من أيام المنصور فهو

الذي أمر رجاله بكتابة هذه العبارة على أثوابهم وبتعليق السيوف بمناطقهم فقد تكونون ابتعتم هذه الاثواب لتنتحلوا عمل الجند والا فأين اسم أمير المؤمنين الرشيد؟ » .

فمد الرجل ذراعه فقرأ الفضل على أعلى الكتف اسم الرشيد مطرزا بالقصب : « هرون بن المهدي أمير المؤمنين » . ثم تحول العريف عن الفضل وهو يهز رأسه وتوجه نحو رجاله وهم لا يزالون يعالجون أبا العتاهية وأخذ يحثهم على الاسراع في شد الوثاق . وكان رجال الفضل واقفين ينتظرون أمره لانقاذ أبي العتاهية ولم يشاءوا الاقدام على ذلك الا باشارته مخافة أن يكون راغبا في اخفاء نفسه .

أما هو فلما رأى استخفاف العريف به ناداه بصوت هادىء يمازجه التهديد قائلا : « ولكنه يقول لكم انه من رجال الفضل بن الربيع » .

قال : « ومن يضمن صدق قوله ؟ وهب انه صادق فنحن مأمورون بالقبض عليه » . قال ذلك وهو لا يلتفت وراءه فصاح به الفضل : « أنا أقول لك أيضا أنه من رجال الفضل فاتركوه » .

فلما سمعه يتكلم كمن له سلطان تحول نحوه وتفرس في وجهه من وراء اللثام ثم التفت الى المرأة التي كانت واقفة هناك فرآها تنسل من بين الجماهير فعلم انها تبغي الفرار ، فأدرك ان الرجل الذي يخاطبه ممن يخشى بأسهم ولكنه لم يكترث وعاد الى رجاله وصاح فيهم : « أوثقوه » .

وكان فنحاس في بدء الامر واقفا بجانب الفضل فساءه أن يقبض على أبي العتاهية في بيته ولم يفهم السبب وحدثته نفسه أن يتقدم لانقاذه مستعينا بمن في داره من الرجال ثم تذكر انه سيقاسمه ثمن الجواري فرأى ان القبض عليه بابا للتخلص من القسمة ، وما لبث أن

جاءه حيان وأسر اليه بما كان بالامس وما أوصته به الجارية من الاحتفاظ بأبي العتاهية ريثما تأتي وأن سيدتها من أهل أمير المؤمنين . فاطمأن فنحاس وصمم على السكوت ودخل الى داره يتشاغل بما لا طائل تحته .

أما الفضل فلما سمع تهديد العريف تقدم بقدم ثابتة الى الرجل وقال : « لا . لا ينبغي أن توثقوه حتى نعرف ذنبه . والا فانكم تتحملون تبعة هذا العمل عند أمير المؤمنين » .

فالتفت العريف الى الفضل وقال : « ومن أنت حتى تهددني بأمير المؤمنين ؟ امض لشأنك » .

فلما سمع رجال الفضل ما في كلامه من الاستخفاف كادوا يهمون بالرجل ويصرحون له بالحقيقة ولكنهم تركوا ذلك للفضل ولبثوا ينتظرون أمره . أما هو فبقي رابط الجأش وما زاد على أن أشار الى رجاله أن ينقذوا أبا العتاهية فهجموا فعلت الضوضاء وهم بالجند بتجريد السيوف فصاح الفضل فيهم : « لا حاجة بكم الى السيوف اتركوا الرجل فاذا سئلتم عنه فقولوا ان الفضل بن الربيع أخذه فاذا كان لأمير المؤمنين أو سواه أرب فيه فليطلبه مني » .

فلما سمعوا ما قال بغتوا وتوقفوا وجاء العريف الى الفضل وقال له : « ان الرجل طلبه أمير المؤمنين فكيف نتركه بعد أن قبضنا عليه وماذا نجيب اذا سئلنا عنه ؟ » .

قال : « قل لطالبه انه عند الفضل بن الربيع ، أو قل انه عند ولي العهد » . قال ذلك وهو يهم بازاحة اللثام .

فلم يبق عند العريف شك أنه أمام الفضل ونظر الى من حوله من الرجال فسمع أحدهم يقول له همسا : « انك تخاطب وزيرا كبيرا هذا هو الفضل بعينه » .

فتقدم العريف نحوه وقال : « لماذا لم يقل مولانا ذلك في بادىء الرأي فنحن صادعون بأمره » . ثم أشار الى رجاله فحلوا وثاق أبي العتاهية وتحولوا ، فانحاز أبو العتاهية الى رجال الفضل وقد وقعت عمامته عن رأسه وانتفش شعره فظهر قبح منظره وجاءوا به الى الفضل فوقع على قدميه وحاول تقبيل طرف ثوبه فأنهضه الفضل وقال : « ما الذي أوقعك في هذه البلية وأنت الشاعر الزاهد ؟ .. » . وضحك وهو يحسب سبب القبض عليه أمرا لا يجتمع مع الزهد .

فقال : « سأقص عليك السبب وهو يهمك » .

فأشار اليه أن يسير معهم وأمر رجاله فركبوا جميعا الى قصر الامين .

* * *

عاد العريف ورجاله الى قصر العباسة وكانت قد أرسلتهم ليقبضوا على أبي العتاهية عملا برأي عتبة . وذلك أنه لما عادت العباسة وعتبة الى القصر في أواخر الليل كما تقدم ظل بال عتبة مبلبلا بما علمته من أمر أبي العتاهية ورجح عندها أنه أطلع على سر مولاتها . فلما وصلتا الى القصر دخلت العباسة الى غرفتها لتنام واستولى القلق على عتبة فلم تستطع أن تمسك عن الدخول على سيدتها مبكرة والافضاء اليها بما لحظته وأشارت بالقبض على أبي العتاهية سريعا لئلا يبوح بالسر . فأعظمت العباسة الخبر وخافت ولم تر سبيلا للنجاة الا بالقبض عليه واخفاء خبره ريثما تدبر أمرها . فتقدمت الى عتبة أن تنفذ شرذمة من الجند ممن كانوا في خدمة قصرها ليقبضوا عليه بأمر الخليفة . فذهبت عتبة معهم حتى اذا وصلوا الى دار فنحاس كان الفضل قد سبقهم اليها ودخل دار الرقيق كما تقدم . وكان أبو العتاهية عازما على الخروج خلسة بحيث لا يشعر به الفضل ولا يعرف بوجوده هناك

مخافة أن يلحظ تواطؤه مع فنحاس ولم يخطر له أنــه مطلوب . وشعر حيان بذلك فأخذ يشاغله بالحديث ريثما يعــود سيده مــن دار الرقيق ليطلعه على سر ما أشارت به عتبة . فلمــا أحس أبو العتاهية بقــرب مجيء الفضل أسرع في الذهاب وكان العريف قد جاء بجنــده فــأشار حيان لهم أن يقبضوا عليه ، فهموا به ورأى أبو العتاهية عتبة فــأدرك غرضهم فأخذ يطاولهم حتى جاء الفضل فأنقذه .

فعاد العريف الى قصر العباسة وأنبأ عتبة بمــا كان مــن نجاة أبي العتاهية ، فأنبأت مولاتها ، فعظم الامر عليهــا وتحققت ان سرها لا يلبث أن يتصل بالفضل ، فأخذت تندب حظها . وخلت بعتبة وشاورتها في الامر فقالت لهــا : « لــم يبق لنا حيلــة يا مولاتــي الا باستنجــاد مولاي الــوزير » .

قالت : « وكيف نبلغه الخبر وهو اليوم مع أخي في الميدان يلعبان بالكرة والصولجــان » . وكــان ذلك اليوم موعد تلك الالعاب في الميدان بقرب قصر الخلــد .

قالت : « لا بد من ذلــك . واذا شئت فــاني أتولى نقل الخبر اليــه » .

فقالت : « تدبري الامر كما ترين فاني لا أعي شيئا » .

قالت : « هل أدعوه اليك الى هنا ؟ » .

قالت : « افعلي ما ترين لأني أخاف انكشاف أمرنــا قبل تدبــير حيلة للنجــاة » .

قالت : « لك علي ذلك باذن الله » . وهمت بالخروج فنادتها العباسة وقالت : « خذي اليه هذه البطاقة » . وكتبت اليه بطــاقة قالت فيهــا : « أدركني في أول لحظة تتفرغ فيها لاتقاذنــا من مخالب الاعداء » . ودفعت البطــاقة اليها فخبأتها بين أثوابها وخرجت توا الى غرفتها وتزيت بزي

رسول قادم من خراسان وتلثمت بلثام السفر وركبت فرسا ، وأسرعت نحو الميدان وكان قصر العباسة على مقربة منه .

فوصلت الى الميدان والشمس قد مالت عن خط الهاجرة ، فرأت الساحة غاصة برجال الدولة على خيولهم وقد أحاطوها بسور من حبال مزدوجة منصوبة على أعمدة وقام الجند حول السور بالاسلحة يمنعون الناس من الدخول . فوقفت بجوادها بحيث تشرف على اللاعبين حتى تتحقق موقف جعفر ثم تسعى في الوصول اليه . فرأت في بعض جوانب الساحة فسطاطا كبيرا خرج منه الرشيد على فرسه وقد اعتم بعمامة خفيفة خاصة باللعب وبيده صولجان ورجال الدولة على أفراسهم متأهبين للعب وفي أيديهم الصوالجة وقد اصطفوا صفين أحدهما مع الرشيد . ورأت الرشيد يجول على فرسه والعصا مشهرة بيده ثم التقف بها الكرة من الارض وأرسلها في الهواء فتسابق اللاعبون لملاقاتها بصوالجهم وأخذوا يستحثون أفراسهم وراءها ، وفي جملتهم جعفر الوزير على فرس أدهم وعليه دراعة تمنطق فوقها بمنطقة عريضة من الخز وعلى رأسه طاقية فوقها عمامة خفيفة . ولاحظت انه لم يكن أحد غيره يجسر على الدنو من الخليفة . وأما سائر اللاعبين من رجال الدولة فكانوا يجولون في الميدان مجاراة للخليفة ولا يجسرون على سبقه مخافة أن يغلبه أحد منهم والمجاملة تقضي بأن يكون هو الغالب . الا جعفر فقد كان يسابق الرشيد الى الكرة ، ويلاعبه بها والرشيد يجامله ، فاذا أخطأ ضحك وصاح بجعفر ومازحه وجعفر يتعاجز عن غلبه .

وكان صولجان الخليفة من الخيزران المطوق بالذهب ورأسه من الذهب الخالص وصولجان جعفر من خيزران بلا تطويق وكراتهم كتل من مشاقة الحرير معبأة في أكياس من الحرير المتين وقد شدت بأطواق من الاوتار المرنة . فلا يلبث الفارس أن يلتقف الكرة من الارض بطرف

صولجانه الاعقف حتى تطير في الهواء فيستحث الآخرون أفراسهم في أثرها وعيونهم شائعة نحوها وصوالجتهم مشرعة في أيديهم يبغون ملاقاتها وأفراسهم قد هاجها الاستكداد حتى تصبب العرق منها واختلط الزبد المتحلب من أفواهها بما أزبد من العرق المتقطر من أعناقها وصدورها وهي لا تشكو تعبا لأنهم أعدوها لمثل ذلك اليوم ، وكان الرشيد مولعا بهذه اللعبة ورجال الدولة يتقربون اليه باتقانها واللعب بين يديه بها .

* * *

وكان جعفر قد قضى ليلته الماضية في قلق على أثر مشاهدته ولديه اذ جاء بهما اليه رياش قبل ذهابه الى دار فنحاس فقبلهما جعفر واستنشق ريحهما ولاعبهما مدة فثارت عواطفه وأصابه ما أصاب أمهما تلك الليلة من استيقاظ الحنو الابوي على ولدين كأنهما الفرقدان قضت ارادة الخليفة بابعادهما عن حجر والديهما خوفا من الموت .

فبات جعفر تلك الليلة يتصور العباسة معانقة ولديها مع ما قد يجيش بين جنبيها من عوامل الحنان يخالطها خوف الفراق ناهيك بما يعترض ذلك من الهواجس والمخاوف ، فعظم عليه الامر وهجره النوم وقد كان على موعد للذهاب الى الميدان لملاعبة الرشيد بالكرة والصولجان في صباح الغد . فجاء بموكبه وحاشيته يظهر الارتياح لعلمه بما يحدق به من الحساد والوشاة . على أنه كان مطمئن البال من ناحية الرشيد واثقا بحسن ظنه به لا يخاف حسد الحاسدين ولا وشاية الواشين . وقد فاته ما يجول في خاطر الرشيد من أمره وما يدسه الوشاة اليه يهيجون نقمته عليه بما يعرضون به من اتساع سلطة البرامكة واقتنائهم الضياع والقصور واختزانهم الاموال مما لم يكن عند الرشيد مثله . علاوة على استبداد جعفر بشؤون الدولة . على أنهم لم يكونوا يأنسون من

الرشيد اصغاء ولم يسمعوا منه غير اطراء وزيره والثناء عليه وقد أطلق يده في أمور العامة والخاصة حتى أبـاح له الدخول بلا استئذان وسلم اليـه خزائن بيت المـال وأطلق يد أبيه يحيي في دوره وقصوره وجعل النظر فيها وفي حريمه اليه حتى كان يغلق أبواب القصر وينصرف بالمفاتيح .
ولم يكن الرشيد يصبر على فراق جعفر حتى آل ذلـك الى ما تقدم من عقده له على أخته العباسة بحيث يحل له النظر اليهـا ، فلا يخلو مجلسه منهما فأفضى ذلك الى ما علمته من زواجهما سرا .

على أن جعفر لم يكن يعد زواجه بالعباسة الا شرعيا وانما عمد الى التستر خوفا من غضب الرشيد ولم يخطر له انكشاف ذلـك السر لأحد وكان اقبال الزمان غره فأعمى بصيرته عمن يحدق به من الحـاسدين .
ولعل عذره ما كـان يراه من تزلفهم اليه وتظـاهرهم باحترامه ورعاية جانبه . ولا تظنه كان غافلا الى هذا الحد ، ولكنه سكر بما ظهر له من حب الرشيد واجلال مقامه وما كـان يبديه من اكرامه والرجوع بالامور اليـه .

- ٥ -

مقابلة العباسة لجعفر

ظلت عتبة تتفرس في اللاعبين حتى عرفت مكـان جعفر وهو بعيـد عنها ودون الوصول اليه رجـال وحبال ، فوقفت تكد ذهنها في ايصـال البطاقة اليه بغير أن يشعر بها أحـد . فوقع بصرها على رجل من غلمـان

جعفر كان يأتي قصر العباسة ببعض المهـام ولها به ثقة فاستغفلت رفاقـه وأشارت اليه فجاء أليها على انفراد فنادتـه : (حمدان) وكان حمدان هذا من أقدم غلمـان جعفر نشأ في منزل أبيه يحيى منذ طفولته وقد ربـى جعفر على ذراعيه ، وكان يحبه حبـا يقرب من العبادة وقد بلغ الخمسين من عمـره ولا يزال نشيطا وهـو فارسي الاصل خراساني المـوطن وكان مقدما عنـد جعفر يدخل عليه متى شاء ويعامله معاملـة الاقرباء ــ فلما سمع حمدان عتبة تناديه باسمه عرفهـا وأدرك انهـا متنكرة لغرض هام ، فقال لها : « ما وراءك ؟ » •

قالت : « جئت برسالة الى الوزير فكيف أوصلها اليه ؟ » •

قال : « انهم لا يلبثون أن يفرغـوا من اللعب ويعود الوزير الـى فسطاطه للراحة فيسهل الدنو منه •• اعطني الرسالة فأوصلها اليه » •

فسرت عتبة لذلك ودفعت اليه البطاقة فخبأهـا في ثيابه وقال لها : « اذهبي مطمئنة فاني موصلهـا اليه حالا » •

فعادت عتبة الى سيدتها فرأتها في انتظارهـا وقد فرغ صبرهـا فقصت عليها ما كان وجلستا على مثل الجمـر تنتظران مجيء جعفر •

وكان قصر العباسة على ضفاف دجلـة بالقرب من قصر زبيدة (دار القـرار) بينه وبين قصر الخلد (دار الرشيد) • وكان لقصر العباسـة شرفـة مطلة على دجلة وأخرى على طريق يؤدي الى الميدان وهو الطريق الذي عادت منه عتبـة فجلست العباسة في هذه الشرفـة وأطلت مـن وراء حجاب فلم تر في الطريق أحدا • وطال انتظارهـا وعيناها شاخصتان نحو الافق فرأت شبحا ظنته وزيـر أخيها أو حبيبها وزوجهـا حتى اذا مالت الشمس الى المغيب واستطالت ظلال المـآذن على أسطح قصـور بغداد وعلت أصوات المؤذنـين انزعجت العباسة لصوت الأذان على غير المعتـاد لأنها كانت تستأنس بـه وتطرب لسماعه ، أما الآن فقـد أزعجها

لأنه أنبأهـا بانقضاء النهـار وحيلولة الظلام بينها وبين الافق ، وكانـت عتبة واقفة الى جانبها لا تقل عنها قلقا فلما سمعت أصوات المؤذنين لحظت تذمر مولاتها فابتدرتها قائلة : « أظنه تأخر الى الليل عنوة » •

قالت : « ولمـاذا ؟ » •

قالت : « حتى يأتيك خلسة فـلا يشعر به أمير المؤمنين أو غيره » •

قالت : « ومتى كان أخـي يراقب ذهابه ومجيئه وهو غير متهـم عنده ومفاتيح القصور في يـد أبيه •• ولكنني أخـاف أن يكون لتأخره سبب مزعج وقـد أصبحت بعد اطلاع ذلك الشاعر بائع الجرار على سرنا أعـد حياتي في خطر •• » • قالت ذلك وغصت بريقها •

فقالت عتبة لا يزعجنك هـذا الوهـم يا مولاتي فانني لست على يقين من اطلاع أبي العتاهية على سرنا ، وانمـا اتهمته فأحببت القبض عليـه من باب الاحتيـاط وهبي انـه اطلع عليه فهل يجسر أن يـذكره لأمـير المؤمنـين ؟ » •

فلما تصورت العباسة ذلك اقشعر بدنهـا خوفا من غضب أخيهـا لعلمها انه اذا غضب فتك واستبد ولا مرد لغضبه وهي تعلـم أيضا انـه ما من أحـد يجسر على ذكر شيء من ذلك بـين يديه ولكنها قالـت : « اذا كنت لا أخاف أن ينطق أبو العتاهية بشيء من ذلك بين يدي أخي فاني أخشى أن يبوح بـه لحساد جعفر وهـم يتخذونه وسيلة للايقاع به • على اني لا أخاف أحدا خوفي من تلك المرأة » •

فأدركت عتبة انها تشير الى زبيدة امرأة أخيهـا لما بينهما من المنافسة مما يكـون بين المرأة وبنت حماتها لا سيما ان الرشيد كـان يظهر حبه للعباسة ولا يصبر على بعدها ، وزبيدة تفاخر سائر نساء الخليفة بشرف نسبها الهاشمي لأنها حفيدة المنصور وابنة عم الرشيد • وكان الرشيـد يحبها أيضا ويحترمها ولا يرد لها طلبا فلم تقنع بذلك حتى غارت من حبه

أخته . ولعل علو منزلتها عند الرشيد زاد أسباب غيرتها ولا سيما بعد أن علمت بما بين العباسة وجعفر . فلم يكن ذلك كله ليخفى على عتبة بل كانت هي أعلم بـه من مولاتها ، لأن الخبر « يصل الى اذن صاحبه ويقف » ولا سيما في ذلك العصر والناس يتقربون الى أهل المراتب بالاطراء والارضاء ويجتنبون ابلاغهم ما يسوءهم ذكره . وربما ارتكب المرء جناية ظن نفسه مبالغا في كتمانها والناس يتحدثون في مجالسهم وأنديتهم بها وهو يحسبهم غافلين ولا يجسر أحد منهم أن يطلعه على أمره . فلما سمعت عتبة تصريح العباسة بخوفها من زبيدة قالت : « لا أرى مسوغا لما تتخوفين منه الآن ».

قالت : « وكيف لا ترين مسوغا وأنت تعلمين ما في نفس زبيدة مني فكيف اذا اطلعت على هذا السر ؟ » .

فابتسمت عتبة وقالت : « هل تظنين زبيدة لم تعلم ذلك الى الآن » .

فأجفلت العباسة وقالت : « وهل علمت . ومن أطلعها عليه ؟ » .

قالت : «انك عاقلة حكيمة ومثلك لا تأخذه ظواهر الامور . كيف يخطر لك أن يبقى هذا الامر مكتوما عن الناس ومولاي الوزير يدخل هذا القصر متى شاء بلا حجاب .. » .

فقطعت العباسة كلامها وقالت : « وهل يعلم أهل القصر ذلك أيضا ؟ » .

فخافت عتبة على مولاتها فقالت : « كلا ولكنني أظن زبيدة علمت به بما ينقله لها عنك جواسيسها وأتباعها ، ولكن علمها هذا لا يعني أنها تبوح به لزوجها فانه لا يجسر أحد أن يذكر شيئا مثل هذا لأمير المؤمنين ان لم يكن خوفا منه فخوفا من سيدي الوزير وهو صاحب العقد والحل في الدولة . فمن يجرؤ أن يسيء اليه » .

وكان الظلام قد خيم على الشرفة حيث يجلسان وسائر القصر

مشعشع بالانوار والشموع ، وأهله لاهون عن حال مولاتهم لا يعلمون بما يكنه ضميرها ، ولم يكن أحد ممن في قصرها من الجواري والخصيان وغيرهم يجالسها أو يعلم ما في قلبها الا عتبة لأنها صحبتها من طفولتها في قصر ابيها المهدي ووثقت بها . وكانت العباسة تتحدث الى عتبة في ذلك المساء وعيناها لا تنتقلان من الافق وان كان مظلما . على أن بصرها كان يتحول رغم ارادتها الى الانوار المتألقة في قصر الخلد الى يمينها ودار القرار الى يسارها وفي كل منهما رقيب تخافه . فلما استبطأت جعفر قلقت وتحفزت للنهوض وهي تقول : « هلم بنا الى الشرفة المطلة على دجلة لعله يجيء من هناك .. » . واذا هما يسمعان وقع أقدام في الدهليز المؤدي الى ذلك المكان . فلما سمعت العباسة الصوت خفق قلبها لأنه يشبه وقع خطوات جعفر فأسرعت تقول : « أظنه جاء » . فمشت عتبة بين يديها وقالت لها : « اذهبي يا مولاتي الى غرفتك البعيدة حتى آتي به اليك فلا يكون عليكما رقيب » .

فأطاعتها العباسة وذهبت الى تلك الغرفة . وأقبلت عتبة على الدهليز وفي جدرانه الشموع ، فرأت جعفر داخلا وعليه السواد (الجبة السوداء) والقلنسوة الطويلة وهما لباس العباسيين الرسمي فتقدمت اليه وقبلت يده فابتدرها قائلا : « أين مولاتك » .

قالت : « في غرفتها تنتظر مجيئك منذ عدة ساعات » .

فمشى وحده ومشت عتبة في أثره لتوصله الى باب الغرفة فتساعده على خلع نعاله ثم تعود الى مكان بعيد على جاري العادة . وكان جعفر يومئذ في السابعة والثلاثين من عمره طلق المحيا ظاهر البشر جميل الطلعة في عينيه ذكاء ربع القامة كستنائي الشعر خفيف اللحية والشاربين لم يخالط شعره الشيب الا قليلا . وكان قد أرسل القلنسوة الى الوراء فبان بياض جبينه وظهرت على محياه امارات الاهتمام . ومن كان دقيق

الشعور قوي العاطفة ظهرت عواطفه في وجهه ، فلا يقوى على الكظم ولا يصبر على الضيم • وهذا راجع الى طبيعة الامزجة • ففي الناس حاد المزاج سريع الغضب وطويل الاناة واسع الصدر وما بين ذلك درجات كثيرة • أما جعفر فلم تكن تخفى انفعالاته على المتأمل خلافا للفضل ابن الربيع •

* * *

وكانت العباسة واقفة في غرفتها ترتجف من شدة التأثر تتنازعها عوامل الحب والخوف والعتاب والرجاء ، وكانت تلك الغرفة على سعتها وبما فيها من أسباب الزينة من المنائر المنصوبة والصور المعلقة والطنافس المفروشة أضيق في عينيها من صندوق صغير • ورأت الانتظار تلك اللحظة أطول من انتظارها معظم ذلك النهار ، ثم ما لبثت أن سمعت وقع قدميه بالباب وسمعت عتبة تخلع نعليه وتضعهما على رف معد لهذا وعادت •

أما العباسة فتقدمت اليه في ثوب بسيط تعودت أن تلبسه عند الاجتماع به ، وكان شعرها محلولا ضفرته ضفيرة واحدة جمعتها في أعلى رأسها بدبوس مرصع والتفت فوق الرداء بمطرف من الحرير المزركش بأشعار طرزت على حواشيه بالقصب • وقد رسم القلق في أسرتها عبوسا زادها هيبة وجمالا • فابتسمت عند وقوع نظرها على جعفر ونسيت ما أعدته من عبارات الشكوى وذهب من مخيلتها ما تزاحم فيها من أسباب المخاوف وأحست بارتياح تعودته في ساعة اللقاء ـ شأن الحب الصادق فانه غالب على أسباب الشقاء في كل حال فالمحب مهما انتابه من المشاق أو اعترضه من العقبات اذا رأى حبيبه نسي كل شيء واشتغل به عن كل شيء • والحب سعادة حقيقية لا يزيدها الشقاء الا تمكنا

كالذهب لا تزيده النار الا صفاء وورونقا .

وكان جعفر مع ما يراه من حب العباسة له وتفانيهـا في راحته لا ينسى أنها من دم أجمع أهل ذلك الزمـان على أنه أشرف من دمـه لانها عربية هاشمية بنت خليفة وأخت خليفة وهو فارسي أعجمي لا يسوءه مع ما بلغ اليه من السيادة ونفوذ الكلمـة ان يعد في جملـة الموالي علـى جاري اصطلاحهم في ذلـك العهد . ولم يجسر على الطمع في مثل ما قاله جعفر أحد من الاعاجم مهما بلغ من سطوتهم وعلو مرتبتهـم حتى الملوك والسلاطين من أول ظهور الاسلام حتى أواسط القرن الخامس للهجرة . وأول من أقدم على ذلك السلطـان طغرل بك السلجوقي فانه أراد أن يتزوج ابنة الخليفة القائم بأمر الله العباسي فساء الخليفـة طلبـه ولـم يعقد له عليهـا مضطرا سنة ٤٥٤ هـ والخلفاء العباسيون يومئذ في دور الانحطاط فكيف في أيـام الرشيد وهو عصرهم الذهبـي ـ فـاذا اعتبرنا ذلك أدركنا تخوف جعفر من انكشاف أمره واطلاع الرشيد على زواجه بالعباسة زواجا حقيقيا وهو انما عقد له عليهـا لتحـل له رؤيتها وقد حسب ذلـك منة كبرى على وزيره وصديقه والقائم بأمر دولته . ولكن سلطان الغرام طغى وتغلب على مملكة العقل .

فلمـا التقى الحبيبان نسيا ما اجتمعا لأجله على حد قـول الشاعر المجنـون :

فيا ليل كم من حاجة لي مهمـة اذا جئتكم في الليل لا أدري ما هي

ثم انتبهت العباسة لما يهددها من الخطر فافتتحت الحـديث وغلب عليها الدلال فبدأت بالعتاب ، وهو فاتحة حديث المحبين أو هـو حجـة يتطرقون منها الى التشـاكي ، وما التشـاكي الا جـلاء القلوب بالاحتكاك فيزداد تجاذبها وتذكو نيران الغرام فيها . فقالت : « ألـم يرق لجعفـر أن يجيب طلب العباسة الا الآن ؟ » .

فأجابها وهو ينظر اليها نظرة المحب الولهان : « ان طلب العباسة أمر لا مرد له ولكن الاحوال قضت بابطائي خوفا من أعين الرقباء وقد جئتك بقارب على دجلة وبعثت غلامي بالجواد لأعود عليه » .

فعلمت السبب لامتناع رؤيتها اياه من الشرفة ساعة مجيئه .

فقعدت على وسادة من الحرير المطرز وهي ممسكة يده تدعوه الى الجلوس بجانبها فأحس ببرد تلك اليد وارتعاشها وقعد على وسادة أخرى بجانبها وهو يحاذر أن ينقل نظره عن نظرها ولبث ينتظر ما يبدو منها . فقالت وصوتها يرتجف : « الى متى هذه المحاذرة يا جعفر ؟ قد آن لنا أن نعيش أو نموت » .

فظنها تعرض بما يتخوفانه من أمر الرشيد فتنهد وقال : « ان الأقدار حكمت علينا بهذه المخاوف لأنها جعلت بيني وبينك حجابا من شرف النسب فجعلتك من سادات بني هاشم وجعلتني من الموالي » .

فقالت وهي تنظر اليه عاتبة : « انه حجاب من الوهم الباطل ، فأنت أسمى نفسا من السادة ، وأرفع في عيني من كل بني هاشم ولكن .. » وسكتت .

فقال : « لقد دعوتني على عجل فجئت فهل حدث شيء جديد ؟ » .

قالت وقد ذهبت دهشة اللقاء وعادت اليها مخاوفها وأسرعت الدموع الى مآقيها : « نعم .. فينبغي أن نموت أو نعيش اذ لا طاقة لي بما نقاسيه من المخاوف » .

فأجفل وقال : « ما الذي حدث مما نخافه الى هذا الحد .. ؟ أما الموت فاني أستسهله في سبيل راحتك » .

قالت وصوتها يرتجف : « لقد انكشف أمرنا ولا يلبث أن يطلع أخي على سرنا » . واختنق صوتها .

فأجفل وقال : « وأي سر ؟ ومن أطلع عليه ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ » .

قالت : « قد انكشف سرنا بالامس وأنا في دار فنحاس مع ولدينا أقبلهما وأتملأ من رؤيتهما .. »

قال : « ومن أطلع عليه .. من تجرأ على ذلك ؟ .. » .

قالت : « أبو العتاهية اللعين » .

فأجفل وصاح : « أبو العتاهية ؟ يجب أن يقتل حالا » .

قالت : « وقد أردت قتله فبعثت شرذمة من الجند لأخذه في صباح هذا اليوم في تلك الدار فتمكن من الفرار » .

قال : « وكيف يفر من أيدي الجند ؟ تبا لهم » .

قالت : « انما نجاه عدوك الخبيث » .

قال : « وأي أعدائي تعنين فانهم غير واحد » .

قالت : « صدقت انهم كثيرون ولكنني أعني أشدهم حسدا لـك وأكثرهم سعيا في أذيتك ووشاية بك .. ألم تعلم من هو ! » .

قال : « أظنك تعنين الفضل بن الربيع » .

قالت : « اياه أعني » . وأجهشت بالبكـاء .

فحمى غضب جعفر لبكـائها وكاد يمزق ثوبه غضبا وكيدا وقـال : « الفضل بن الربيع قبحه الله من وغد زنيم .. ألم يخف سطـوتي ؟ ألم يرهب حد سيفي ؟ ما الذي جرأه على هذه القحة ؟ » .

قالت : « جرأه أنه مقرب من محمد بن زبيدة وأنت تعلم نفوذ كلمتها عند الخليفة .. وقد اتفق وجوده في دار الرقيق لابتياع بعض الجواري المغنيات لذلك الغلام الخليع ، وبينما هو خارج رأى جندنـا يهمـون بالقبض على أبي العتاهية ، فاستنجده وقد رأته جاريتي عتبة يشير اليـه بعينيه كـأنه يعده بكشف سر يهمـه . فأنقذه واستعـان عـلى ذلك برجاله وهدد رجالنا فتركوا أبا العتاهية وعادوا فقصوا علـي الخبـر فكدت أقد ثيابي ولم أعد أدري ماذا أعمل ، فـأشارت على الجـارية

الامينة أن أطلعك على الامر وذهبت هي اليك بتلك البطـاقة وأنت تلعب بالكرة والصولجـان فعهدت بهـا الى غلامك حمدان الذي تعـودت اتخاذه الي وهو أوصلها اليك . وقد قضيت في انتظـارك ساعات هي أطول من الدهر حتى جئت الآن وهذا هو خبري فما رأيك ؟ .. قد أصبحت لا آمن البقاء هنا ساعة ويخيل لي أن أحجـار بغداد ومياه دجلة عالمـة بسري وكأن خدمي وجواري جند يهمون بالقبض علي .. ولو كـان الخطر علي وحدي لهـان مصابي لكنني أخاف عليك من غضب أخـي وشدة بطشه » . قالت ذلـك وأخرجت منديلهـا تمسح به عينيهـا وقـد أغرقت في البكـاء .

وكان جعفر يسمع حديثها وعيناه شاخصتان اليها وقلبه يخفـق ولحيته ترقص غضبا . فلمـا فرغت من كلامها هاجت عواطفه وحمـى غضبه فوقف بغتة وقـال : « لا تخـافي يا حبيبتي انهم لا ينالون منـك شعرة قبل أن تزهق أرواحهم جميعا » .

فأمسكت بطرف سواده وأجلسته وهي تقول : « لا تجعل للغضب سلطانا عليك فان الامر يحتاج الى الروية والتبصر فغريمـك الخليفة أمير المؤمنين ، ومعه بنو هاشم وسائر العرب وأحزابهم وأجنادهم ، ولك حساد يتوقعون منك كبوة يجعلونها حجة فأخاف اذا أخذت الامر مفاجأة عرضت نفسك للهلاك » .

* * *

ابتسم جعفر والغضب ظاهر في شفتيه وعينيه وقال : « لا تظنـي محبك يرسل الكلام جزافا فاني قد أعددت لكلّ نازلة دواء .. ان مـن أشرت اليهم من سادات بني هاشم وسائر رجال الدولة ليس منهم مـع الرشيد أحد لأني غمرتهم بعطاياي وملكتهم باحساني . وأنـا لم أكثر

الجوائز عبثا ولا بالغت في الكرم والسخاء اعتباطـا ، ولكنني جعلت ذلك ثمنا لمـا أتوقعه في مثل هذه المشكلات وأعظم منها • وأمـا الجند فالقواد الفرس كلهم ناقمون على أخيك لمبالغته في مطـاردة العلويـين وعنـدي في خراسان ألوف يأتمرون بأمري وكلهم ناقم على بني العبـاس منذ فتك جدك أبو جعفر المنصور بقائده ومؤسس دولته أبي مسلـم الخراساني •• اعذريني اذا صرحت لك بذلـك فاني لم أصرح به لأحد سواك ولا يغضبك أن تسمعي مـا سمعته عن جدك وأخيك فانمـا أحرجتني بمـا رأيته من خوفـك •• » •

فلمـا سمعت كلامه أعظمت الاقدام عليـه وأطرقت ولم تجـب فابتدرها قائلا : « كأني بك تتخوفين مما سمعته فاذا كنت تنكرين علي مناهضة الخليفة وهو أخوك فقولي » •

فرفعت العباسة بصرها اليه وقـد بدا الجد في عينيها وقالت : « اني لا أستحيي أن أصرح لـك بما في خاطري بعد ما سمعته مـن تصريحك فاعلم انه لا يهمني في هذه الدنيـا أحد سواك وكل عدو لـك فهو عدو لي •• لا أستثني أحـدا •• ولكنني أخاف اقدامـك على أمر نستطيع الجنوح عنه الى أمـر آخر أقل خطرا منه •• اعلـم يا حبيبي اني لا مطمع لـي في هذه الدنيا الا أن أكون بجانبك هنـا ومعنا ولدانا وثمرة قلبينا ولا يهمني أن يكون ذلـك الاجتمـاع في قصر أو كوخ فقد عافت نفسي القصور وما يحف بهـا •• فانظر في سبيل تنجـو به من هذه المدينـة الى مكان لا نخشى فيه بأسا ودعنـا من الوزارة والخلافـة والسلطة فانها محفوفة بالمكاره • والمـرء مهما طال عمره أو اتسع سلطانه لا يبقى لـه الا قيد بـاع يوارونه فيه » • وأخـذت في البكاء ويداها بالمنديل علـى عينيها •

فلما سمـع كلامها ورآها تبكي كـاد يبكي معها لو لم يتجلد ولكنه

تأثر مما ذكرته عن ولديهما فأطرق وهو يزيح القلنسوة عن جبينه ثم لحيته وأعمل فكرته فيما قد يجره اليه تسرعه باظهار العدوان ورجع الى صوابه ورأى قولها أقرب الى السلامة فقال لها وهو يرد يديها عن عينيها : « لا تبكي يا حبيبتي اني فاعل ما تريدين •• صدقت أن التؤدة أولى بأهل الحزم •• وها أنا أعرض عليك رأيا أظنك توافقينني عليه .•• » •

فابتسمت والدمع لا يزال في مآقيها وقد ذبلت عيناها من البكاء وتكسرت أهدابها ونظرت اليه ولسان حالها يستفهم عن مراده • فابتسم وقال : « ان خوفك من بلوغ الخبر الى أخيك بعيد اذ ليس بين رجال الدولة لا الفضل ولا غيره من يجسر على ذكرك بين يديه أو التعريض بما تخافينه ، وأنا أعلم الناس بذلك • فلا خوف علينا من هذا القبيل الا بعد زمن بعيد ندبر في أثنائه وسيلة نبتعد بها عن بغداد ونكون في مأمن •• » •

فتطاولت بعنقها وقالت : « وكيف ذلك ؟ » •

قال : « قلت لك ان خراسان معي وأهلها طوع ارادتي فاذا كنت فيها لا يستطيع أخوك ولا غيره أن يناوئني •• ناهيك بأحزاب الشيعة العلوية فانهم يحاربون معي الى آخر نسمة من حياتهم •• أليس كذلك ؟ » •

قالت : « بلى » •

قال : « وأنا ساع من زمن بعيد في التخلص من الوزارة لأبدل بها ولاية خراسان ، وقد وعدني أخوك بها • ولو أردت الحصول عليها في الغد لأجابني » •

قالت العباسة : « أحق ما تقول ؟ أخاف أن يكون وعده على دخل فانه لا يؤمن على وعد مثل هذا » •

قال جعفر : « قد وعدني وأكد الوعد ، والوشاة من حسادي يساعدونني على ذلك ليبعدوني عن بلاط الخليفة ويتمتعوا بالنفوذ دوني ولا أحتاج في تحقيق هذه الامنية الى أكثر من كلمة أقولها » .

فأبرقت أسرتها وبان البشر في وجهها وقالت : « بالله الا أسرعت في تحقيقها فاني لا أرى لنا خيرا منها .. فاذا كنت أنت في خراسان سرت أنا اليك على عجل واستقدمنا ولدينا وعشنا معا في رغد وهناء وأنا واثقة بأن الرشيد لا يقلقنا هناك لأنه يخاف على ملكه » .

قال : « اطمئني فان الامر لا يحتاج الى صبر طويل » .

فقالت : « بدأت أشعر بذهاب القلق لأني أعتقد كما قلت أنهم لا يجسرون على ذكر خبر الطفلين لاخي لما يعلمونه من غيرته على العرض وأنا على يقين أنه يقتل كل من عرف اطلاعه على هذا السر » .

قال : « اذن أنت مطمئنة لهذا الرأي » .

قالت : « نعم .. ونعم الرأي هو .. آه هل تتحقق هذه الأمنية وابنانا معنا وتكون أنت زوجي على رؤوس الأشهاد كما هي الحقيقة ولو كره الحاسدون أو أنكره أخي علينا ؟ » . قالت ذلك وحرقت أسنانها .

فقال وهو يتحفز للقيام : « كم أحب أن أبقى هنا ولا أفارقك يا حبيبتي ولكن لا بد من ذهابي لأني جئت خلسة اذ صممنا على التستر ، فينبغي لي أن أمضي سريعا لئلا نجعل سبيلا الى الوشاية » .

فأمسكت بيده وأقعدته وهي تقول : « لا .. لا تذهب فاني .. » وغصت بريقها .

فقال : « أراك قد عدت الى المخاوف .. لا تخافي فاننا سنجتمع قريبا باذن الله » .

فقالت : « لا بد من ذلك لأننا لم نرتكب اثما وزواجنا شرعي وانما

أراد أخي أن يستبد برأيه فمنعنا مما أحله الله . ألم يكن هو الـذي عقد لك علـي ؟ » .

قال وهو يهز رأسه استخفافا : « بلى .. ولكنه لا يرى لغيره حقا أن يتمتـع » .

ونهض فنهضت هي معه فأمسك يدها للوداع ونفسه لا تطـاوعه عليه فوقف هنيهة ينظر اليها وهي تنظر اليه والعيون تتفاهم بمـا تقصر الالسنة عن مثله ، ثم أصلح قلنسوته بيده الاخرى ومشى وهي معـه وقال : « أبقي مطمئنة حتى يأتيك مني رسول الخير » .

فأجابته ونفسها لا تطاوعها على اطلاق يده : « سر يا سيدي في حراسة المولى وفقك الله الى ما تريد » .

فتراجع ونظر اليها نظر العاتب وقال : « لا تقولي يا سيدي فانمـا أنا مولاك وأنت سيدتي على شرعهم وعرفهم .. أين أنا من أخت أمـير المؤمنـين ؟ » .

فلمـا قال ذلك جذبت يدها من يده ونظرت اليه شزرا وقالت دلالا وعتابا : « دعنا من شرعهم وعرفهم ، فـانك سيدي بشرع الله وعـرف المنصفـين » .

فضحك وأسرع الى يدها فأمسكها وهو يقول : « أستودعك الله حتى نلتقي وأرجو أن يكون لقاء لا فراق بعده .. وأرى أن أمتنع عـن زيارتك في هذه الأيـام ريثما أدبر الحيلة للاجتماع في مكان أمين » .

فقالت : « يشق علي انقطاعك عني لكنني أتحمله طمعا فيما ذكرت » .

ثم صفقت صفقة تعودت أن تدعو بها عتبـة فجاءت مسرعة فقالت لها : « أمشي بين يدي مولاك حتى يخرج من القصر فلا يشعر به أحد » .

فأشارت اشارة الطاعة ومشت بين يديه في الدهليز وقـد أطفئت شموعه وسار هو في أثرهـا حتى خرج من القصر وبلغ مكـانا ترك فيه

جواده مع غلامه حمدان فركب وسار الى منزله •

ولما خلت العباسة بنفسها مكثت حينا واقفة تسمع وقع خطوات جعفر حتى توارى وانقطع صوت وقعها ، فعادت الى هواجسها وأحست باحتياجها الى عتبة • حتى اذا عادت اليها قصت عليها بعض ما دار بينها وبين جعفر وأسرت اليها غرضه فأقرتها على الرأي ثم ذهبت العباسة الى فراشها •

* * *

تركنا الفضل بن الربيع عائدا بحاشيته من دار الرقيق ومعه أبو العتاهية • وكان أبو العتاهية قد امتلأ غيظا من عتبة وسيدتها • ولو لم تتعمد أذيته على تلك الصورة فربما كان يقوم في نفسه ما يؤنبه على افشاء ذلك السر مع ما يطمع فيه من الكسب بافشائه • اذ قد تأخذه الشفقة على الغلامين أو الحياء من العباسة أو الخوف من جعفر أو الرشيد ، أو ربما توقف عن الافشاء حينا من الزمن ريثما يجد سبيلا يتقدم به الى الفضل أو غيره بالقاء ذلك السر اليه • فجاءت تلك الاساءة مساعدة له على الافشاء وقد مهد السبيل اليه وجود ابن الربيع واطلاعه على ما حدث له •

سار الركب الى قصر الامين ولم يكن لهم بد من المرور على جسر بغداد فبعد أن تجاوزوا شارع الرقيق مروا بالميدان من شماله ورأوا أهل الدولة يفدون لحضور مهرجان لعب الكرة والصولجان فداروا من وراء الاصطبل في الطريق الى الجسر ، وكانت الشمس قد تكبدت السماء ، وتزاحمت الأقدام على الجسر وهو مصنوع من سفن متحاذية شدت من جوانبها بعضها الى بعض بأمراس أو سلاسل من حديد وألقيت فوقها ألواح الخشب يمر فوقها الناس والدواب • وعلم الفضل

أن الجسر لا يخلو من حراس يراقبون خفية من يمرون عليه . اذ كان الناس يومئذ يتجسس بعضهم على بعض .

وكان قبل مغادرته دار الرقيق قد تلثم ، وكذلك تلثم بعض أتباعه ، فمروا على الجسر شمالا الى الرصافة وعرجوا من هناك نحو الجنوب الشرقي الى المخرم ، وجعلوا أكثر طريقهم قرب الشاطىء حتى أتوا القصر . وقد رأى الفضل أن يعجل بالذهاب الى دار الرقيق لانهاء المهمة التي اضطلع بها ليستطيع العودة الى الامين قبل الضحى لئلا يفوته الصبوح معه ، وتحقيق ما وعده به من اسماعه غناء الجواري البيض في ذلك اليوم ، حرصا على رضاه وتقربا اليه بكل ما يسره ، لعلمه أنه ولي العهد ، ولا سبيل الى النيل من البرامكة الا به لأنه يكره الفرس ، ويكره البرامكة على التخصيص ، وجعفر بن يحيي على الأخص ، لأنه ساعد أخاه المأمون في الحصول على ولاية العهد رغم أن أمه جارية ، بينما زبيدة أمه هو هاشمية .

- ٦ -

جعفر بن الهادي

لم يكن الفضل يرى نفسه أهلا للتفوق على البرامكة في ادارة شؤون الدولة وسياستها وتسهيل استيفاء الخراج وارضاء الرشيد ، فسلم الرشيد مقاليد الدولة الى جعفر وأطلق يده فيها ، فعمد الفضل الى الحيلة لبلوغ مآربه ، وهو ذو دهاء وصبر ، فلما رأى الامين يكره الفرس انحاز اليه وجعل يتقرب منه بكل وسيلة ، وقد كان في غنى عن

الذهاب بنفسه الى دار الرقيق ، ولكنه أراد أن يبرهن للامين على أنه يحبه ويتفانى في خدمته .

على أن اشتغاله بمشاهدة أصناف الرقيق ، ثم بما كان من أمر أبي العتاهية والقبض عليه ، أخره بعض الوقت ، فوصل الى القصر وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة ، ومع ذلك فقد رأى أن يطلع على سر أبي العتاهية قبل الدخول على الامين . وان كان مزاجه لا يبعثه على التسرع في الاستطلاع ، لأنه من أهل المزاج الصفراوي الذين يصبرون على الأمور ولا يقلقون من موعد أو يتعجلون في استطلاع سر ، بعكس أهل المزاج العصبي ، فانك اذا وعدت أحدهم بسر تطلعه عليه أو خبر تلقيه اليه فلن يبرح في قلق واضطراب حتى يبلغ مأربه . ولذلك فأهل هذا المزاج لايصلحون للاعمال السياسية ، أو الاقدام على المشروعات الشاقة التي تفتقر الى سعي وكظم ومطاولة .

نعم لم يكن الفضل بن الربيع ممن يتعجلون في استطلاع الامور لمحض الرغبة في الاطلاع ، ولكنه توسم من وراء ذلك ما يساعده في نيل مرامه . فلما أطل قصر الامين أمر رجاله بأن يذهبوا بأفراسهم الى الاماكن المعدة لهم ، ثم ترجل هو وأبو العتاهية ، وسارا في ممر عريض تظلله الأشجار الملتفة من الجانبين ، وينتهي بساحة كبيرة في صدرها باب القصر ، أو هو باب الحديقة التي يقع القصر في بعض جوانبها من جهة دجلة وله سور خاص به . وكانت عادتهم في بناء القصور أن يجعلوا أسوارها الخارجية متينة عالية أشبه بأسوار الحصون ، وربما جعلوا في أعلى السور مرامي للنبال ، أو نوافذ لحجارة المجانيق ، لما كانوا يتوقعونه من تقلب الاحوال وانتقال السلطة من حزب الى حزب . وباب الحديقة كبير متين يغلق ويوصد فلا يستطاع فتحه الا بجهد جهيد . وكان الحراس لا يبرحون وقوفا أمام الباب

المغلق ، فاذا قدم أحد فتحوه له ، واذا كـان فارسا ترجل خارجا وترك دابته مع سائسها ، أو بعث بهـا الى الاسطبل بجانب ذلـك السور وفيه المرابط تشد اليهـا الدواب ، وكـانت كثيرة بباب قصر ولـي العهـد ، اذ كـان الناس يتزلفون اليه ويكثرون من التردد عليه تمهيدا لمـا يرجونه من نفوذ الكلمة عنده بعد أن تفضى أمور الدولة اليه .

وانتحيا مكانا بجانب الطريق ، وأخذ أبو العتاهية يقص الخبر على الفضل ، وهذا يستمع له مأخوذا مذهولا يكـاد يشك في صدقـه ، ولكنه ما لبث أن رجح صحته بعد سماعه كلـه ، فلبث مطرقـا هنيهة ، ثم نظر الى أبي العتاهية وأراد أن يغالطه فقال : « احذر أن تكون قـد اختلقت الخبر فاني لا أصدقه ، وربما كنت مخدوعا فيه لأن مولاتنـا العباسية من أبعد الناس عن مثل هذه الشبهة ، فاحذر أن تذكر ذلك لأحد لئلا تقع في شر أعمالك » .

فأدرك أبو العتاهية غرض الفضل من هذه المغالطة ، فطاوعه وقـال : « اني أجل مولاتنا عن هذا ، ولكنني قصصت مـا رأيته ، ولـم أكـن لأبوح به لك لولا ما اتفق من نجاتي على يدك واني لا أدري مع هذا اذا كانت عيناي قد خدعتاني فانهما كثيرا ما تخدعـان البصير فيقع في حفرة لا يقع فيها الاعمى ! » . قال ذلك وهز كتفيه ثم أطرق كأنه يقـول : « وماذا يعنيني من ذلك كله ؟ » .

لم يكن الفضل يجهل محبة أبي العتاهية للمـال ولم يشك في أنه انما نقل ذلك الخبر طمعا في الكسب ، فأحب استرضاءه لعله يحتـاج اليـه في مثل هذه المهمة مرة أخرى ، فمد يده الى جيبه وأخرج صرة دفعهـا اليه وهو يقول : « انك شاعر ، وقد تعود الشعراء الا يقولوا قولا الا أجيزوا عليه وان لم يكن شعرا . فخذ هذه الجائزة الصغيرة ، وستنـال أضعافها من مولانـا الامين فانه سيأخذه الطرب لنجاحنا في ابتيـاع

الجواري البيض ، وسأخبره أنك كنت لنا عونا في الحصول عليهن » .
قال ذلك وضحك ضحكة عالية مصطنعة ، ثم وضع يده على كتف أبي العتاهية وقال : « بارك الله فيك » . ومشى .

وأحس أبو العتاهية أنه يريد الذهاب وحده ، فودعه وقبل يده ، فقال له الفضل : « احذر أن تمضي الى مكان يعرفه الوزير فانهم يقبضون عليك ويؤذونك . والاولى أن تمكث في هذا القصر مع بعض رجالي أو تذهب الى منزلي فتقيم هناك في مأمن . وعلى كل حال لا تبعد عني كثيرا » . فطأطأ رأسه ومضى .

أما الفضل فأزاح اللثام عن وجهه لأنه أصبح في أمان ، حتى أقبل على ساحة الحديقة فرأى الباب مفتوحا على مصراعيه ، والحراس يحادثون جماعة من الغرباء عرف من هيئتهم أنهم من أهل البصرة وأكثرهم من الخدم أو السياس ، وكان بعضهم يتحدثون وبعضهم يربطون الخيول أو يعلفونها أو يصلحون شؤونها . فلما أرسل نظره الى داخل الحديقة علم أنهم رجال جعفر بن موسى الهادي ، لأنه رآه يتمشى مع الامين في بعض جوانب البستان . أما الفضل فلم يكد يقترب من الباب حتى عرفه الحراس فتسابقوا الى خدمته والتوسيع له .

وكان الهادي قد تولى الخلافة قبل أخيه الرشيد فلم يطل تربعه في دستها لأسباب سيأتي بيانها . وكان أبوهما المهدي قد أوصى بولاية العهد لولديه موسى الهادي وهرون الرشيد ، على أن يتولاها الهادي أولا وبعده الرشيد . فلما توفي المهدي سنة ١٦٩ هـ خلفه الهادي فحدثته نفسه أن يخلع أخاه الرشيد ويبايع لابنه جعفر هذا ليبقى الحكم في أعقابه ، فأعلن رأيه هذا لخاصته فوافقوه وخلعوا الرشيد وبايعوا لجعفر . ولم يسع الرشيد الا القبول لقصر يده عن المقاومة لأن رجال الدولة كلهم مع الخليفة ، وقد سايروه الا يحيى بن خالد البرمكي

فانه جاء الى الرشيد وشدد من قلبه وضمن له الخلافة ، غير عابىء بالخطر على حياته اذا عرفت رغبته في استبقاء ولاية العهد للرشيد وخلع جعفر بن الهادي • وقد علم الهادي بذلك فحبسه وهدده بالقتل ، ثم تمكن يحيي بتعقله وقوة حجته من اقناعه بأن يقر أخاه الرشيد في الولاية حتى يكبر جعفر فيخلع الرشيد ويبايع لجعفر • ولم تمض مدة على هذا القرار حتى مرض الهادي ومات بغتة ولم يحكم الا سنة وثلاثة أشهر • وشاع يومئذ أن أمه الخيزران عجلت موته غيظا منه لأنه أحب أن يغل يدها عن التصرف في شؤون الدولة وغيرة على أخيه الرشيد • وذهب يحيي البرمكي في الليل الى الرشيد وبشره بالخلافة وأقره على سريرها • فحفظ الرشيد له هذا الجميل وأطلق يده في أمور الدولة ، ولم يكن يقدم على أمر عظيم الا برأيه ، وجعل ولده جعفر وزيرا له التصرف في كل شيء •

وكان جعفر بن الهادي عند وفاة أبيه غلاما فلم يسعه الا السكوت وفي نفسه من يحيي وأولاده حزازات ، لاعتقاده بأن الرشيد اغتصب الخلافة منه اغتصابا ، وانه تواطأ مع يحيي والخيزران على قتل أبيه • وكتم ذلك في نفسه أعواما كان يقيم خلالها بالبصرة حيث أقطعه الرشيد أرضا واسعة ، وخصص له الرواتب الكبيرة مثل غيره من بني هاشم •

كانت السياسة تقضي في ذلك العصر بالاعتماد على الكرم في توقي الشرور ، وكان من يصل الى منصب الخلافة يعلم ان العيون مفتحة عليه ، وان أهله أكثر الناس حسدا له وغيرة منه ، فاذا كان حكيما وسع لهم أسباب الرزق وأكثر من اكرامهم وسهل عليهم وسائل الترف والقصف ، ليشغلهم عن الطمع في الخلافة ، ويضعف عزائمهم عن النهوض اذا دعوا اليها • ولذلك كان بنو هاشم في عهد الرشيد وما تلاه من

أكثر الناس انغماسا في الترف والقصف ، لا شاغل لهم الا انتقاء المغنين ، والتمتع بالمآكل والمشرب في الحدائق والبساتين ، واقتناء الجواري على اختلاف طبقاتهن للغناء والتسري والخدمة . وكانت اقامتهم أكثر الاحيان بقصورهم في البصرة فلا يأتون الى بغداد الا لأخذ رواتبهم أو لابتياع الجواري أو بعض الآنية ونحوها . وكان الغالب أن يرسل الخليفة رواتبهم اليهم وهم قعود في قصورهم .

وكان جعفر بن الهادي مثل بقية الهاشميين يتلقى راتبه وهو مقيم بقصره في البصرة ، ولكنه لم يكن يشغله الترف والقصف عما في قلبه من النقمة على عمه الرشيد ، وعلى يحيي البرمكي وأولاده . وقد زاده اطلاق يد جعفر البرمكي في أمور الدولة حسدا ونقمة . وكان مع ذلك يعلل نفسه برجوع الخلافة اليه بعد وفاة الرشيد ، فلما رآه بايع لابنيه الامين والمأمون بعده ، تحقق فشله وعزم على الانتقام . وظل لا يجد سبيلا اليه أو أحدا يناصره عليه ، حتى اتصل بالفضل بن الربيع وتكاشفا فاذا هما متفقان في كره جعفر البرمكي وعدم الرضاء بالهيئة الحاكمة على الاجمال . فجعلا يتساندان في العمل على قلب الحكومة القائمة ، تمهيدا لتحقيق غرضهما . وكان الهدف الاول لجعفر ابن الهادي أن يقصي عن الوزارة جعفر البرمكي ، ليسهل عليه اقصاء المأمون عن ولاية العهد التي نالها بتدبيره ، ولا يبقى بينه وبين الخلافة بعد ذلك الا الأمين ، واقصاؤه أسهل لضعفه الشديد فتقرب منه وعول في نيل بغيته على مثل السياسة التي اتخذها الرشيد في استبقاء الخلافة له ، باطلاق أسباب البذخ والترف لبني هاشم والهاشم بالجواري والغناء عن طلبها .

ولما رأى ميل الامين الى الترف والقصف ، رأى بدلا من أن ينصحه بالعدول عنهما أن يسهل لهما أسبابهما وينشطه في طلبهما ، ولو أدى ذلك

الى اظهاره الخلاعة أو التهتك في بعض الاحيان . كل هذا والامين غافل لاه عما يحدق به من خطر أهل الدسائس وأرباب المطامع . فلما جاء ابن الهادي الى بغداد قبل ذلك بأيام أكرم وفادته وأخلى له قصرا خاصا بجانب قصره ، ليقيم به مع حاشيته ، وظلا يقضيان معظم النهار معا في اللهو والقصف من الصباح الى المساء . وكان هو الذي نبه الامين الى اقتناء الجواري البيض المغنيات ، وحرض الفضل ابن الربيع على المبادرة الى ابتياعهن منذ الفجر على أن يعود بهن قبل انقضاء الصبوح ليتمتعوا به على رخيم أصواتهن .

وقلق الامين لابطاء الفضل ، فذهب الى شرفة في قصره تطل على دجلة ، وجلس وعيناه شائعتان لعله يجد الفضل عائدا في القارب . فلما انقضى وقت الظهيرة ولم يعد ، مل الامين الانتظار فخرج الى الحديقة ومعه ابن عمه جعفر بن الهادي ، وأخذا يتفرجان على ما فيها من أقفاص كبيرة كأنها البيوت ، في بعضها أصناف الطير الملون المجلوب من بلاد الهند وأواسط أفريقيا ، وفي أقفاص أخرى من الحديد أصناف الوحوش من أسود وفيلة ونمور . ولما فرغا من التفرج والفضل لم يأت أمر الامين صاحب الكباش أن يأتي بها للمناطحة بين يديه ، ومضى الى مجلس في وسط الحديقة يظلله عريش عال ، وفيما هو يهم بالدخول اليه مع ابن عمه جاءه بعض الخدم وأخبروه بمجيء الفضل ، فأمر باستقدامه الى العريش وهو يظن الجواري معه .

ودخل الفضل البستان فشاهد الامين وابن عمه يمشيان الى العريش . وكان البستان مقسما الى مغارس بينها طرقات مفروشة بالحصباء الملونة ، يتخللها أغراس من الأشجار المتنوعة ذات المناظر الجميلة ، ومنها المولد في بغداد والمجلوب من بلاد الهند وخراسان وتركستان ، عدا أصناف الرياحين وأزهارها البديعة الالوان ، وكلها

تبدو في مغارسها منسقة على أحسن صورة ، اذ كـان البستـاني يتعهدها بالمقراض ويجعل بعضها على هيئـة الحيوانات وبعضهـا على هيئـة الطـاووس وغيره من الطيور الجميلـة ، أو على هيئـة الحيتـان أو الوحوش الكاسرة فيخيل الى من يدخل البستان ويرى هذه الأشجـار انها أسود رابضة أو طيور دارجة .

وكانت هناك بين تلك المغارس أحواض يرسل اليهـا المـاء بمجار مستترة ، وفيها من الأسماك أجملها لونـا وألطفها شكلا ، يتعهدهـا البستاني بفتات الخبز وبقايا الأطعمة مما يكثر في مطـابخ الأمراء في أيام الرغد والرخاء . أما طرق الحديقة فكانت مزينة بأشكال الكائنات الحيـة وغير الحية ، بوساطة رصف الحصى من مختلف الالـوان عـلى هيئة الزهور والطيور والاسود والفيلة وغـيرها ، على نحـو ما يفعلـون بالفسيفسـاء . وكـان يتولى هذه الفنون صناع من الفرس أو الروم أو الهند ممن أتقنوا طرق الزراعة وتفننوا في تنسيقها .

على أن روائح الازهـار العطرية في ذلك البستان لم تكـن شيئا يذكر الى جانب ما تضوع من أثواب ولي العهد من رائحـة الطيب ولا سيما المسك . وكانت عادتهم في مجالس الشراب والغنـاء أن يخلعوا ثيابهم الرسمية ويلبسـوا ثيابا ملونـة بالحمرة أو الصفرة أو الخضرة يسمونها ثياب المنادمـة ، وهي تتألف في الغالب من غلالـة رقيقة ومـلاءة مصقولة صقلا شديدا حتى تكـاد تقوم قياما من شدة الصقل ، وجعـل على رأسه بدل العمامة أو القلنسوة اكليلا من ريحـان وأزهـار ، ضفـره لـه البستاني ضفرا جميلا حتى يشبه القلنسـوة ، ووضع قدميه في خفـين سنديين . وكـان رفيقه ابن الهـادي في مثل ذلـك ، ولكن ملاءته كانت خضراء ، وعـلى رأسه طاقية حولهـا عمامة صغيرة من الوشي الثمين . وقد سوى شعره على عادة شبان بغداد في ذلـك العصر ، أي أنه أرسله

على جبينه وقصره دون جبهته ، وسواه مع حاجبيه ، ودوره الى أذنيه . وأسدله الى صدغيه .

وجلس الامين وابن عمه في العريش ينتظران قـدوم صاحب الكباش ، والامين أكثر رغبـة في مقابلة الفضل لتوقعه قـدوم الجـواري معه ، فلمـا سمع وقع خطواته على الحصى بقرب العريش صاح فيه : « مـا وراءك يا فضل ؟ » .

فقال : « ما ورائي الا كل خير يا مولاي ؟ » .

قال : « وأين الجارية أو الجواري المغنيات ؟ » .

قال : « هن آتيات عما قريب » . ولمـا أطل الفضل على الامين ورأى ما عليه من الثياب ، ابتسم فابتدره الامين قائلا : « كيف تراني بهـذا الاكليل وهـذه الثياب ؟ » .

قال : « أراك ملاكـا في صورة انسان ! » . وكـان الامين يومئذ في السابعة عشرة من عمره ، وقد نبت عارضاه وظهر عذاره ، وتجلى مـاء الشبيبة في محيـاه . وكـان جميل الصورة طويل القامـة أبيض اللون صغير العينين أقنى الانف سبط الشعر ، وقد انحسر شعـره عن جانبي جبهته . كما كان قوي العضل حتى يلقى الاسد فلا يبالي . وفيـه بطش وشجاعة وفصاحة وأدب وبلاغة . فاذا لقيـه الرجـل تهيب منظره وأحبه . ولكنه كـان سيء الرأي كثـير التبذير أرعـن . جعل همـه اللهو والقصف باقتناء الجواري والغلمـان . ولعله سيق الى الافراط في ذلـك بما أراده أهل الأغراض من تضييع الملـك من يده أو رغبة منهم في استرضائه التماسا لسخائه . أما ابن الهـادي فكـان رقيـق البدن جميل الصورة قصير القامة خفيف العارضين حـاد العينين ، وكان أكبر من الامين سنا وأحسن منه رأيا . وانمـا جاراه في قصفه ولهوه لغرض في نفسـه .

* * *

ولما دخل الفضل قال الامين : « عليك بثياب المنادمة واخلع هذا الثوب ، فان ابطاءك الى هذه الساعة لا ينبغي أن يفسد علينا ما دبرناه من أسباب السرور ، وان كان الصبوح قد انقضى فلنقض بقية النهار في الطرب والأنس » . ثم صفق فأتاه غلام تركي جميل الصورة لم ينبت عذاره بعد ، وعليه دراعة حمراء ، تمنطق فوقها بمنطقة عريضة من حرير موشاة بالقصب ، وأرسل شعره ضفيرة طويلة وراء ظهره ، وعلى رأسه طاقية هرمية الشكل مزركشة بالقصب ، منحرفة الى جانب واحد في قمتها هلال من فضة أثقل رأسها فتدلى ، فأصبح الغلام أشبه بالبنات منه بالفتيان لفرط جماله . ولو سمعته يتكلم لحسبته فتاة لبعد صوته عن خشونة أصوات الرجال لأنه خصي . وكان في قصر الامين كثير من أمثاله عني بجلبهم من أقصى بلاد الترك والجركس ، وجعلهم طوائف لخدمته ولمجالس أنسه .

ووقف الغلام متأدبا فقال له الامين : « من ترى في بابنا من الشعراء ؟ » .

قال : « الحسن بن هانيء (أبو نواس) . وأبو العتاهية و ... » .

فقطع الأمين كلامه قائلا : « ما لنا ولأبي العتاهية وهو من أهل الزهد ؟ . لا ينفعنا زهده في مجلسنا هذا . أما الحسن بن هانيء فانه ابن بجدتها وهو شاعر ظريف » . قال ذلك وضحك ، ثم التفت الى الغلام وقال : « اصرف الشعراء الا ابن هانيء . وقل لصاحب الشراب أن يعد لنا مجلسا كاملا » .

فقال الفضل : « أبو العتاهية لا بأس به يا مولاي ، فانه شاعر ظريف ، ودع ما يقولون عن زهده » .

فصاح الامين بالغلام قائلا : « وأبو العتاهية أيضا » . فحنى الغلام رأسه سمعا وطاعة . ومضى .. !

- ٧ -

في مجلس الأمين

استبطأ الامين صاحب الكباش فسأل أحد الغلمان : « أين صاحب الكباش فاني أحب أن يرى أين عمي كبشين يتناطحان ليس في بغداد كلها ولا في البصرة ولا في العراق مثلهما » .

فقال الغلام : « انهما معدان للنطاح منذ ساعة ، ولكنه لم يأت بهما الى هنا ضنا بما في أرض هذا العريش من الفسيفساء فان الكباش تقتلها بأظلافها في أثناء النطاح ، ثم هي لا تملك قوتها فوق الحصى ، فاذا شاء مولاي أن ينتقل الى موقفها وراء هذا العريش فالرأي ما يراه » .

قال : « حسنا » . ونهض فمشى ومشى ابن الهادي والفضل في أثره وهما يتغامزان على ما يتشاغل به ولي عهد المسلمين من الالعاب الصبيانية وكأن كلا منهما يقول في نفسه : « كيف يثبت ملك هذا ولي عهده ؟ وهل يستطيع من كان في حاله أن يحكم مملكة أولها على بحر الهند وآخرها على شواطىء بحر الظلمات ، وفيها من أصناف البشر الكثيرة وضروب الطبائع المتباينة والعادات المختلفة والعناصر المتضادة ما لم يجتمع في مملكة واحدة ، ناهيك بالاحزاب السياسية ومطامع أهل النفوذ ؟ » . على أنهما سارا وهو يتقدمهما بلباسه الملون المصقول وقلنسوته المصنوعة من الأزهار والرياحين ، حتى وصلوا الى بقعة من البستان مستديرة وجدوا في وسطها رجلا كبير اللحية عريضها ، عليه قلنسوة التجار ، ويظهر من ملامحه أنه هندي ، وبين يديه كبشان كبيران أبيضان ، وقد نقش عليهما بالألوان صورا وأشكالا ، وعلق

في عنق كل منهما عقـدا من العقيق ، وصبغ قـرني أحدهمـا بالخضرة وقرني الآخـر بالحمرة . فلما أقبل الامين عليه وقف الرجل وتقدم لتقبيل يده فمنعه وقال : « أيهما كبشي ؟ » .

فأشار الرجل الى الكبش ذي القرنين الاحمرين وقـال : « هذا هو يـا مولاي » .

فقال وهو ينظر الى الفضل : « فالآخـر اذن كبشك . وليتناطحـا وللغالب منهما عقد آخر يعلق في عنقـه ، على أن يشتريـه له صـاحب الكبش المغلـوب » .

فلـم يسع الفضل الا اظهـار الشكر على هذا الانعـام وقال : « أرجـو أن يغلب كبش مولاي ، واذا غلب كبشي فانه يخجلني » .

فضحك الامـين حتى كاد يستلقي وقال : « وأنا أطلب الى الله ألا يغلب كبشك ليس لانه لك ولكن » . وضحك .

فلم يفهم الفضل قصده والتفت الى ابن الهادي فرآه يبتسم فاستفهمه بعينيه فقال وهو يخفض صوته : « لأن اسمه برمك » .

فأدرك الفضل أن الامين يتفاءل بأن يغلب كبشـه الكبش « برمك » ويعـد ذلك بمثابة انتصاره هو على جعفر البرمكي . كمـا أدرك أنه لم يسم الكبش الآخـر « جعفر » لأن ابن عمه اسمه جعفـر أيضا . ثم أخذ الكبشان في المناطحة ، وراعيهما يعلم رغبة الامين في أن ينتصر كبشه فكان يبذل جهده حتى تم ما أراده الأمين وكان كبشه الغالب ، فضحك وسر ، وأمر لصاحب الكباش بجائزة . ثـم جاءه الغلام يقول : « ان صاحب الأدياك قادم يا مولاي فهل تأذن في أن تشاهد مهارشتها ؟ » .

قال : « اصرفه فقد كفانـا الآن ما شهدنـاه من مناطحة الكباش ، وأزفت ساعة المنادمة » . قال ذلك ومشى نحـو القصر على الحصباء في طرق الحـديقة .

وكان قصر الامين قائما على شاطىء دجلة الايسر وله نوافذ ورواشن وشرفات يطل منها على النهر ٠ وفي وسطه بهو كبير أشبه بمصطبة واسعة مرصفة بالرخام الملون ، يظللها سقف عليه نقوش ملونة مذهبة من صنع مصوري الفرس ، أو هي صناعة ممزوجة من فنون الفرس والروم ٠ والسقف قائم على أساطين من الرخام محلاة بالذهب ٠ ولولا سور القصر الخارجي الكبير لكان الجالس على المصطبة يرى السفن في دجلة ذاهبة جائية ٠ على أنهم جعلوا في السور بابا يمكن النزول منه الى الشاطىء على مسناة ترسو عندها الحراقات وغيرها ٠ وكان الامين مولعا باقتناء السفن والتفنن في أشكالها وصورها ٠ فاصطنعوا له حراقات على صور الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس ٠ وقد أنفق في اصطناعها مالا عظيما ٠

وكان للقصر من جهة البستان باب كبير هو بابه الاصلي ، يدخل منه الزوار ٠ وهو قائم في منتصف جدار على شكل نصف دائرة ، يصعد اليه ببضع درجات ٠ والى جانبي الباب من الخارج مقاعد من الرخام موازية للحائط في استدارته ، وقد نقش على أعلى الباب بالحرف الكوفي الجميل : « محمد الامين بن هرون الرشيد » ٠ والقصر محاط بسور كبير عال على عاداتهم في تعلية الاسوار ٠

وكان الامين وهو ماش في الحديقة يتناثر الخدم والخصيان بين يديه يتسارعون في نقل خبر مجيئه ٠ فلما أقبل على القصر وقف الحجاب احتراما له وهو لا يبالي ٠ فصعد الدرجات ودخل الباب والفضل وجعفر في أثره ، فمروا في دهليز ينتهي الى باحة مستديرة في صدرها باب يؤدي الى دهليز آخر ينتهي الى دار النساء ، وهي قصر قائم بنفسه يتصل بوساطة بعض قاعاته بالمصطبة التي تقدم وصفها ٠ وفي يمين الباحة المستديرة باب يؤدي الى دهليز ينتهي ببيوت كثيرة يقيم فيها الخدم

والاعوان والعبيد ومن اليهم • والى يسار الباحة بـاب آخر يؤدي الى دار الاضياف ، وهي غرف كثيرة ومطـابخ وموائـد كـأنها بلـدة صغـيرة •

★ ★ ★

وصل الامين الى باحة القصر ، فهرع اليه كبـير الخصيان السود ، ومشى بين يديه حتى وصلوا الى ستارة من الديباج الموشى معلقة عـلى الباب المؤدي الى دار النساء • فأزاحها ودخل الامـين الى الدهليـز ، ودعا الفضل وجعفر فتبعـاه ، وخطواتهم لا يسمع لهـا وقع لأنهـم سائرون على طنافس كثيفة الوبر من صنع طبرستان • فلمـا انتهـوا من الدهليز الثاني أشرفوا على حديقة فيهـا الازهار والرياحين ووراءها دار النساء يصعد اليها بست درجات من الرخـام الاحمر ، وعلى بابها ستارة ثمينة من الديبـاج سماوية اللون كتب عليهـا بالقصب أبيـات لحـاتم الطـائي هي :

وما أنا بالساعي بفضل زمامهـا	لتشرب ماء الحوض قبل الركائب
وما أنـا بالطـاوي حقيبة رحلهـا	لأبعثهـا خفـا وأترك صـاحبي
اذا كنت ربـا للقلوص فـلا تدع	رفيقك يمشي خلفها غـير راكب
أنخهـا فأردفه فـان حملتكمـا	فذاك ، وان كان العقاب فعاقـب

وكان رئيس الخصيان ماشيا بين أيديهم ، فلمـا أقبلوا على هذا الباب تقدم وأزاح الستارة فدخل الامين ورفيقاه الى قاعة كبيرة أشبه بقاعـة الاستقبال ، وعلى جانبيها بابان يؤدي أحدهمـا الى مخادع النساء ، والباب الآخر الى مجالس خاصة هي قاعات لكل قاعة منها فرش خـاص

بلون خاص • ولم يكن غرض الامين الذهاب اليهـا ، وانما أراد الخروج الى المصطبة وراء تلك الدار ، ولمـا دخل الفضل وابن الهادي تلك القاعة سمعا ضرب العيدان على غير نـظام كأن أصحابهـا يسوونهـا ، فلبثـا ينتظران ما يفعله الامين •

وكـانت هذه القاعة مفروشة بالحرير المزركش ، وفي جدرانهـا صور بعض ملوك الفرس والروم على أفراسهم ، وبينهـا صور بعض حيوانات البر والبحر ، وقد صنع كثير من هـذه الصور تنزيلا بالذهب أو بالعاج على ألواح من خشب الأبنوس ، وعلق بعضهـا على الجدران بمسامير من الذهب • وعلى أبواب القاعة من الداخل ستائر معلقـة بمسامـير ضخمة من الفضة ، وفي أرضها بساط واحد ربمـا بلغت مساحته عشرين ذراعا في عشرين ، وحولهـا ممـا يلي الجدران وسائـد مستديرة من ريش النعام مغشاة بالابرسيم الموشى • وفي زواياهـا مناور من الفضة توضع فيها الشموع للاضاءة •

فلمـا وصل الامين الى هذه القاعة وسمع طنطنة العيدان وراءهـا جلس على سرير من الآبنوس المنزل فيه العـاج كان قائمـا هنـاك ، وأشار الى رفيقيه فجلسا ، ثم أومـأ الى قيم الخصيان ايمـاءة فهمها فحنى رأسه وخرج ، والفضل في قلق لا يدري هل وصلت قرنفلة ورفيقتاها أم لا ؟ وابن الهادي ينظر الى الامين وفي نفسه أمور عظـام لو تنفسهـا وخرجت زفيرا لأحرقت تلك القاعة بما فيهـا ، ولكنه كـان كظومـا صبورا • ثم مـا لبثوا أن سمعوا ضرب العيدان على توقيـع واحـد ونغم واحد ، واذا بباب من أبواب القاعة فتح وخرج منه سرب من الجواري في أيديهن العيدان ، فمررن في القاعة عشرا عشرا يضربن علـى العيدان ضربا رخيما ويغنين بصوت واحد ، فـاذا فرغ العشر انصرفن من الباب الآخر • وجاءت عشر أخر وفي أيديهن عيدان أخر فغنين غناء آخـر ،

فاذا انصرفن جاء عشر أخر وهكذا ، حتى تمت عشرة أفواج . فلم يكن شيء من ذلك ليدهش الفضل ولا جعفر لأنهما شاهدا مثله في دور البرامكة ودار الرشيد . وانما أدهشهما ما جاء بعد الجواري من أسراب الغلمان والخصيان وعليهم الألبسة الثمينة الباهرة مما لم يسبق الامين اليه أحد في الاسلام على هذه الصورة . وكان يغالي في اقتناء الخصيان فيطلبهم من أقاصي البلاد وينفق في استجلابهم بسخاء ، وزاد في ذلك بعد خلافته . وسماهم « الجرادية » وفرض لهم فرضا خاصا واصطنع أجواقا أخر من الغلمان الحبشان سماهم « الغرابية » وفرض لهم الاموال . وأخذ الناس عليه ذلك وتظموا فيه الاشعار أما أثناء ولاية العهد فكان لا يزال في أول عهده بهذا الطرب الدخيل ، فكان الغلمان يدخلون أفواجا وشعورهم مسترسلة جدائل مفردة ومزدوجة وفي أيديهم الدفوف أو المزاهر أو العيدان يدقون ويغنون ، والامين يطرب لكل صوت ويقهقه ولا يطلب شرابا لانه كان ينوي الاصطباح في المصطبة .

وحينما مر الجميع أشار الامين الى القيم اشارة أخرى ، وأشار الى رفيقيه فنهضوا جميعا وفتح لهم القيم بابا في صدر القاعة خرجوا منه ونزلوا بضع درجات الى دهليز في جانبيه أبواب مقفلة تؤدي الى غرف وقاعات عديدة ، وعند منتهى الدهليز وصلوا الى المصطبة وكأنهم خرجوا من الخباء الى الخلاء ، فوجدوا المكان على سعته قد فرش بالنمارق والطنافس ، وفي صدره فرش عالية فوق سرير من الآبنوس المنزل بالذهب لا يرتقي اليه الا بكرسي وبجانبه عدة كراسي ووسائد فوق الطنافس وحوالي الاساطين أو الجدران . ونصبوا وسط المصطبة سماطا هو بساط من جلد جميل الصنعة فوقه ملاءة من الحرير . وفوق البساط مائدة كبيرة الحجم ، مستديرة الشكل ، قصيرة علوها شبر ، وأتوا

بالأباريق البللور أو الفضة وفيهـا الأشربة والانبذة بالاقداح على اختلاف أشكالها وألوانهـا ويتخلل ذلـك أطباق الفاكهـة واللحوم البـاردة ومزاهر الازهـار وقد فاحت رائحة المكـان بالاطياب العطرية . فصعد الامين الى سريره وأشار الى ابن عمه فجلس ثم التفت الى الفضل وقال : « أراك لا تزال بثيابك ، اخلعها وألبس ثياب المنادمـة » . ثم صاح : « يا غلام هات ثياب المنادمة » .

فجاءوه بثوب معصفر ، وأصر الامين على أن يجعل على رأس الفضل اكليلا من الزهر مثلـه ، ثم صفق فدخل القيم فقال : « الينا بالمغنيات . هل أتانا من الجواري جديد ؟ » .

فقال : « لا يا مولاي ولكن لدينا مغنيات ليس في بغـداد أحسن منهن ، حتى في دار أمير المؤمنين ، فهل آتي بهن ؟ » .

قال : « هات الوصائف بالمراوح أولا ، ثم اختر لنـا أحسن المغنيات تتعلل بهن ريثما يأتي أولئك » . فقال : « سمعا وطاعة » . وخرج .

وبعد هنيهة أقبلت جارية فتنة للناظرين ، يظهر من ملامحها أنهـا كرجية الاصل دخلت المصطبة نـافرة كالغزال انفلت من شبكـة الصياد ، وعليها قميص اسكندراني شفاف يشف عن أثوابهـا جميعـا وفوقه قرطق مفروج ، كالقباء المفرد ، وقد أشرق بياضهـا اشراقـا باهرا ، وجعلت شعرها طرة أسبلتهـا على جبينها وتعصبت بعصابة نقش عليهـا بصفائح الذهب هذا البيت :

مالي رميت فلم تصبك سهامي   ورميتنـي فـأصبتني يـا رامي

وقد أدارت صدغيها وتقوس حاجباها على عينين ملئتـا سحـرا ، وأنف كأنه قصبة در ، وفم كأنـه جرح يقطر دمـا ، وبيدهـا مروحـة عريضة من ريش النعام مغشاة بالحرير المزركش ، طرزت عليها بالذهب

هذه الأبيـات :

بـي طـاب العيش فـي الصيـ ف وبـي طـاب السرور
ممسكـي ينفـي أذى الحـر اذا اشتـد الحـرور
النـدى والجـود فـي وجـ ـه أمـين الله نـور

وقد قبضت على المروحة بأنامل منقوشة بالحناء ، وفي معصمها الأساور والدمالج اذا حركت يدهـا للترويح سمع لهـا وسوسة . وفي صدرها هلال من ذهب مرصع بالجوهر وقد نقش عليه :

أفلت مـن حـور الجنـان وخلقت فتنـة مـن يرانـي

فافتتن جعفر والفضل برؤيتها ، ولكنهما تهيبا لعلمهما انها وصيفة الامين جاءت لتروح له . فمشت وهي تنتقل على رؤوس أصابعها وتتمايل حتى دنت من الامين فوسع لها الفضل فصعدت عـلى دكـة بجـانب سرير الامين وأخذت تروح بالمروحة ، وفي يدهـا الاخرى منديل اذا تندى جبينه بالعرق مسحته له .

ثم دخلت جارية أخرى يظهر من ملمحها انها روميـة الجنس ، عليها دراعة مصبوغة بلون الورد الاحمر ، وقد وضعت على رأسها ضفائـر شعر مسدلة كأنهـا العناقيد تتدلى الى أسفل ظهرها . وفوق الشعر تـاج مرصع ، وفي عنقهـا عقد ثمين تدلى منه صليب من الذهب المرصع ، وعلى التاج بيتان من نظم أبي نواس هما :

يا راميـا ليس يدري ما الذي فعلا عليك عقلـي فـان السهم قد قتلا
أجريته في مجاري الروح من بدني فالنفس في تعب والقلب قد شغلا

وتمنطقت بمنطقة شدت بزنار • وعلقت المروحـة بها ، وعلى المروحة هذا البيت :

أتهوون الحيـاة بلا جنون فكفوا عن مـلاحظة العيون

فلمـا دخلت أشار الامين اليهـا فوقفت بجانب ابن عمه جعفر وأخذت تروح له • ثم دخلت جارية ثالثة تختلف في هندامها عن صاحبتيهـا ، وقد جعلت شعرها على شكل الطرة السكينية التي تنسب الى سكينة بنت الحسين لأنها أول من اصطنعها في المـدينة منذ قـرن وبعض قرن قبل ذلك ، ولم تشد فوقها عصابة ولكنهـا كتبت فوق جبينها هذيـن البيتـين :

يـا هلالا مـن القصور تجلى صـام طرفي لمقلتيـك وصـلي
لست أدري : أطال ليلي أم لا ؟ كيف يدري بـذاك من يتقلى ؟

وقد لبست درعا من القطيفة أبيض اللون ، كتب على جانبه الايمـن بالتطريـز :

كتب الطرف في فؤادي كتابـا هو بـالشوق والهوى مختـوم

وعلى الجانب الأيسر :

كـان طرفـي على فؤادي بـلاء ان طرفي على فؤادي مشوم

فلمـا دخلت علم الفضل انها ستقف بجانبه تروح له فمشت وهي تلاحظ ما يبدو من الامين فاذا هو يشير اليهـا أن تذهب الى الفضل ، فوقفت الى جانبه وأخذت تروح له •

ودخل جماعة من الغلمان يحملون آنيـة الشراب في ثيـاب مختلفة الالوان . فعلى بعضهم ثوب أحمر ، أو أصفر ، أو أخضر ، وعلى بعضهم ثوب أحمر أو أصفر معا أو من عدة ألوان ، وكلهم في عنفوان الصبا على جانب كبير من الجمال . وأكثرهم لا يعرفون العربية واذا تكلموها رطنوا لأن بعضهم من الصقالبة والبعض الآخر من الكرج أو الترك أو الروم ، وكلهم حديثو الاقامة ببغداد ، وأكثرهم خصيان . وقد تفنن قيم الغلمان في تزيينهم ، كما تفننت قيمة الجواري في تزيين الوصـائف اللـواتي ذكرناهن . فكـان على أحدهم قباء كتب على عاتقه الايمن :

بدر على غصن نضير شرق الترائب بالعبـير

وكتب على عاتقه الأيسر :

خطت صفيحـة خده من صفحة القمر المنير

ووقف بعض الغلمان بأباريق الشراب ، الابريق في يد والكأس في الاخرى ، والكؤوس من البلور الملون ، وبعضها من خالص الذهب عليها نقوش كتابية أكثرها أشعار في مدح الخمر ووصفهـا كهذين البيتـين لأبي نـواس :

أشرب عـلى منظـر أنيـق وأمزج بريـق الحبيب ريقي
وأحلل وشاح الكعاب رفقا واحذر على خصرها الرقيـق
وقل لمن لام في التصـابي اليك خلـي عن الطريـق

وجلس الامـين وصاحباه في انتظار المغنيات ، فاذا هـم يسمعون ضرب العود على نغـم مطرب وصوت رخيم . ثم ظهرت مغنية صفـراء

ليست من الجمـــال في شيء لأنهم لم يكونوا يعلمون الجواري البيض الغناء . ومشت وهي تضرب ضربا مسكرا وتغني بصوت رخيـــم حتى أقبلت وفي أثرها أربع جوار يحملن العيدان ويرقصن على توقيعهـــا . فما سمع الأمين الغناء حتى صاح : « الي بصـــاحب الشراب » . فجاء رئيس السقاة وأخـــذ يوجه الساقـــين فأرسل غلاما الى الامين بقـــدح قدمه اليه فشربه ، وأمـــر بمثله للفضل وجعفر . فتناولا القدحين وتظاهـــرا بالشرب مسايرة له . أما الجواري فجلسن على دكـــة من الوسائد معدة لهن في بعض جوانب المصطبة ، وبعـــد أن دارت الكؤوس وطرب الأمين قـــال : « أين الحسن بن هانىء . أين أبو نواس ؟ » .

فقال رئيس الخصيان : « في دار الاضياف يا مولاي » .

فقال : « الـــي بـــه » . قال : « سمعا وطاعة » . وهم بالخـــروج فاسترجعـــه الأمين قائلا : « احذر أن يدخل علي بغير ثياب المنادمـــة » .

فأشار مطيعا وخرج . وما لبث أن عاد يقول : « ان أبا نواس بالباب » .

فقال الأمين وقـــد أخذته هزة الطرب : « يدخـــل » .

فدخل أبو نواس ، وكان برغـــم انه جاوز الاربعين ، ما زال الجمال ظاهرا في محيـــاه ، وغلبت عليه ملامح الاهوازيين لأن أمـــه منهم ، وأرخى لحيته وكـــانت خفيفة وقد وخطها الشيب قليلا . وكان أزرق العينـــين تتجلى فيهما الدعـــابة والذكاء معـــا . وعلى رأسه بـــدل القلنسوة أو العمامة قبعة (طاقية) حمراء وتزمـــل بثوب من ثياب المنادمـــة فاقـــع الصفرة . فلما أقبل قال له الأمـــين : « أهلا بشاعرنا ، ان هذا المجلس لا يحلو الا بشاعر . والشعراء زينة مجالس الغنـــاء » .

فانحنى أبو نواس ووقف ، فأشار اليـــه أن يجلس بجانب الجواري المغنيات وأشار الى بعض الغلمـــان فقدم لـــه وسادة جلس عليها . فتذكر الفضل أبا العتاهية وأن هذا وقته ، وكـــان قـــد أسر اليه أمرا لما فارقه

وخـاف أن يكـون قد نسيه ، فأخذ يفكـر فيه وهو يتشاغل بما يراه ويسمعه من أسباب اللهـو ويظهر التهيب في مجلس ولي العهد وفي نفسه أمـور دفعه اليها جـاره جعفر بن الهادي . واغتنم جعفر فرصـة اشتغال الأمين بسماع الغناء وسأل الفضل عـن الجواري اللواتي ابتاعهـن ومتى يصلن ، فأجابه بضم أنـامله جميعـا كأنه يقول : « انهن يصلن قريبا » . ثـم التفت الـى أبي نواس وقال لـه : « ألا تقول شيئا يغنينه فيطرب ولـي العهـد ؟ » .

فلما سمع الأمـين قوله قال وقد لعبت الخمـر في رأسه : « لا يقول شيئا قبـل أن يشرب رطلا » . وأشار الى الساقي فملأ رطلا ودفعـه الى أبي نواس ، فشربـه مرة واحدة وأرجعـه الى الساقي وأشـار برأسه أن « هات أيضـا » .

فطرب الأمـين لمحبته للشراب وضحك حتى استلقى وفي يده تفاحة يأكلها ، وقال له وفي فمه قطعة منها : « اطربنا يا ابن الاهوازية » .

فأجابه والمجـون ظاهـر في سحنته : « أيريد مولاي أن يطرب بالمدح أو بالطعـن » .

فابتدره الفضل بن الربيع قائلا : « ألا تكف عن مزاحـك ؟ كيف يسأل الامـير هذا السؤال ؟ وهل يطرب أحد بالطعن ؟ ان الامير يسألك أن تلقن هؤلاء القيان أبياتا يغنينها فيطرب » .

فنظر أبو نواس الى الفضل شزرا ، ثم تماجـن وقال : « وما أدراك ماذا يطرب الامـير ؟ أتريد أن تحترف المنـادمة فضلا عن الوزارة ؟ اني أخاطب سيدي وهـو يفهم مرادي » .

فاستغرب الفضل جرأته وأراد أن يجيبـه فسمع الامين يقـول : « لقد فهمت مراده » . ثم التفت الى أبي نواس وقال : « أطربنـا بالطعن ليرى الفضل أن الطعن قـد يطرب بما لا يطرب المدح . ألق علـى الجارية

بيتا أو بيتين من هــذا القبيل » .

فأصغى الحضور وقد ظهر الاستغراب في وجوههم ، وحامت أبصارهم على أبي نواس فاذا هــو قد أدنى رأسه من الجاريــة التي بيدها العود ، وأسر اليها أبياتا ، فسوت العود والكــل سكوت حتى الامــين ثم أخذت تغنــي :

عجبت لهرون الامام وما الــذي يود ويرجو فيك يا خلقة السلق (١)
أرى جعفرا يزداد بخــلا ورقــة اذا زاده الرحمن في سعة الرزق
ولو جــاء غير البخل من عند جعفر لمّــا وضعوه الناس الا على حمق

وكانت الجاريــة تغني وتجيد في غنائها ، والامين يهتف طربا عند كل مقطع . وفطن الفضل للسر منذ بــدأت الجــارية في غناء البيت الاول اذ أدرك أن أبو نواس يعــرض بجعفــر بن يحيى البرمكي عــدوه ، فكان طربه أكثر من طرب الامين . وكــان جعفر بن الهادي أكثر طربــا منهما فصاح بأبي نواس قائلا : « لله درك ولا فض فوك » . وكان في يده عقــد من الجوهر يــلاعبه بين أنامله فهم بأن يرميه اليــه . ولكنه تذكر أنــه في حضرة ولي العهد ولا يستحسن أن يسبقه الى اجازة الشاعــر ، فالتفت الى الامين واستأذنه في ذلك فأذن له ، فرمــى بالعقد الى أبــي نواس فوقع في حجره فتناولــه ونظر الى الأمين كأنــه يستشيره في أمره ، فضحك الامين وقال : « أراك تبحث عن مكــان تضع فيه العقد . ضعه هنــا » . وأشار الى الجاريــة الواقفة على رأس الفضل . ثــم قــال : « وهي لك أيضا . ولكن بعــد انقضــاء هذا المجلس ، واذا زدتنــا

---

(١) السلق بكسر السين جمع سلقة بمعنى ذئبة ، ويقال للمرأة السليقة سلقــة .

زدنــاك » .

فوقف أبو نواس ليشكـــر ذلك الصنيع ، فأومأ اليه الامين أن يجلس ويعود الى ما كان فيه ، وأشار الى الساقــي فأدار الأقــداح وهو يبدل ألـــوان الأنبذة من نبيذ التفــاح الى نبيذ التمر فنبيذ العنب ، وهي تتلألأ في الأقداح بين الصفرة والحمرة والشبهة والصهبة . ثم أشار الامـــين الى صاحب الشراب فأمر أحد الخصيان بـــأن يقدم القدح الى أبي نواس بيده وكان الغلام عبلا جعد الشعر قد صففه على جبينه بشكل بديع . فأخذت أبو نواس سورة الخمر فنظر الى الغلام ثم الى الامـــين فابتدره الأمين قائلا : « صفه وهو لك » . فتناول أبو نواس القدح من يـــده وقـــال :

يسعى بهـــا خنث في خلقه دمـــث	يستأثر العين في مستدرج الرائي
قد كسر الشعر واوات ونضـــده	فوق الجبين ورد الصدغ بالفـــاء
عينـــاه تنفث داء في محـــاجـــره	وربمـــا نفعت في صولـــة الداء
اني لأشرب من عينيـــه صافيـــة	صرفا وأشرب أخرى مع ندمـــائي

فلما سمع الأمين شعره صاح فيه : « ويلك كفى . هو لك » .

فلما رأى الفضل الخمر دارت في رأس الامين أراد أن يغتنم الفرصة فقال له : « هل نسي مولاي القيان البيض ؟ » .

فقال : « كيف أنساهن ، هل أتين ؟ » . ونظر الى قيم الدار مستفهما فقال : « نعم يا مولاي قد جئن منذ ساعة » .

فقال : « الي بهن الساعة » .

فخرج وما عتم أن عاد مهرولا مذعورا وفي أثره رجل قصير قـــد اكتسى جلد قرد ، وعلى رأسه قبعة هرمية الشكل في قمتها جلاجـــل ، وهو يقهقه قهقهة القردة ، ووثب حتى توسط المصطبـــة وأخذ في الرقص

فقهقه الامين وأغرق في الضحك حتى استلقى على ظهره ، ولم يبق أحد لم يضحك ، وعلا الضجيج فقال الامين : « أليس هذا أبا الحسين الخليع ؟ » .

فانتبه القيم وقال : « بلى يا مولاي هو بعينه قبحه الله انه ذهب بعقلي » . فقال الامين : « دعه وامض الى الجواري » .

وتشاغل الحضور بالضحك ريثما عاد بالمغنية قرنفلة ، وبيدها العود تضرب عليه ضربا رخيما ، وقد تكحلت وتبرجت وأرخت شعرها على كتفيها . ودخلت الجاريتان الاخريان في أثرها وبيد كل منهما عود فوقفت بين يدي الامين وهي تضرب على عودها نغما لم يسمع مثله من قبل ، فأومأ اليها الامين فجلست وغنت :

لم تلده أمة تعرض في السوق أتجارا
لا ولا حد ولا خا ن ولا في الخزي جارا

وكان الفضل في أثناء ذلك يراقب حركات الامين ، فاذا هو يرفس الارض برجليه طربا ويصيح : « صدقت صدقت ، قبحك الله ! » .

ولم يستغرب الفضل ذلك بل كان يتوقعه منه ، لأنه هو الذي أوعز الى أبي العتاهية أن يعلمها هذين البيتين لاثارة حقد الامين على أخيه المأمون ، وللتعريض بأن أم المأمون جارية ، وبأن الرشيد حده في جارية وجده معها .

- ٨ -

اسماعيل بن يحيى

استمر المجلس على تلك الحال من الطرب والضحك والشراب ،

حتى وقت الأصيل ، ثم سمع الامين نباح كلاب كان قد جعلها على شاطيء دجلة وراء المصطبة لتنبح اذا رأت غريبا . فأمر بعض غلمانه أن يستطلع سبب نباحها ، فخرج الغلام من باب سري يؤدي الى الشاطيء ثم عاد مسرعا يقول : « أرى سفينة تدنو من الشاطيء أظنها حراقة اسماعيل بن يحيي الهاشمي » .

فلما سمعوا الاسم سقط في أيديهم ، واقشعرت أبدانهم كأنما صب عليهم ماء حار ، ولا سيما جعفر بن الهادي فانه امتقع لونه وظهرت الدهشة على وجهه ، ثم أشار الامين الى المغنيات فسكتن ، وتحولت الضوضاء الى دهشة ، واستولى السكوت على الجميع هنيهة سمعوا في أثنائها ربان السفينة يأمر النوتية بأن يحلوا الشراع ويتقدموا نحو الشاطيء . فوجم الامين وتجلد وقد ذهب سكره وتذكر حاله ، فنزع الاكليل عن رأسه كأنه يريد أن يخفي مجونه وتهتكه . واقتدى به غيره ولكن أنى لهم أن يخفوا مجونهم والاقداح متناثرة بين أيديهم والاباريق مملوءة والمائدة منصوبة وعليهم ثياب المنادمة وما يتبعها من أسباب الخلاعة واللهو ؟

ثم تجلد الامين ونهض من مجلسه وصاح بغلامه أن يسأل أهل الحراقة عن صاحبها . فخرج الغلام ثم عاد يقول : « ان اسماعيل بن يحيي يستأذن في الدخول » .

فقال : « يدخل ، أهلا به ومرحبا » .

ولحظ الحضور رغبة الامين في اخفاء تهتكهم ، فأخرجوا الخليع وأمروا الجواري بالسكوت وجلسوا ينتظرون وصول اسماعيل وكأن على رؤوسهم الطير . وما عتم الغلام أن رجع وفي أثره شيخ جليل المنظر وسيم الطلعة ، عالي الجبين ، طويل القامة عريض المنكبين عليه جبة سوداء ، وعلى رأسه قلنسوة طويلة حولها عمامة من خز ، وهو لباس

العباسيين الرسمي .

وكـان اسماعيل بن يحيى من جلة بني هاشم رهط الخليفة . وكان من أهل التعقل والحزم ، فزادته الشيخوخة وقارا ، وكان مسترسل اللحيه وقد اشتعل رأسه شيبـا فلم يخضبه ترفعـا عن بهارج الدنيـا ، لأنه كان حكيما نير البصيرة يرى الامور كمـا هي ويقدر الناس عـلى قدر مناقبهم ومواهبهم ، لا بأنسابهم وظواهرهم . ومع كونـه هـاشميـا من أعمام الخليفة ، لم يكن يرى في ذاك ما يفضله على سواه الا اذا قرن بالتقوى والصالحات . وكـان مطلعا على دخائل الدولـة عالمـا بما تنطوي عليـه شؤون أهلهـا . ولم يكن يحب الرشيد لأنه هاشمي ، ولا يكره جعفر البرمكي لأنه فارسي . وانما كـان ينظر الى الامور من حيث هي . وغرضه الاول سلامة الدولة العباسية من العلل وخلوصهـا من أسباب الفشل ، ولا يهمه على يد من تكون سلامتها .

فكان ينظر الى ما يحاك من الدسائس بين الرشيد وبين وزيـره ، أو بين الامين وأخيه ، أو بين غيرهما من الاحـزاب المتنافسة . نظـر الحكيم الناقد البصير الذي يشرف على أهواء النـاس من سمـاء تعقله وفلسفته ، ويسعى جهده في تلافي ما يخشى وقوعه من مفـاسد ذوي المطامع الدنيوية وأرباب الاهواء النفسانية . فلم يكن يهمه أن تفضي الخلافة اليه بقدر ما يهمه صلاحها وتوطيد دعائمها وطول بقائهـا وكان أعلم الناس بمواضع الضعف والقوة في الرشيد ووزيره . ولـه الدالة على كليهما والكلمة النافذة عندهما ، ولا سيما الرشيد الذي كـان يجله ويحترمه ويعظم شأنه لمـا تحققه من كبر نفسه ونزاهته وسلامـة نيتـه فضلا عن ذكـائه وسداد رأيه ، وطبيعي أن من كـان هذا شأنه لا بد أن يهابه الناس ويحترموه حتى الملوك . فانهم مهما يبلغ من صلفهم وكبريائهم لا يحتقرون رجلا لا يجتمعون به الا استمعوا لنصيحة يتحققون أنهـا

صادرة عن محض الاخلاص . ولا يتباحثون معه الا آنسوا منه تعقلا فوق تعقلهم . فكيف اذا أضيف الى ذلك شرف النسب وعلو الهمة والشيخوخة . فلا غرو اذا نال اسماعيل هذه المنزلة عند الرشيد ورجال دولته ، لاشتهاره بالغيرة على سلامة الدولة والتفاني في سبيلها . على أنه لم يكن يقدم على نصيحة أو مشورة الا اذا رأى النصح نافذا . والتصريح به ممكنا . فاذا افتقر الى تلون أو رياء تباعد وتحاشى . ولذلك لم يكن يعجبه الامين ولا يرى نصحه نافعا . فكان يبتعد عنه ويحاذر أن يحضر مجلسه .

أما مجيئه في ذلك اليوم فسببه أنه كان يرقب جعفر بن الهادي ، ويعلم ما يضمره من الحقد على الرشيد والبرامكة ، ثم بلغه أنه يصاحب الامين فلم يطمئن الى ذلك . وكان اسماعيل وجعفر يقيمان بالبصرة شأن أكثر بني هاشم المتقاعدين الذين يعيشون من أعطيات الخليفة وهباته من الاموال والضياع . ولكنه لم يكن ممن يحبون اللهو والقصف . بل كان عفيفا حازما يكره ما يراه من ترف هؤلاء وقصفهم ، وعلم أن النصح لا ينفعهم فكف عن نصحهم الا جعفر بن الهادي فانه كلفه من صغره مذ مات أبوه ، فشب جعفر لا يشرب مسكرا ولا يميل الى اللهو ، وانما كان يعاشر الامين ويغريه بزيادة الترف واللهو لغرض في نفسه لم يكن يخفى على اسماعيل . وكان يخاف بقاءه على عزمه لأنه لا يرى فيه صلاحا للدولة بل هو يخاف عليها منه . وكثيرا ما نصحه بالرجوع عن ذلك فكان يعده ثم يخلف . فلما علم منذ أيام وهو في البصرة بأنه أتى الى بغداد ، ظن أنه جاءها لترويح النفس ، أو لأخذ عطائه ، فلما أبطأ خاف عاقبة ابطائه فلحق به مظهرا أنه آت لغرض آخر خاص به . فلما وصل الى بغداد واستطلع أخباره علم أنه نازل في قصر الامين لا يخرج منه . فلم ير بدا من مقابلته هناك ، وكانت له سفينة

على دجلة اذا جاء بغداد ركبها • فاستعد في ذلك اليوم وقصد الى قصر الامــين •

فلما دخل اسماعيل مجلس الامين ، تهيبه كل من في المجلس حتى الامين نفسه ــ رغم سكره الشديد ، فوقف لملاقاته والترحيب بــه • وأما جعفر بن الهادي فوقف منزويا وقد ارتج عليه • ولــم يبق ثابت الجأش متجلدا الا الفضل بن الربيع لمــا ذكرناه من طبيعة مزاجه فضلا عن دهائه • فتقدم الى اسماعيل مرحبا به ، وأظهر رغبته في تقبيل يــده وهو يقول : « مرحبا بمولاي » • ثم قدم له كرسيا •

فنظر الشيخ الى ما حوله من الجواري والغلمان والعيدان والاباريق والاقداح وغير ذلك من أسباب الانس والطرب فعلم أنه اذا جلس معهم نغص عليهم نهارهم ، فتظــاهر بأنه لم يكن يقصد الزيارة في تلــك الساعة ولكنه ظن أنه سمع صوت جعفر بن الهادي هناك • قــال ذلك وهــو يتجاهل انه رآه •

فظهر الوجل على وجه جعفر وأقبل متأدبا وهو يتجلد ، وعلــم أن اسماعيل لا يروق له الجلوس هناك فقال : « كنت عــازما على الخروج من الصباح ، فأمسكني ولي العهد في هذا المجلس ليسمعني غنــاء الجواري البيض وألبسني ثيــاب المنــادمة • فاذا أحب سيدي أن أنطلق في خدمته فعلــت » •

فأظهر اسماعيل سروره بلقيــاه وقال : « لا بأس يا ولدي فانــي مشتاق الى رؤيتك فاذا أحببت الانصراف فانزل معي الى السفينة ودع القوم في مجلسهم ، فــان مقامي لا ينفعهم » • قــال ذلك وتحول ومشى ، فاستأذن جعفر حتى يبدل ثيابه ثم يلحق بــه الى السفينة •

وخــرج اسماعيل وأهل المجلس سكوت تهيبا ، وقد سر الامين لذهابه • أما جعفر بن الهادي فأسرع الى غرفته فلبس قلنسوته وسواده

ونزل الى السفينة فوجد اسماعيل يتمشى على ظهرها وقد أرسل قلنسوته الى الوراء وظهر الاهتمام في جبينه وعينيه . فلما أقبل عليه ترامى على يديه ليقبلهما ، فجذبهما منه وقال : « ما هذا المجلس يا جعفر ؟ أمثلك يفعل ذلك ؟! » .

فتراجع وأطرق ولم يجب ، ثم أمر اسماعيل ربان السفينة بأن يمضي بهم الى مرسى بعيد عن القصر ، وأمسك بيد جعفر وسارا الى مقعد في مؤخر السفينة يشرف على الماء فأجلسه الى جانبه وقال : « لم يكن عهدي بك أن تجالس هذا الغلام ، فهل طاب لك اللهو والتهتك ؟ » .

قال : « هل ترى فيَّ أثر الشرب ؟ اني والله لم أذق الخمر » .

قال : « لا أقول أنك تسكر ، ولكنني أعهد فيك التعقل والرزانة ، وكنت أحسبك اذا لقيت الامين في مثل هذه الحال أنبته ووبخته لا أن تجلس معه وتسايره ! » .

فتنهد جعفر وحول بصره الى مقدم السفينة متشاغلا بما يراه من سبر النوتية قاع النهر بالعمد ليسيروا بالسفينة الى مأمن . فلما رأى اسماعيل سكوته أدرك ما يضمره وقال : « يخيل الي أنك لا تزال على سوء ظنك بهؤلاء ، وكأنك لا تزال طامعا ؟ » .

فلم يتمالك ابن الهادي عن قطع الحديث قائلا : « لست طامعا يا سيدي ، فاني انما أطلب حقي ! » .

قال : « وأي حق تعني ؟ » .

فخفض صوته وهو يلتفت مخافة أن يسمعه أحد ثم قال : « أعني أن هؤلاء الموالي سلبوني حقي بعد ما قتلوا أبي وأخرجوا الخلافة من يدي ، وأنت أعلم أني أولى الناس بها » .

فتظاهر اسماعيل بالاستخفاف وقال : « لا أجادلك فيما تدعيه

من الحق ، ولكنني لا أرى علاقة بين ما تطلبه وما تفعله . ما العلاقة بين طلبك الخلافة وجلوسك هذا المجلس ؟ ولقد طالما دافعتني بمثل هذا المقال ، فأخبرني ما هو حقك وممن تطلبه ؟ » .

فقال جعفر وقد تجلى الغضب بين حاجبيه : « أتسمح لي بأن أصرح بما في نفسي ، اني أتهيب ذلك بين يديك » .

قال : « قل ولا تخف ، فاني اذا رأيت طلبك صوابا أعنتك عليه ، والا فاني أنصحك وأكتم أمرك » .

قال : « أنت تعرف أن أبي الهادي عليه رحمة الله تولى الخلافة بوصية جدي المهدي ، وتعلم أنه أوصى لي بالخلافة بعده » .

قال : « أظنك تطمع في تنفيذ وصيته ، ألا تعلم أنه ارتكب بها شططا لأن المهدي انما أوصى بالخلافة لأبيك ثم لعمك الرشيد بعده ، فلما تم له الامر أراد اخراج الرشيد من الخلافة ومبايعتك بها ، فهل تعد ذلك حقا ؟ » .

قال : « لا أنكر عليك انه خرج بذلك على وصية المهدي ، ولكنهم راجعوه فرجع وأعاد البيعة الى الرشيد على أن تكون الخلافة لي بعده . ألا تذكر ذلك ؟ » .

قال : « نعم أذكره » .

قال : « فما بالهم على أثر ذلك فتكوا بأبي وقتلوه ، فلم يجلس على عرش الخلافة الا سنة وبعض السنة ؟ » .

فقال مستغربا : « قتلوه ؟! كيف هذا ؟ . أنا لا أعلم أنه مات مقتولا ، بل توفي بمرض ، ولو زعمت أن أمه الخيزران قتلته لرأيت مسوغا لهذا الزعم ، وأما غيرها فلا ! » .

فتضاحك جعفر وقال : « لا يبعد أن تكون الخيزران ارتكبت هذا الجرم كما يقولون ، لأن أبي أغضبها بكف يدها عن التدخل في

شؤون الدولـة ، ولكنها فعلت ذلك مدفوعة باغراء ذلك الفارسي ! » •
قال ذلك وحرق أسنانه •

فقال اسماعيل : « أظنك تعني يحيي بن خالد » •

قال : « نعم اياه أعني ، والدليل عـلى ذلك أنه هو الذي وقف في سبيل أبي وعارضه في البيعة ، وكـان الرشيد قد أذعن للخلـع ورضي بتحويل البيعة الي ، فحرضه يحيى هذا على رفض هذه البيعة ، ومـا زال يسعى حتى وافقه أبي على أن يرجع البيعة اليه ، على أن أكون أنـا الخليفة بعده • فلمـا وافقه على ذلـك أسرع الى الفتك به ، فلم تمض ليال قليلة حتى قيل ان الهادي مات ، وزعموا أن جدتي الخيزران قتلته ، ولكنني أعتقد أنها اذا كانت قد فعلت ذلك فانما فعلته باغرائهم • ألا تذكر أنه كان أول العارفين بالوفاة فهرول ليلا الى الرشيد وبشره ؟ • وقد حفظ له الرشيد هذه اليد فألقى مقاليد الحكومة اليه • ثم أفضت الى ابنـه جعفر الوزير الحالي ، وهو على ما تعلمه من نفوذ الكلمة حتى يصح أن يقال انه هو الخليفة لا الرشيد ؟! » •

- ٩ -

البرامكة والدولة

كان جعفر بن الهادي يتكلم والعرق يتصبب من جبينه ، واسماعيل يصغي الى قوله ، وربما شاركه رأيه ولكنه لم يكن يرى أن يشجعه عليه لاعتقاده ان ذلك ليس في صالح الدولة في شيء ، بل قد يؤدي الى فسادها ،

فعمد الى التماس العذر للبرامكة فقال : « أراك سيء الظن بالبرامكة ، كأنك تجاري أعداءهم في الطعن على أعمالهم ، وأنت تعلم أن للبرامكة فضلا على هذه الدولة لا يضارعه فضل . وأنا هاشمي كما تعلم ، والخليفة من لحمي ودمي يسوءني ما يسوءه ويسرني ما يسره ، ولكنني أراكم ظلمتم هؤلاء الموالي ونسيتم آثارهم في تنظيم هذه الدولة من عهد جدهم خالد . ألم يكن خالد من أكبر أعوان أبي مسلم في نقل هذه الدولة من الامويين الينا ؟ . فلما قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم وثار الفرس والاكراد عليه كادت تخرج الدولة من يده لولا أن أنجده خالد وضمن له التغلب عليهم بالرأي دون الجنود . ناهيك بما كان من تدبير شؤون الحكومة وتنظيم دواوينها على يده ويد ابنه يحيي وحفيديه الفضل وجعفر . ان البرامكة يا ولدي هم جمال هذه الدولة وقوام أبهتها . وهذه بغداد كلها مليئة بآثار حسن تدبيرهم . فقد أقاموا فيها المكتبات والحلقات ومنازل الجند ومآوي المرضى ومجالس القضاة وغرف الشرطة . وان ما تراه من رواج سوق العلم والفلسفة ، وتهافت أهل الذمة وغيرهم على ترجمة كتب اليونان والفرس ، انما أصله ترغيب البرامكة فيه بالبذل والعطاء . أليس يحيي بن خالد أول من عنى بنقل المجسطي من اليونانية الى العربية ؟ وهل تنكر أنه هو الذي سعى في جمع الكتب من الهند وغيرها ؟ . أليس البرامكة هم الذين استقدموا أطباء الهند لترويج صناعة الطب ؟ ان هؤلاء الاطباء بين ظهرانينا الآن . وهذا هو كبيرهم (منكة) الذي أشار يحيى على الرشيد باستقدامه لما اشتدت وطأة المرض عليه حتى كدنا نيأس من حياته فعالجه وشفاه . ان البرامكة هم الذين رغبوا الرشيد في انشاء المارستان وولوا عليه طبيبا هنديا من هؤلاء ، وأنشأوا مارستانا لأنفسهم وولوا ادارته الطبيب الهندي (ابن دهن) . وهل خفي عليك ما للفضل بن يحيى من

الاثر الجميل في استخدام الورق ؟ . انني لن أنسى كيف ضاق أصحاب الدواوين ذرعا باستعمال الجلود والرقوق للدفاتر والسجلات حتى أشار الفضل باستعمال الورق فأنشأنا له المصانع في بغداد . وأراني لو أردت تعداد مآثر هؤلاء البرامكة لتعبت قبل الاتيان على آخرها ، وأنت تعلم عصبيتي لبني هاشم ، وغيرتي على هذه الدولة ورغبتي في سلامتها ، فليس يعقل أن أنطق عن هوى أو غرض ، وانما أقول الحق الصراح . فلا يغرنك ما تراه من نقمة ابن الربيع وأمثاله عليهم وطعنهم فيهم ، فانهم يفعلون ذلك حسدا لتقصيرهم عن مجاراتهم » .

وكان جعفر أثناء هذا الكلام مطرقا ينظر في حركة الماء الملامس لجدران السفينة وهي سائرة الهوينا ، فلما فرغ اسماعيل من كلامه انتبه جعفر وقد ضاقت نفسه باطرائه البرامكة الذين يكرههم كرها شديدا . ولكنه لم يجد سبيلا لدفع أدلة اسماعيل فلم ير خيرا من استئناف الكلام عنهم فقال : « هب أنهم ملائكة نزلوا من عليين ، ألم يقتلوا أبي فأخرجوا الحكم من يدي ؟ » .

قال : « ان دعواك منقوضة أو هي لا دليل عليها . اذ لم يقل أحد أن يحيى بن خالد قتل أباك أو سعى في قتله لاخراج الامر من يدك » .

قال : « أما أنه قتله فلا ريب عندي في ذلك وأن خفي على الاكثرين . وأما أنه فعل ذلك لاخراج الحكم من يدي فيدلك عليه انه بعد أن وافقه أبي على أن يبايع للرشيد قبلي ، عجل بقتله قبل تمكين البيعة لي . ثم لما تم الامر للرشيد ، سارع الى المبايعة لابنه ذلك المتهتك ، وأظنه كان عازما أن يجعل الخلافة لي بعد الامين فأغراه وزيره البرمكي بالمبايعة لابنه الآخر المأمون ، فأصبحت صفر اليدين ، ووالله لو .. » . وتململ .

فابتسم اسماعيل وقطع كلامه قائلا: « اني لأعجب من تناقض أعمالك

وأقوالك . كيف تكون ناقما على هذا الغلام وتجالسه في مجلس المدام والغرام ؟ . ثم اني لا أفهم معنى لهذه النقمة ، اذ كيف تصل الى بغيتك والرشيد على كرسي الخلافة ، وحوله الجند والاعوان ، وبنو هاشم ينصرونه ويؤيدونه . وقد بايع بالخلافة بعده لولديه الواحد بعد الآخر . فأقلع عما يجول في خاطرك من الافكار الصبيانية ، ولا شك أن الرشيد اذا أطلع على شيء مما في نفسك فان لحمك يتناثر تنفا بين السماء والارض . ولكني كتمت أمرك وأكتمه لأني أرجو صلاحك ورجوعك . أما اذا أصررت على ما أنت فيه ، فان حرصي على سلامة الدولة يبعثني على التضحية بك . الا اذا رأيت في أعمالك سدادا . فقل لي كيف ترجو الوصول الى الخلافة ؟ » .

وكان لتهديد اسماعيل وقع شديد على جعفر لأنه كان يحترمه ويخافه ، فضاقت نفسه وانحبست عواطفه وكاد يختنق ودمعت عيناه لشدة تأثره ، فأطرق خجلا وظهرت الحيرة في وجهه ، ثم تجلد وقال : « أراك يا عماه مستخفا بي وبأعمالي ، وتحسب اني لا أتحفظ في أقوالي ، ولكني لا أجهل قصر باعي عن مناوأة الرشيد وهو في جنده وأعوانه ، ولست أطمع في ذلك وانما أطمع في الخلافة بعده وهذا ليس بالعسير اذا سقط وزيره البرمكي . فاسمع كلامي الى آخره . ان الرشيد اذا مات فالخلافة تفضي أولا الى الامين ، وهو لا يصلح لها ولا أراه يزداد الا انغماسا في القصف والترف واللهو فلا يبقى عليه أهل الدولة . وأما المأمون فهو والحق يقال ذو عقل وحزم ، ولكنني لا أرى أحدا من الهاشميين يحبه ، لأنه ينتمي الى أخواله الفرس . ولا أظنك تجهل أن جعفر البرمكي هذا هو الذي سعى في مبايعته بالخلافة لغرض في نفسه لا يقل عن اخراج الدولة من أيدينا . أرجو الاصغاء الى آخر كلامي ، فالعقبة الوحيدة في سبيل استرجاع حقي في الخلافة هي وجود هذا الفارسي ، وهو يستحق

القتل ان لم يكن انتقاما من أبيه لأبي فلأنه استأثر بأموال الدولة لنفسه وأهله • وأنت ترى أن دخلهم من ضياعهم ربما ضارع دخل بيت المـال • فقد أخبرني سهل بن هرون ، وهو أعلم الناس بذلك ، ان مبلـغ جباية هؤلاء الموالي عشرون ألف ألف دينار في السنة من ضياعهم ومرافقهم • ولا يخفى عليك يا عماه ان جباية المملكة من أقصى الشرق الى أقصى الغرب لا يزيد على هذا القدر كثيرا • فقد علمت من صاحب بيت المال ان مجموع جباية الدولة نحو أربعمائة ألف ألف درهم ، أي سبعة وعشرين ألـف ألف دينار • ونحن الهاشميين نستقطر رواتبنا بالالف والعشرة آلاف كأننا نستعطي ! • ناهيك بأسباب الابهة التي استأثروا بهـا حتى لترى الخيول الواقفة بباب جعفر أضعاف ما يقف منها بباب الرشيد • فمـا أدرانا مـا يكون من عاقبة هذا الاستئثار اذا مات الرشيد وتولـى الامين وهو على ما ترى ؟ • ألا تذهب الدولة من أيدينا ؟ • أمـا المأمون فانـي أعترف بحزمه ولكنني لا أراه غيورا على استبقاء الخلافة في أهل بيتـه ولعل سبب ذلك اتصال نسبه بالفرس من أمه ، وانصياعه الى مشورة مربيـه جعفـر » •

أعجب اسماعيل بدهاء جعفر ، ولعله رأى قولـه صوابا ، غير انه كان يخشى سوء العاقبة على الدولة ، فقال له : « لا أنكر ضخامة ثروة البرامكة ، ولكن لا تنس انهم ينفقون ريعها على الناس ، وأنت تعلـم انه ليس بيننا من لا يستولي على راتب أو هدية من جعفر أو أخوته ؟ • وقد علمـت من صاحب بيت مالهم ان أثني عشر ألف ألف دينـار ــ أي أكثـر مـن نصف ايرادهم ــ يجعلونه بدرا عليهـا صكوك مختومة وعلى كل بدرة اسم واحد من أهل الدولة ليرسلوها هدية اليه • فالمال راجع الى الدولـة وأهلهـا ، ولا أظن الخليفة يفعل أكثر من ذلك • ثم ان ازالة هذا الرجل خطر على الخلافة ، وأرى أن الرشيد نفسه لو أراد قتله لمـا استطاع اليه

سبيلا لأن أكثر رجال الدولة من مريديه وقد غمرهم بالعطـاء والمعروف فأقلع عما أنت فيه واصغ لنصحي فـاني ضنين بشبابك حريص عـلى حياتك . والرأي عندي أن تقترب من الرشيد فذلك خير لـك وأبقى ، وأنا أضمن لك ما تستحقه من المنزلة وأسعى في ذلك بنفسي » .

فلما رأى جعفر بن الهادي اصرار اسماعيل على رأيه تظـاهر بالقبول مخافة أن يفشي أمره اذا أغضبه فقال : « وماذا تراه في أمـر تقربي من الـرشيد ؟ » .

فسر اسماعيل لمـا آنس من اقتناع جعفر ، وما يتبعه من زوال الخطر على الدولة فقال : « ان أقصى ما يطمع الناس في التقرب به الى الخلفاء ، أن يتزوجوا بناتهم . فمـا قولك في زواجك بالعالية بنت الرشيد ؟ » .

فرأى جعفر أن هذا الزواج اذا تم لا يقف في سبيل مطمعه ، بل قد يعينه على تحقيقه . فأظهر الاستحسان وقال : « انها قربى عزيزة ، ولكن الرشيد قد يشاور وزيره فلا يقبل ! » . وضحك .

فقال : « لا تكن سيء الرأي في الرشيد الى هذا الحد . فانه أقوى عزيمة وأشد بأسا مما تظن . وأنا أضمن لك ذلـك والآن أتقدم اليـك أن ترجع الى البصرة ريثما أوافيك بالخبر » .

قال : « سأذهب طوع أمرك ، ولكنني لا أرى ضررا من بقائي هنـا حتى تنقضي هذه المهمة » .

قال : « حسنا ، فاذهب الآن الى قصري ، وأنا أمضي غدا الى الرشيد فأكلمه في هذا الشأن » .

فقال : « الا تأذن لي بأن أعود الى الامين فأودعه وآتي ببعض الامتعة التي تركتها عنـده » .

قال : « اذهب في حراسة الله » .

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، فطلب جعفر الى اسماعيل أن

يأذن في انزاله من السفينة ليركب زورقا يعود به الى قصر الامين .

فأمر اسماعيل بارساء الحراقة بجانب الشاطىء ، ورأى جعفر هناك زورقا ركب فيه وعـاد الى قصر الامين وقد أقبل العشاء وأظلم الليـل ، فلما اقترب من المصطبة نبحت الكلاب وكانت كبيرة هائلة فخاف أذاهـا ولبث واقفا يتردد بين النزول من هناك أو الدخول من البـاب الآخـر وراء البستان ، ولاحظ في أثناء وقوفه ان المصطبة خالية من الناس اذ لم يسمع فيهـا غناء ولا رأى نورا ، فعزم على المسير في الزورق الى الباب الآخر والطريق اليه بعيـد .

وفيما هو يفكر في ذلك رأى نورا يظهر في المصطبة ويدنو من السور ثم سمع لغطـا خفيفا ، ورأى يدا امتدت فوق الحائط والمصبـاح في قبضتها ، فلمـا رأت الكلاب المصباح سكتت ، ثم أطل رجـل عرف جعفر من قيافته أنه قيـم الغلمـان فناداه فقـال الرجل : « سيـدي جعفـر ؟ » .

قال : « نعم . هل أدخل من هنا ؟ » .

قال بصوت ضعيف : « تمهل قليلا ريثما أعود اليـك » . وتركـه وعاد بمصباحه وجعفر واقف في الزورق ينتظر رجوعه ويفكر في سبب هذا التستر ، وبعد قليل ظهر النور وسمع صوت القيم يقول : « هيـا يا مولاي ، ولكن أرجو أن تسير على مهل ! » .

فاستغرب جعفر هذا الطلب ثم هبط من الزورق ومشى حتى دنـا من الباب السري فقابله رجل بالمصباح وقال : « ادخل يا مولاي » .

فدخل والرجل يمشي بين يديه بالمصباح ، فمرا بالمصطبة فـرأى آثار الشراب والطعام لا تزال فيها كأن الجلوس غادروها من عهد غير بعيد . فتحير في أمره ، وحدثته نفسه أن يستفهم عن سبب ذلـك التغيير ثم أمسك ، وظـل الرجل يسير أمامه حتى تجـاوز الدهليز الى القاعة

الوسطى في دار النساء ، فرأى المنائر في زواياها وجدرانها قد أضيئت شموعها وليس هناك أحد فلم يتمالك أن سأل الرجل : « أين مولانا ولي العهد ؟ » . قال : « اننا ذاهبان اليه يا سيدي » .

★ ★ ★

مشى جعفر في أثر القيم وهو يدخل من قاعة الى قاعة ، وكلها مضيئة بالشموع على المنائر ، وفيها الرياش الفاخر ، يختلف في كل قاعة لونا وشكلا عما في القاعات الاخر ، حتى وصل الى باب مقفل وقف القيم عنده ونقر عليه نقرا خفيفا ، فسمع جعفر حركة ثم فتح الباب وأطل منه الفضل بن الربيع وهو لا يزال بثوب المنادمة كما فارقه ، وأمسك بيده وأدخله وهو صامت فدخل جعفر الى غرفة لم يجد فيها الا الامين جالسا على طنفسة ، وهو أيضا ما زال بلباس المنادمة وبجانبه امرأة قد تزملت بعباءة ووجهها مكشوف ، فعرف أنها جارية ، ورأى على وجهها آثار الاهتمام ، فحياهم ووقف فأمره الامين بالجلوس قائلا : « اجلس واسمع هذا الحديث الغريب » .

فجلس وجلس الفضل الى جانبه فقال الامين : « جاءتنا هذه الجارية بخبر يهمك ويهمنا . انها من جوارينا وقد أقمناها رصدا لنا على ذلك الوزير ، فاسمع ما جاءتنا به عن خيانته » .

فاستبشر جعفر بما سمعه وتطاول بعنقه نحو الجارية ولبث صامتا فوجهت هي كلامها الى الامين وقالت : « أنت تعلم يا مولاي أن يحيى ابن عبد الله بن الحسن العلوي كان قد خرج على الدولة في الديلم واجتمع حوله جماعة الشيعة الناقمين على بني العباس يريدون اخراج الخلافة من أيديهم وتعلم أن أمير المؤمنين الرشيد بعث لحربهم غير واحد وهم يزدادون تمردا حتى أنفذ اليهم الفضل بن يحيى أخا الوزير

جعفر ، فلما وصل بجنده الى (الطالقان) وعلم أن الرجل ممتنع في جبال الديلم ، احتال عليه ووعده خيرا . فوثق يحيي بمواعيده لأنه من الشيعة مثله ، فجاءه فتلطف في معاملته وحسن اليه أن يصحبه الى بغداد ويستسلم لأمير المؤمنين ، فأبى يحيي أول الامر ، ولكن الفضل ما زال يلح عليه حتى قبل على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه . واتفقا على صيغة أمان كتبها الفضل وبعث بها الى مولانا الرشيد فوقع عليها ، ولما وصل يحيى الى بغداد استقبله أمير المؤمنين وأكرم مثواه وأجرى له أرزاقا سنية . ثم بلغ مولانا الرشيد من بعض العارفين أنه يهم بالخروج ، و ... » .

فقطع الامين كلامها وقال وهو يهز رأسه : « نعم انه ما زال على سوء قصده ، وهل تصفو قلوب أولئك العلويين لنا بعد أن بلغ العداء بيننا وبينهم هذا الحد ؟ ولا قلوبنا تصفو لهم ! » .

فقال جعفر : « ومن أدرانا أن الفضل لم يتواطأ مع صاحبه يحيي العلوي سرا على أن يتربص حينا ريثما يخرجون جميعا علينا ؟ » .

فقال الفضل بن الربيع : « هذا ما تراءى لأمير المؤمنين ، لأنه بعد أن أعطاه العهد عاد فأبطله كما ستسمعون » .

فأتمت الجارية كلامها وهي تنظر الى الامين فقالت : « نعم ان مولانا الرشيد أبطل العهد لا أدري لماذا ولكنني علمت أن آل الزبير وشوا بالعلوي ، فأمر أمير المؤمنين بأخذه وحبسه » .

فاستغرب الامين قولها وقال : « اذن لا بد أن يكون في الحبس الآن » .

قالت وهي تبتسم : « بل هو الآن في طريقه الى أهله » .

فقال الامين : « ماذا تقولين ؟ ومن أطلق سراحه ؟ » .

قالت : « أطلقه الوزير جعفر » .

فقال : « وكيف ذلك ؟ يا لها جرأة لا تغتفر ! » .

قالت : « دعني أقص عليك ما رأيته رأي العين في غروب هذا النهار » .

فتطاول لسماع حديثها فقالت : « كان الوزير جالسا عصر اليوم في قصره ، والخدم والجواري لاهون بشؤونهم ، الا أنا فقد كنت حريصة على مراقبة الداخل والخارج ، فرأيت يحيي بن عبد الله العلوي داخلا وليس معه أحد من الحاشية ، فعلمت أنه جاء مستخفيا فراقبته حتى دخل على الوزير وجلسا في غرفة خاصة وليس معهما ثالث ، فقلت لأمر ما هذه الخلوة ، ودرت من ناحية أخرى الى غرفة بينها وبين غرفتهما باب متقفل يمكن النظر من بعض ثقوبه الى ما فيها . فوقفت هناك فرأيت الوزير وقف ورحب بالعلوي وأجلسه الى جانبه وأمر الخادم الا يأذن لأحد . فلما استقر بهما المقام سأله الوزير عن حاله في الحبس فبكى وشكا الى أن قال : « اتق الله يا جعفر في أمري ، ولا يكن جدي محمد (صلعم) خصما لك ، فوالله ما أعرف اني أحدثت حدثا يوجب حبسي » . فلما فرغ العلوي من قوله حتى رأيت الوزير يلاطفه ويخفف عنه بكلام لم أفهمه ، ولكنني سمعت أخيرا قوله : « اذهب حيث شئت » .

فلما قالت الجارية ذلك بدت الدهشة في وجه الامين وقال : « فبحه الله على هذه الجرأة بل على هذه الخيانة ، كيف يطلق أسيرا أمر أبي باعتقاله ؟ . ثم ماذا فعل ؟ » .

قالت : « أبدى العلوي خشيته من أن يذهب فيؤخذ ويرد الى سجنه » .

فقال الفضل بن الربيع : « صدق والله .. » .

وقال ابن الهادي : « وكيف أطلقه اذن ؟ » .

قالت : « بعث معه رجالا من حاشيته ليوصلوه الى مأمنه ، وقد رأيته خارجا يثني على الوزير والوزير يشجعه ويطمئنه » .

فقال الامين : « اذن نجا العلوي ؟ » ٠
قالت : « نعم يا مولاي ، وقد حاولت أن أسرع اليك لساعتي لأنقل الخبر ، ولكني لم أستطع الخروج قبل الآن » ٠
فنظر الامين الى ابن الهادي كأنه يستطلع رأيه ، فأومأ اليه بأن يصرف الجارية ، فأشار اليها أن تمضي الى قيمة الجواري لتقوم بمكافأتها ، فنهضت وقبلت ثوب الامين وخرجت ٠
فلما خلا جعفر بالامين والفضل ، أخذ في تعظيم ما سمعوه ليغريهما بالبرامكة فقال : « ان الصبر على هذا التطاول ضعف ! » ٠ ولبث ينتظر ما يبدو من الامين فاذا به يضحك ويقهقه ٠ فاستغرب وقال : « ما الذي يضحك مولاي ؟ » ٠
قال : أضحك لما أتوقعه من دهشتك اذا سمعت ما قصه علي الفضل قبل مجيئك » ٠ والتفت الى الفضل كأنه يأمره بأن يتكلم ، فقال الفضل للامين : « أظن مولاي يعني خبر مولاتي العباسة » ٠ قال : « نعم » ٠
فازداد جعفر بن الهادي شوقا لسماع الخبر ، فأخذ الفضل يقص عليه ما جرى له فجر اليوم في دار الرقيق ، وما قصه عليه أبو العتاهية ، وما رآه وسمعه ٠ وجعفر مصغ وقد تولته الدهشة ٠ فما أن فرغ الفضل من حديثه حتى وقف وصاح : « يا للخيانة كيف تصبرون على ذلك ؟ ٠ لماذا لا تطلعون أمير المؤمنين على هذه الخيانة ؟ » ٠
فقال الفضل : « أما خبر العباسة فلا يجرؤ أحد على نقله الى الرشيد الا اذا جازف بحياته ، لما يكون من غضبه والعياذ بالله » ٠
فقال جعفر : « كيف نطلع على هذه الخيانة ونكتمها ؟ ان كتمانها خيانة أخرى » ٠
قال : « لا بد من الاحتيال في ابلاغه الامر كأن يأتي على لسان

مغنية بالاشارة أو التلميح أو التعريض . أمـا خبر فرار العلوي فيسهل نقلـه » .

وكان جعفر يعلم أن خبر العلوي وحده يكفي للفتك بجعفر ، وهذا ما يتمناه . فأخذ يحسن للفضل الاسراع في نقل هذا الخبر ، ثم قـال : « وأين ذهب الطفلان ابنا العباسة ؟ عسى الا يكون قد فاتكم ادراكهمـا وأخذهما والاحتفاظ بهما ، فان الخبر اذا لم يكن مؤيدا بوجودهما فيا لشقاء ناقله وقصر عمره ! » .

فقال الفضل : « اني حالما سمعت القصة أنفذت جماعة من رجالي وأبا العتاهية معهم للقبض على الغلامين ولم يرجعوا الي بالخبر بعـد . على اني لا أخاف أن يفوتهم أخذهما » .

وفيما هم في الحديث ، سمعوا وقع أقدام في الغرفة المحاذية ثـم قرع الباب قرعا تعود الامين سماعه من غلامه اذا جـاء لشأن خاص ، فنهض الفضل وفتح الباب ، فدخل الغلام صامتا ، ففهم الامـين أنه يريد الخلوة به ، وفهم جعفر والفضل ذلك أيضا ، فاستأذنـا في الانصراف ، فأذن لهما الامين ، وما خرجا حتى قال الغلام : « ان رجلا من الشاكريـة جاءنا الآن » . فعلم أنه رسول من أمه زبيدة لأنها أول من اتخـذ الشاكرية من الخدم ، يختلفون عـلى الدواب الى مختلف الجهـات برسائلها ، فقال : « وماذا يريد ؟ » .

قال : « ان مولاتنا السيدة زبيدة تدعـوك اليها غدا صباحا لأمـر ذي بـال » .

فقال : « قل له اني موافيها صباح غد ان شاء الله » .

وكان الليل قد أسدل نقابه فذهب الى فراشه .

- ١٠ -

زبيدة بنت جعفر

هي زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور ، ابنة عم الرشيد وزوجته ، وقد تزوجها سنة ١٦٥ هـ . وفضلها لنسبها الهاشمي على سائر نسائه ، لأنهن من أمهات الاولاد فكانت لها عنده المنزلة الاولى ، وكانت جميلة الصورة ، واسمها الاصلي « أمة العزيز » فسماها جدها المنصور زبيدة لبضاضتها ونضارتها . وكانت نافذة الكلمة عند الرشيد يأخذ برأيها ، ولها مآثر اسلامية لم يسبقها اليها أحد ، مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز ، فانها حفرتها ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع وسهل وجبل حتى أخرجتها مسافة اثني عشر ميلا الى مكة ، فبلغ ما أنفقته ألف ألف وسبعمائة ألف دينار ، فضلا عن المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور مما أنفقت الالوف فيه . وغير ما كانت تنفقه في مساعدة أهل الفاقة . وكان لها مائة جارية يحفظن القرآن ، وعلى كل منهن أن تقرأ ما تيسر منه كل يوم ، فكانت قراءتهن تسمع في قصرها كدوي النحل .

وهي كذلك أول من اتخذ الآنية من الذهب والفضة مكللة بالجوهر ، وأول من اتخذت الثياب من الوشي الرفيع حتى بلغ ثمن الثوب من الوشي الذي اتخذ لها خمسين ألف دينار ، واصطنعت القباب من الفضة والابنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير من الاحمر والاصفر والاخضر والازرق . كما أنها اتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر ، وأضاءت شمع العنبر على منائر من الذهب . وقد تشبه الناس بها في ذلك وغيره .

وكان لها قصر في بغداد على شاطيء دجلة الغربي يعرف باسمها كما يسمى « دار القرار » وهو الى جنوبي قصر الخلد ، وشرقي مدينة المنصور ، وحوله الحدائق والبساتين مما لم يكن له شبيه حينذاك .

وكانت زبيدة شديدة التعصب لبني هاشم ، وفي صدرها حزازات على البرامكة ، ولا سيما جعفر بن يحيي الوزير ، لأنه كان يحط من قدر ابنها الامين ويرفع من شأن أخيه المأمون مع ان أمه جارية . وآخر ما زاد في نقمتها عليه انه حمل الرشيد على أن يبايع للمأمون بولاية العهد مع ابنها الامين ، وكانت تحب أن تكون البيعة له وحده . هذا الى أن الرشيد لما سار سنة ١٨٦ هـ . الى الكعبة حاجا ومعه أبناؤه ووزراؤه وقواده وقضاته ، أراد أن يعهد الى الامين والمأمون هناك في ولاية العهد وشهد ذلك جعفر البرمكي ، فلما كتبوا بذلك كتابين وعلقوهما في الكعبة ، وحلف كل من الامين والمأمون على تنفيذ العهد ، هم الامين بالخروج من الكعبة بعدئذ ، فرده جعفر وقال له : « فان غدرت بأخيك خذلك الله ! » . وطلب منه أن يحلف على ذلك ثلاثا ، ففعل . فأسرتها زبيدة في نفسها ، وما برحت من ذلك الحين تترقب الفرص للايقاع بجعفر ، وصارت من أشد أعداء البرامكة نقمة عليهم ، لا تدخر وسعا في استطلاع أخبارهم لعلها تجد مقتلا تتمكن به منهم . وكانت عالمة بأمر جعفر والعباسة ولكنها تجهل خبر الطفلين ، ولو علمت ما سكتت عن كشف أمرهما لزوجها لانها لا تتهيبه لما تعلمه من منزلتها عنده .

فلما كان صباح ذلك اليوم وقامت الضوضاء عند دار الرقيق أطلع بعض جواسيسها على العباسة على خبر الطفلين فنقله اليها ، فرأت أن تنتهز أول فرصة لاطلاع الرشيد عليه ، ولكنها أحبت أن ترى رأي الامين في ذلك فأرسلت في طلبه كما تقدم .

وفي صباح اليوم التالي ، امتطى الامين جواده ، وسار الى « قصر زبيدة » وعليه السواد والقلنسوة والغلمان يسيرون في ركابه يتقدمهم فارس يحمل الحربة على عادتهم في المسير بين يدي ولي العهد في ذلك الحين . فسار الموكب محاذيا الشاطيء الشرقي حتى وصل الى الجسر الادنى فقطعه ، وسار بعده على الشاطيء الغربي حتى أطل على القصر ، والناس يقفون له في الطريق يحيونه ويدعون بطول بقائه ، ولا سيما العرب ومن يرى رأيهم في العصبية العربية ، فيرد تحيتهم مشرق الوجه بنضارة الشباب وعزة الملك .

وكانت زبيدة تنتظره وقد أعدت له كل أسباب الراحة والانس والترحاب لشدة تعلقها به نظرا الى أنه وحيدها وكل آمالها فيه ، فأمرت جواريها ففرشن طرقات الحديقة بالأزهار والرياحين ، وأعدت له مجلسا فاحت فيه رائحة الطيب من المسك والعنبر ، في غرفة من قصرها سقفها قبة مصنوعة من خشب الصندل مكسوة بالوشي والسمور وأنواع الحرير بألوانه الزاهية ، وقد أسدلوا من جوانب القبة على جدران المجلس ستائر من الديباج طرزوا عليها بالقصب أبياتا من الشعر أو حكما مأثورة وعلقوها في مواضعها بكلاليب من الذهب . وفي أرض الغرفة بساط واحد من السجاد الثمين عليه رسوم ملك من ملوك الفرس يصطاد السباع توهم الناظر لاتقان صنعها أنه يرى منظرا حقيقيا . وعلى حواشي البساط أبيات من الشعر مطرزة بالذهب . وفي وسطه صورة طاووس ألوانه منسوجة بالحرير وخيوط الذهب والفضة وعيناه من ياقوت .

وكان في قصر زبيدة غرف عديدة لكل غرفة فرش خاص بشكل خاص . وكان فرش هذه الغرفة من الطراز المعروف بالارمني ، اشارة الى أنه من صنع أرمينية ، وهو عشر قطع بمخادعها ومساندها

ومطارحهـا ، وبساطها كما وصفناه . فمثل هذا الفرش لا يقـوم بأقل من خمسمائة ألف دينـار ، غير البساط وغير ما يكسو القبـة والنوافذ والجدران من الستائر والنقوش ، وغـير ما في جوانبها مـن المنائـر المصنوعة من الذهب ، وقد غرس فيها شمع العنبر وهو من أثمن ما يكون ، ولم يستخدمه أحد قبلها الى ذلك العهـد .

★ ★ ★

وصل الامين الى الحديقة ، فاستقبله جمـاعة من الخدم الشاكرية أعانوه على الترجل عـن جواده ، ثم تحول صاحب الحربة ومشى بـين يديه بها حتى وصلا الى مفرش الازهـار وقد فاحت روائحها وامتزجت بروائح الاطيـاب . فتنحى صاحب الحربة ومشى الامين وحده حتـى وصل الى باب القصر فرأى أمـه واقفة هناك في انتظاره ، فلما دنا منها همت به فضمته الـى صدرها وقبلته قبلة المشتاقة . فقبل يدهـا . وكانت زبيدة مشرقة الوجه بيضاء ، عليها وقـار الهاشميين مع حلاوة وجمـال ، سوداء العينين كبيرتهما فيهما ذكاء وحـدة ، وقد استدار خداها وانبسطا من الترف والرغـد . وكان فمها صغيرا باسما يعلوه أنف فيه شمم ، وذقن قليل البروز ليس بينه وبين الترقوة غـور ولا ثنية ، واستدار عنقهـا واشتد بياضه وليس فيـه بروز .

وكانت ربعـة القامة أميل الى الطـول ، مع سمن قليـل ، فاذا أسرعت في مشيتها ارتج كتفاها ووركاهـا ارتجاج الدلال والرخاء . وقد تزملت برداء من الحرير أرجـواني اللون يستر كل أثوابها ، وتمنطقت بمنطقة مذهبة شدت طرفيها بعروة مرصعـة بالجوهر . وأرسلت شعرها ضفيرة واحـدة على كتفيها ، وعصبت حول رأسها عصابـة ليس عليها شيء من الجوهـر ، وكانت العصائب لا تزال حديثة العهـد لم يعرفها

نساء العامة بل كانت محصورة في دور الخلفاء والامراء شأن الأزياء الحديثة في كل عصر ، اذ تظهر بها أول الامر احدى الوجيهات فتقلدها أترابها ، ثم يشيع الزي الجديد بين العامة . والعصائب استنبطتها أخت الرشيد لتستر بها عيبا في جبينها فاصطنعتها مرصعة بالجوهر كما تقدم ، فاستحسن النساء ذلك فقلدنه . أما زبيدة فكانت لفرط اعجابها بمنزلتها عند الرشيد حسبا وجمالا وتعقلا تستنكف من أن تقلد سواها ، ولا سيما علية . فاتخذت عصابة بسيطة لا جوهر عليها ترفعا عن التقليد ، ولم تضع في عنقها عقدا ولا في أصابعها خاتما ولا في معصمها سوارا تنزها عما يستطيع سواها تقليدها به . فلم يتمالك الامين عند مشاهدة تلك العصابة عن الابتسام وقال : « أراك تقلدين عمتي علية ، ان هذه العصائب جميلة يا أماه ، لكني لا أرى على عصابتك شيئا من الجوهر » .

فابتسمت وأشارت بسبابتها الى قدميها فنظر الى قدميها فاذا هي قد رصعت خفيها بالجوهر ، فأعجب بترفعها وبذخها ، وهي أول من لبس الخفاف المرصعة .

وكان الامين يمشي بجانب أمه لا يدري الى أين تسير به ، فقطعت الممر حتى بلغت الى درجات صعدت عليها وهو يتبعها ، حتى وصلا من ممر آخر الى القاعة التي ذكرناها . فلم يبهره ما هنالك من الفراش الثمين ولكنه استغرب لما أطل على القاعة فازدادت رائحة المسك ، ورأى عند مدخلها صفين من الجواري الحسان على رؤوسهن العمائم ، وقد سوين شعورهن بأشكال الطرر والاصداغ والأقفية ، ولبسن الأقبية والقراطق والمناطق من الذهب والفضة ، فبانت قدودهن وبرزت صدورهن على شكل غريب ، وفي أيدي بعضهن جامات المسك ، وفي أيدي بعضهن قوارير الطيب ، فلم يملك الامين نفسه عند هذا

المنظر عن ابداء الدهشة والاعجــاب ، وأمــه تمسك نفسها عن الضحك ، فالتفت اليها فضحكت فقال : « ما هــذه الملابس يا أمــاه ؟ أراك قــد جعلت الجــواري غلمانا ؟ » •

فقالت : « فعلت ذلك تشبهــا بك يا بني • رأيتك اتخذت الغلمان وبالغت في تزيينهم كأنهــم من الجواري الحسان ، فاتخذت هؤلاء الجواري أقــلد بهن الغلمان كمــا ترى وقــد سميتهن الجــواري المقدودات ، وسأبعث بهن هديــة اليك » •

فسر الامين وشكر • وكانا قــد وصلا الى مجلس معد لهمــا على سرير من الآبنوس في صدر القاعــة محلى بالذهب • فجلست زبيــدة فوقه على وسادة من الحرير المزركش محشوة بريش النعــام ، وأجلست الامين الى جانبها وهي تنظر اليه • ثــم أشارت الى من كان هناك مــن الجواري والغلمان فانصرفــوا •

فلما خلــت اليه تغير وجههــا من الابتسام والانس الى الهيبــه والجلال ، وبدت في عينيها السوداوين اللامعتين مــلامح الذكاء وحــدة الذهن والجد ، ثم قالت : « كيف قضيت نهارك أمس يا محمــد ؟ » •

قال : « قضيته كمــا تحبين يا سيدتي في أمن وطرب » •

قالت : « وفي الليل • لمــاذا كنت مستترا في حلوة ؟ » •

قال : « ومــن قال لك ذلــك ؟ » •

قالت : « أخبرني بــه الشاكري الذي بعثتــه اليك ففيم كانــت هــذه الخلــوة ؟ » •

قال : « هــي خلوة يحلو لك سماع خبرها ، وقد كنت عازما على المجيء اليك لأطلعك على سر يسرك علمه ولكن فيم بعثت الي ؟ » •

وكانت متكئةعلى كتفه ويدهــا على خده تلاعب بأنــاملها شعرات في عذاره وتنظر اليه نظــر الحنو والانعطاف • فلما قال لها ذلك ابتسمت

وقالت : « عندي أنا أيضا ما يهمك الاطلاع عليه ، وأرجو أن تتخلص به من ذلك الفارسي » .

فعلم أنها تشير الى جعفر البرمكي فدهش وقال : « وخبري أيضا يتعلق به قبحه الله . هل تعنين خبره مع العلوي ، أم مع عمتي العباسة ؟ » .

فأجفلت زبيدة وتصاعد الدم الى وجنتيها وظهرت الدهشة في عينيها وقالت : « هل علمت بخبر العباسة أيضا ؟ » .

قال : « نعم علمت به وكدت أحترق غيظا ، ولكني لا أرانا نستطيع أن ننتفع به عاجلا . أما خبر العلوي فأقرب استثمارا » .

فقالت :« وأي علوي تعني ؟ وما خبره اني لم أسمع بشيء من هذا القبيل » .

فاعتدل في مجلسه وقص عليها ما سمعه مساء الامس من الجارية حتى أتى على آخره ، وكانت تنظر اليه وعيناها تبرقان استغرابا ودهشة . فلما فرغ من حديثه تنهدت وقالت : « ذلك جزاء من يستهين بسلطان فوضه الله اليه . ان أباك على تعقله وحزمه قد استسلم لهذا الفارسي حتى أصبحت الخلافة له ولم يبق لأبيك الا اسمها . ولكن سوف يلقي الباغي عاقبة بغيه » .

فقال : « لا أنكر على أبي اطلاق يد هذا الوزير في أمور الدولة ، فهذا لا بد منه ، لأن الخليفة لا يستطيع أن يتولى كل الشؤون بنفسه ! » .

فقالت والجد في عينيها : « قد يكون اطلاق يده في الأحكام مما يجوز ، ولكن ما عذره في ادخاله محرما على حرمه ، ان جدك المهدي استخدم البرامكة ووثق بهم ولكنه لم يبلغ هذا الحد من اطلاق أيديهم ،

وعمك الهادي لم يفعل شيئا من ذلك ، ولا اظن احدا يفعل ما فعلـــه ابوك !» • قالت ذلك وقد بان الغضب في وجهها فزادها هيبة •

فقال الامين : «وماذا تعنين يا أماه بدخوله الحرم ؟»

قالت : «أعني ان أباك حفظه الله أمر بأن يباح لجعفر دخول دور النساء في السفر والحضر ، وأبرز اليه جواريه وأخواته وبناته ، لزعمه ان بينهما زضاعا يخلل ذلك ، فهو يدخل قصور نساء الخليفة وبناتـــه وأخواته بلا حرج • فلا عجب اذا ظهر ما ظهر من جرأته» • وتنهـــدت وأخذ الغضب منها مأخذا عظيما • وكان في يدها جام فيه مسك تتشاغل بتفتيته اثناء الحديث، فلما غلب عليها الغضب ارتعشت اناملها فوقع الجام من يدها وانتثر فتات المسك على البساط ، فهم الامين بالتقاطه وهو يقول: «وهل بلغ من اطلاق يده في دور النساء ان يدخل قصرك ويراك ؟» • وبانت الغيرة في وجهه •

فصاحت : «كلا •• وهل يجرؤ هذا المولي على ان يرفع بصره الي ؟ انه لم يطأ ارض قصري هذا ولا كلفته بحاجة يقضيها لي ، ولن أكلفه !»

وكان الامين قد فرغ من التقاط المسك فأعاده الى الجام ودفعه الـــى أمه وهو يقول : «وما هو الرأي الان ؟• ان هذا الرجل لا ينبغي ان يترك وشأنه ، والا ذهب الامر من أيدينا واكتسبنا العار الذي لا يمحى» •

فقطعت كلامه وقالت : «ان اكثر اللوم في امر عمتك يقع على ابيك، لانه اباح لوزيره الدخول الى قصرها ومخاطبتها وقضاء حوائجها ، وهو شاب حسن الخلقة نظيف الثوب طيب الرائحة ، وهي لم تر رجلا غيره• ذلك جزاء من جمع بين النار والحطب • على ان هذا لا يبرئه مـــن الخيانة !» • وعادت الى التشاغل بفتات المسك وهي تنظـــر الى البساط تتفرس في الطاووس المنقوش في وسطه • والامين صابر وقد انقبضت نفسه وضاق صدره ، لانه لم يصل الى الغرض المطلوب ولا جرؤ ان

يفاتحها في امر قتله او الوشاية به . فلما ضاق ذرعا أطرق وبانت الحيرة في وجهه . ولحظت أمه ذلك فيه فأسرعت الى تطييب خاطره فقالت : «أظنك تريد ان تعرف رأيي في هذا الرجل ؟»

فقال : «نعم يا أماه لقد ضاق صدري» .

فقالت : «هل ترى ان نبلغ أباك خبر اخته العباسة ؟»

قال : «لا ادري . كل ما اطلب ان يقتل هذا الرجل والسلام» .

فضحكت وأدارت ذراعها حول عنقه وقبلته ودموع الحنان تكاد تتناثر من عينيها لولا عظم الامر الذي ادخلت نفسها فيه ، وقالت : «قد كنت عازمة على ان أطلعه على خبر أخته ولكن مفاجأة الرشيد بذلك لا تخلو من الخفر ، فلنكتف الان بخبر العلوي» . ثم خفضت صوتها ومدت يدها الى جيبها فأخرجت بطاقة دفعتها اليه وتقول : «لا تظنني غافلة عن الانتقام لك من هذا المولى . اني لا انسى تشديده عليك بالحلف على تنفيذ كتاب العهد في العام الماضي ، فقد بلغ من قحته وسوء ادبه ان يستهين بك أمامي . وقد اعددت ابياتا من الشعر بمعنى ما نحن فيه ، على ان أوصلها الى ابيك سرا من حيث لا يعلم ، فنكون قد أبلغناه الخطر الذي يهدد الدولة من هذا الرجل ، فاذا لم يستيقظ الرشيد عمدنا الى ما هو أبلغ» .

فتناول الامين البطاقة وقرأها فاذا فيها :

قل لأمين الله في ارضه	ومن اليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا	مثلك ما بينكما حد
وقد بنى الدار التي ما بنى	الفرس لها مثلا ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها	وتربها العنبر والند
ونحن نخشى انه وارث	ملكك ان غيبك اللحد
ولن يباهي العبد أربابه	الا اذا ما بطر العبد

فلما فرغ من قراءتها ارتاح اليها وقال : «أظنها تقتله ، ولكن كيف توصلينها الى ابي ؟»

قالت : «سأكلف احد جواسيسنا بأن يلقيها عند مصلى ابيك ، فاذا رآها قرأها . وأظنها تفي بالغرض المطلوب ، والا فالدواء الناجـــــم عندي» . ثم سكتت ووقفت ، فوقف الامين وقد علم انها تنوي الخروج من تلك القاعة ، فمشيا معا فقالت : «أظنك جائعا ، فهلم بنا الى غرفة الطعام » .

قال : «صدقت فاني جائع . وهل اعود بعد الطعام الى قصري ؟»

قالت : «اني مشتاقة اليك يا محمد فدعنا نقض هذا اليوم معا» .

- ١١ -

في مجلس الرشيد

تركنا اسماعيل بن يحيى بعد ان فارق جعفر بن الهادي وهو عازم على زيارة الرشيد ليكلمه في خطبة ابن الهادي للعالية . فلما اصبح لبس سواده وقلنسوته وركب الى قصر الخلد ، وأخذ في طريقه اليه يفكـر ويهيىء الاسلوب الذي يتطرق به الى ذكر امر ابن عمه فقد كان يعلم شدة الرشيد اذا غضب ، فقد يسبق الى ذهنه اساءة الظن به فتعـــود العائدة وبالا عليه . فما أطل على القصر حتى رأى الناس يهرعوذ مـن الاسواق نحو الطريق الاعظم المؤدي من القصر الى الجسر ، فأمر احد الغلامين السائرين في ركابه ان يستفهم سبب هذا الهرج فعاد يقول : «ان

امير المؤمنين ذاهب الى الشماسية لمشاهدة حلبة السباق» • فتشاءم اسماعيل وأيقن بفشل مهمته لإنه لم يوفق في عزمه في الصباح ولا هو يستطيع ان يرى الرشيد في المساء لان الشماسية في الجانب الشرقي من بغداد والحلبة تستغرق كل النهار • فترجل وتنحى جانبا بحيث يرى موكب الخليفة ولا يعلم به احد • فرأى الناس يدفع بعضهم بعضا كأنهم يساقون سوقا • ثم رأى خدما صغارا يركضون وفي أيديهم قسي البندق يرمون بها العامة في الطريق • وهم فرقة من الخدم يسمونهم النمل ، ومن ورائهم رجال مشاة عليهم شارة الدولة وفي أيدي بعضهم السيوف المرهفة ؛ وفي أيدي الآخرين الاعمدة ، ووراءهم رجال في ايديهم القسي الموتورة يمشون بوقار وسكون • وجاء الخليفة بعدهم على جواد مخصوب بالحناء عليه سرج مذهب مغطى بالديباج المخوص بالذهب ، وعلى رأس الرشيد قلنسوة مسرفة في الطول ليس حولها عمامة • لان الخلفاء اذا لبسوا القلانس مكشوفة زادوا في طولها وحدة رؤوسها حتى تكون فوق قلانس غيرهم •

وكان الرشيد في الحادية والاربعين من عمره ، وقد اشرق وجهه بياضا وأبرقت عيناه الكبيرتان ذكاء ولحيته خفيفة كستنائية ، وشارباه مستطيلان دقيقان ، وفي فمه ابتسامة ، وفي يده اليمنى قضيب من الأبنوس طرفه من الذهب • وكان الجواد يمشي الهوينى يتبختر كأنه عالم بمن يعلوه ، ووراء الخليفة صاحب المظلة يحمل مظلة من ريش النعام مجنبة على عصاها لتظلل الخليفة من الشمس • ووراءهما فرسان من الخاصة والقواد وكبار الكتاب ، الا جعفر الوزير فانه لم يكن معهم• ويلي ذلك أفراس الحلبة عليها سروج خفيفة وسياس يقودونها بالارسان، وبينها فرس عليه رئيس السياس وهو تركي ذو مهارة في تربية الخيل • وأخيرا فرقة اخرى من الخدم الصغار يردون الناس عن الموكب من

الوراء .

وظل اسماعيل واقفا ينظر الى ذلك الموكب نظر الفيلسوف المعتبر ، يعجب لغرور الانسان واشتغاله بالظواهر المبهرجة عن الحقائق الدامغة . ونظر فيمن يحفون بالرشيد من الخاصة والقواد والهاشميين ، وهو يعلم ما في نفوسهم ، وان منهم لمن يكره الرشيد حتى يتمنى لـه الموت ، ومنهم من يحبه ويتفانى في خدمته ، والمرجع في هذا الى حب الذات. ثم فكر في نفسه وفيما هو قادم فيه ، فتحركت فيه الغيرة على الدولـة والرغبة في سلامتها ، وأسف لفشل مهمته فعاد الى منزله على ان يعود في صباح الغد .

وفي الصباح التالي ركب وغلاماه في ركابه وعليه السواد والقلنسوة حتى أقبل على قصر الخلد وللقصر اربعة أسوار متتالية لا يستطـاع الوصول الى مجلس الخليفة الا بعد المرور بباب كل منها وعنده حرس من الشاكرية وقفوا بسلاحهم . فاجتاز الباب الاول راكبا ، فوقـف الحرس اكراما له ولم يعترضوه لعلمهم انه من كبار بني هاشم فضلا عن منزلته عند الرشيد . ودخل الباب الثاني فالثالث والحرس يقومون له ويحيونه ، حتى اذا وصل الى الباب الرابع اخـذ الفرس احد الغلامين ومشى اسماعيل في طريق واسع يؤدي الى دار العامة ، وغلمان القصر يسيرون بين يديه ، وظل يمشي الهوينى حتى أقبل على الدار التي يجلس فيها الخليفة للعامة ، وبجانبها غرف رأى فيها الشعراء والادباء والندماء ينتظرون ريثما يؤذن لهم او يطلب الرشيد احدهم . ورآهم في جلبـة وضوضاء وليس في المكان احد من الحرس ، فعلم ان الرشيـد ليس هناك ، واستغرب ذلك وأحب ان يستفهم فاذا بمسرور خادم الرشيـد يعدو نحوه مسرعا وسيفه يضرب فخذه لشدة سرعته . فلما رآه اسماعيل لم ينشرح صدره له لعلمه بفظاظته وقسوته ، وهو فرغانـي الاصل .

فأكب مسرور على يد اسماعيل ليقبلها فجذبها منه وسأله عن امير المؤمنين فقال : «هو في دار الخاصة يا مولاي» .

قال : «وكيف ذلك واليوم يوم جلوسه للعامة» .

فقال : «لقد كان عازما اليها ، فجاءه وفد من ملك الهند فأحب ان يجلس لهم في دار الخاصة لان ذلك اقرب للرهبة والعظمة» .

فمشى اسماعيل نحو تلك الدار ، فرأى في طريقه اليها صفين من جند الخليفة الاتراك وقفوا بنظام وقد لبسوا الجديد حتى لا يرى منهم غير الحدق ، فقال لمسرور : «ما شأن هؤلاء ، وفيم وقوفهم بالحديد كأنهم في ساحة الحرب ؟»

فقال : «لما علم امير المؤمنين بقدوم وفد ملك الهند احب ان يوقع الرعب في قلوبهم ليبلغوا ملكهم ما شاهدوه من قوة الاسلام ، فأمر بعرض هؤلاء كما ترى» .

فارتاحت نفس اسماعيل لما رآه من رغبة الرشيد في أبهة الدولة ، ولكنه خامره ما يخافه عليها من الدسائس فانقبض صدره فمشى بين الصفين الى الدار حتى دنا من بابها ، وكان مرتفعا يصعد اليه على درجات عريضة من الرخام الابيض يتخللها قطع من البلاط الاخضر ، والحراس وقوف الى الجانبين وفي أيديهم السيوف . فدخل مسرور امامه ليخبر صاحب الاذن (الحاجب) بقدومه ليستأذن له في الدخول .

فصعد اسماعيل في اثره يتباطأ في مشيته ريثما يؤذن له ، فما لبث ان جاء الآذن يدعوه للدخول ، فمشى في دهليز عريض مبلط ببلاط احمر مشدود بعضه الى بعض بقضبان الذهب ، والآذن يسير بين يديه ، فرأى في آخر الدهليز ثلاثة كلاب هائلة المنظر كبيرة الابدان كأنها اسود ، وقد اوثقت من أعناقها بسلاسل الحديد وأمسك السلاسل ثلاثةرجال مكشوفو الرؤوس ، ضخام الابدان ، عرف من قيافتهم وألوانهم انهم من اهل

الهند ، فهاب توقد أبصارها وكبر أبدانها . ثم جاز عدة مقاصير وأروقة ودهاليز والخدم يقفون له حتى انتهى الى دار قوراء مفروشة بالبسط الثمينة فوقها جلود النمور والسباع وفي جوانبها قضب المناور عليها الشموع الملونة . فوقف اسماعيل وأخذ يقرأ ما نقش على الجدران من أبيات الشعر او الحكم منتظرا لعله يحتاج الى اذن ثان على جاري العادة في الداخلين على الخليفة ، فاذا بالآذن عاد يشير اليه ان يتقدم لان مثله لا يحتاج الى اذن ثان .

فتقدم الى باب عليه ستر من الديباج المخوص بالذهب ، أماله الآذن بيساره وأشار الى اسماعيل بيمينه ان يدخل ، فدخل الى ايوان كبير طوله ثلاثون ذراعا في ثلاثين ، قائم على اساطين من الرخام ، وعلى جدرانه صور مما في البر والبحر ممثلة بالذهب يتخللها أبيات من الشعر وحكم مكتوبة بماء الذهب . وفي ارضه بساط من الديباج الاصفر قلد به صانعه لقطيف بساط كسرى . وعليه نقوش بألوان زاهية بينها خيوط القصب تمثل اشجارا وأنهارا وطيورا وأسماكا توهم الناظر انه في حديقة يانعة الاغراس جرت فيها الجداول وتغنت فيها الاطيار . وعلى حواشي البساط وشي جميل . وسقف الايوان قبة عظيمة الاتساع مبنية على ثلاثة عقود كل عقد قائم على خمسة اساطين وعلى سقف القبة نقوش وكتابة . وفي وسط الايوان ستر من الحرير الصيني يعترض الحائطين ويحجب الخليفة عمن يجالسه على عادتهم في مجالسة الخلفاء يومئذ الا من اختار الخليفة ان يرفع الستر بينه وبينه .

ورأى اسماعيل الكراسي المنصوبة خارج الستر لجلوس بني هاشم وليس عليها احد منهم . وكان الهاشميون يدعون في اصطلاح تلك الايام ابناء الملوك او الاشرف . وأما الوسائد المطروحة بين الكراسي لجلوس الخاصة من الامراء والقواد فرأى على بعضها أناسا من الهنود عليهم

القبعات المزركشة . وأثوابهم من نسيج الهند عليها صور ملونة تمثل بعض الحيوانات الكبرى ولاسيما الفيل . وفي أعناقهم عقود من الجوهر الثمين بينها تعاويذ من الذهب تمثل بعض أصنامهم . وقد جلسوا خاشعين متهيبين ينتظرون أمر الخليفة ، وبين أيديهم على البساط سيوف من صنع بلادهم يقال لها السيوف القلّمية . فعلم انهم الوفد القادم من ملك الهند وان اصحاب الكلاب في الدهليز من أتباعهم .

فتقدم صاحب الستارة الى اسماعيل ان يدخل اذا شاء او يجلس على كرسي من الكراسي ريثما يفرغ الرشيد من هؤلاء الهنود . وكان اسماعيل قد سمع لرشيد يتنحنح فعلم انه جالس هناك على سريره وراء الستار فآثر الجلوس حتى يفرغ الخليفة من الوافدين ، وهو يخاف ان يحولوا بينه وبين ما يريد من مخاطبته ثم سمع الرشيد يخاطبهم من وراء الستار على لسان الترجمان وهو صاحب الستار ، لانهم كانوا يختارون اصحاب الستار من العارفين باللغات لمثل هذا الغرض . فقال الرشيد لرئيس الوفد : «ما الذي اتيتمونا به ؟»

قالوا : «هذه سيوف قلعية لا نظير لها عندنا» .

فدعا الرشيد بالصمصامة ، وهي سيف عمرو بن معدي كرب ، وأمر بعض رجاله الاتراك فقطع بها تلك السيوف واحدا واحدا ثم أمر بعرض ذلك السيف عليهم فاذا هو لا فل فيه ، فسقط في أيديهم ونكسوا رؤوسهم . ثم قال : «وما عندكم غير هذا ؟»

قالوا : «اتينا بكلاب لا يلقاها سبع الا عقرته» .

فلما سمع اسماعيل قولهم زاد تهيبا من رؤيتها ، ثم سمع الرشيد يقول : «ان عندنا سبعا فان عقرته كلابكم فهي كما ذكرتم . اخرجوها الى السباع في أقفاصها ليخرج السبع عليها ونحن ننظر قتالها من الروشن» .

فخرج صاحب الستار ، وأشار الى الهنود فنهضوا ومشوا حتى

مروا بالكلاب في الدهليز فساقوها معهم ، وسار بعض الغلمان بهم الى خارج الدار ، وسبق احدهم الى السبّاع فأمره باخراج اسد عظيم فأخرجه وجاءوا به الى ساحة أطلق فيها الكلاب الهندية . ورأى اسماعيل الاسد يخطر ويزأر فما شك انه سيمزق الكلاب اربا اربا فاذا هي قد مزقته . ورأى الرشيد ذلك من الروشن فأرسل الى الوفد ان يعودوا الى الايوان كما كانوا ، فعادوا وعاد اسماعيل مشدوها مما رآه من الكلاب ، فلما عادوا قال الرشيد للوفد : «من اين لكم هذه الكلاب وما جنسها ؟»

قالوا : «هي كلاب سيورية تعيش في بلادنا لا شبيه لها في الارض».

فقال : «احب ان أحتفظ بها ، فتمنوا ما شئتم من طرائف بلدنا مقابلا لها» .

قالوا : «تتمنى السيف الذي قطعت به سيوفنا» .

قال لهم : «لا يجوز في ديننا ان نهاديكم بالسلاح ، ولولا ذلك ما بخلنا به عليكم فتمنوا غير ذلك ما شئتم» .

قالوا : «لا تتمنى سواه» .

قال : «لا سبيل اليه» . ثم أمر لهم بتحف كثيرة وأحسن جائزتهم . وانصرفوا وفي نفوسهم رهبة من هيبة الخلافة .



أما اسماعيل فما صدق ان فرغ الخليفة من الوفد حتى عاد الى التفكير فيما جاء من اجله ، وأحب التحدث اليه على انفراد قبل ان يأتي احد من بني هاشم او سواهم فيحول بينه وبين ما يريد فتذهب منه الفرصة . فلما ذهب الوفد عاد صاحب الستار ودعاه الى الدخول على

الرشيد اذ لا حجاب عليه وقال : «لما علم امير المؤمنين بقدومك أمرني ان أدخلك عليه» .

قال : «وأحب ألا تدخل علينا احدا حتى انتهي من كلامي معه» .

فوسع له ما بين شطري الستار فأطل اسماعيل على الرشيد فـــرآه جالسا الاربعاء على سرير من الذهب الابريز مرصع بالجواهر ، فـوق سدة في صدر المجلس منصوبة بين اسطوانتين من اساطين الايــوان مجلتين بالوشي المنسوج بالذهب ، وقد وقف عند كل منهما وصفاء في أيديهم المذاب او المناديل ، ووراء السدة من الجانبين شاكريان بيد كل منهما سيف مسلول . والسدة مظلة قائمة على عمد من الأبنوس المنزل فيه العاج ، سقفها من الديباج الاسود المزركش بالذهب برسوم جميلة. وفي حاشيته من لامام والجانبين اهلة من الذهب مدلاة ، في كل هلال منها اترجة ذهب مسبك ، يتدلى من كل اترجة درر كبار . بينها الياقوت الاحمر والاصفر والازرق على نظام بديع يبهر النظر . والرشيـد جالس على السرير في السدة تحت المظلة وعليه ثياب يلبسها عند استقبال قادم من الملوك ونوابهم اذا اراد ارهابهم بعز الاسلام وجلال الدولة وأبهـــة الخلافة . وقد لبسها في ذلك اليوم لاستقبال الوفد الهندي فكان على رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة سوداء من الخز الموشى ، وبين ثناياها عقود من الجوهر بشكل سبحات تملأ الاخلية بين تعاريج العمامة . وفي مقدمتها فوق الجبهة طرة من الذهب المرصع بالجوهر والياقوت والزمرد، يبرز منها كعرف الطاووس من أسلاك الذهب ، وقد نظمت بها لالـىء بينها ثلاث كبيض الحمام عند قاعدة العرف . وعليه جبة سوداء فوقهـا بردة النبي . فلا يسع المقبل على تلك السدة الا التهيب . اما اسماعيل فكان قد تعود ذلك ، وهو عاقل حكيم لا تأخذه المظاهر المبهرجة ، وكان مع ذلك في شاغل من اعمال الفكرة في حال الخلافة وما يخافه عليها من

التضعضع ، وهو يعلم شدة الرشيد وتسرعه اذا غضب .

فلما أطل من بين شطري الستر قال بأعلى صوته : «السلام على امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته» .

فتحرك الرشيد كأنه يتحفز للقيام اجلالا لاسماعيل ، وابتسم لـه وقال : «وعليك السلام يا عماه ، مرحبا بك» .

فدخل وأسرع في خطوه ليمنع الخليفة من لوقوف له . اما الرشيد فنهض عن مقعده قليلا ومد يده وصافح اسماعيل وقال : «لقد اتيت اهلا يا عماه ، أمثلك يستأذن في الدخول ؟» . ثم اوما الى الوصفاء فقدموا له كرسيا وضعوه بجانب السرير ، وأشار الرشيد اليه بالجلوس وهـو يبتسم ترحابا واستئناسا . فجلس وأثنى على ما لقيه من الرعايـة والحفاوة ، ودعا للرشيد ولبث ساكتا على عادة مجالس الخلفاء فانهم لا يبدأون الخليفة بكلام . فسر الرشيد من تأدبه مع علمه بكبر نفسه ودالته فقال : «لقد اتيتنا لخير ان شاء الله ، فانك منقطع عنا منذ ايام لا تأتينا الا لنصيحة او مهمة» .

قال : «اني يا امير المؤمنين اقيم بالبصرة وقلما آتي بغداد ، ولـو رأيت في دخولي على لخليفة نفعا لقضيت سحابة عمري بين يديه . وأما الان فقد اتيت ألتمس منه فضلا نضمه الى منته المتوالية ونعمه السابغة» .

قال : «قل طلبتك فانك صاحب الامر» .

فأكبر اسماعيل تلك المجاملة وحنى رأسه شكرا ويداه ملمومتان في حجره وقال : «ان الامر لمولاي جعله الله له وحده لا ينازعه فيه احد . وهو ينعم بما يشاء من فضله ، فاذا سمح لي مولاي بكلمة اقولها فاني أستأذنه في الخلوة» .

فأومأ الرشيد فخرج الوصفاء والشاكريان ، وأقبل هو بكليته على اسماعيل وقد ابرقت عيناه اهتماما ، لعلمه ان اسماعيل لا يطلب الخلوة الا

لأمر ذي بال .

فنظر اسماعيل الى الرشيد وقال : «أأتكلم ؟»

قال : «تكلم . اطلب ما تشاء» .

قال : «لا يخفى على مولاي ان جعفر ابن اخي الهادي من خيرة بني أعمامنا » .

فلما سمع الرشيد اسم جعفر استنكف مما قد يأتي بعد ذلك من اقتراحات لا يروق له تنفيذها ، ولكنه تلطف وقال : «نعم انه ابن اخي فهل هو في حاجة الى عطاء ؟»

قال : «كلا يا مولاي فان نعم امير المؤمنين تتوالى عليه كما تتوالى على سائر بني هاشم ، ولكنه يود الزيادة في شرفه» .

فأدرك الرشيد بفراسته ان اسماعيل انما جاء خاطبا فتجاهل وقال : «ان قرابة الرسول اعظم اسباب الشرف له ولنا» .

قال : «نعم هو كذلك ، ولكنه يحب التقرب من عمه امير المؤمنين وخليفة سيد المرسلين» .

فلم يبق عند الرشيد شك في انه جاء يخطب ابنته لجعفر ، فابتدره قائلا : «كل ما تقترحه نافذ يا عماه الا خطبة العالية !»

فاستغرب اسماعيل هذه المفاجأة وقال : «وأنا لم آت الا في طلبها ، فاذا كان ذلك ممتنعا فالامر لامير المؤمنين ، ونحن مطيعون لارادته ندعو بطول بقائه . على ان ما خولنيه من الدالة يجرئني على سؤال ارجو ألا يثقل علي مولاي» .

قال : «قل فان لك رعاية وحقا» .

قال : «لعل امير المؤمنين لا يرى ابن اخيه كفؤا لمولاتنا العالية ؟. فمن أكفأ لها من ابن عمها اخي ابيها حفيد الملك النبيل والشيخ الجليل». يريد المنصور .

فقال الرشيد وهو يعبث بقضيب الخلافة بين انامله : «أما الكفاءة فلا ينازعه احد فيها . ولكن سبق السيف العذل ، فان العالية مخطوبة !»

فاستبعد اسماعيل ان تخطب بنت الخليفة ولا يعلم هو بخطبتها ، وظن الرشيد يقول ذلك ليدفع طلبه فقال : «العالية مخطوبة ؟» اني لم أعلم ذلك ولو علمته ما اقدمت على طلبها ولم اكن اظن احدا ينال ذلك غير ابن عمها» .

فتحرك الرشيد في مجلسه ونظر الى البساط امامه وقال وهو يحاول اخفاء ما كاد يظهر في وجهه من الانفعال : «نعم ، ولكن وزيرنا جعفر طلبها لابراهيم بن عبد الملك بن صالح ابن عمنا فلم نرد طلبه» .

فلما سمع اسماعيل قوله أطرق وقد عظم عليه فشله . وكان غضبه من نفوذ جعفر الى هذا الحد اعظم عليه من فشله . على انه كبت شعوره مخافة ان يظهر فيغضب الرشيد عليه ، وظل مطرقا والرشيد ينظر اليه ويراقب ما يبدو منه ويود الاكتفاء فلما طال سكوت اسماعيل قال الرشيد : «انه ليسوءني ان أرد طلبك ، ولكنك تعلم ان الرجوع في ذلك لا يليق ، فاطلب لابن اخينا منه اخرى» .

فرفع اسماعيل بصره واغتنم فرصة رغبة الرشيد في تعويضه عن فشله وقال : «صدق مولاي ان الرجوع عن الوعد لا يليق بمقامه ، وأنا أعلم ذلك لثقل ما أقاسيه من رجوعي بخفي حنين بعد ان وعدت ابن اخيه بهذا الشرف . وقد تسرعت بوعدي ولكنني لم أفعل ذلك الا رغبة في صيانة الدولة لما يعلمه مولاي من غيرتي على سلامتها» .

فأدرك الرشيد ما يلمح اليه من الرغبة في ارضاء ابن اخيه الهادي ليشغله عن طلب الخلافة او الوقوف في سبيلها . وقد تعود الرشيد ان يسمع من اسماعيل ما هو اكثر صراحة من ذلك مما لا يجرؤ سواه على عشر معشاره ، ومع ذلك فان هذا التلميح أثار غضبه لانه لم يكن هناك

شيء يثيره مثل ما يشتم منه رائحة التعرض للملك ولو تلميحا • ولكنه كظم وتجاهل وقال : «انك معروف بغيرتك على دولتنا ، وهي انما تتأيد بآراء أمثالك من شيوخ الحكمة وأرباب الرأي السديد • وهم قليلون • وأما ابن اخي فانه من لحمي ودمي وأحب له ما يرضيه ، فهل من شيء تطلبه له غير العالية ؟»

قال : «اطال الله بقاء امير المؤمنين فاني اراه يبالغ في مجاملتي ويسرني انه عالم بالغاية التي ارمي اليها • فأتقدم اليه ان يتولى ابن اخيه عملا يشغل به • فأطلب له ولاية مصر او خراسان» •

فوجم الرشيد ، وبدت الدهشة في عينيه وهز رأسه استغرابا وقال : «وهذا ايضا لا سبيل اليه يا عماه فاني وعدت وزيري صباح الامس بولاية مصر لابراهيم ، وأما خراسان فقد وعدته بها هو منذ ايام ، وقد كتمت ذلك ولم أخبر احدا به ، ولولا انك اسماعيل ما بحت به لك» •

فضاق اسماعيل ذرعا من توالي فشله ، وعاد الى الاطراق واعمال الفكرة ، ولم ير بدا من التصريح بغرضه من تلك الاقتراحات فعاد الى ما فطر عليه من حرية القول ونسي موقفه وما يعلمه من سوء العقبى اذا غضب الرشيد فقال : «يأذن لي امير المؤمنين في ان ابوح له بما في ضميري فأخاطبه على انه هرون بن محمد وأنا ابن عمه اسماعيل بن يحيى» • وتنحنح واعتدل في قعوده والرشيد يتجلد لسماع كلامه ويحدق فيه بعينيه •

فقال : «انك تعلم شدة غيرتي على سلامة هذه الدولة وشدة رغبتي في بقاء هذا الخاتم بيد هرون وهذه البردة على كتفيه ، وتعلم ايضا ما قد يجول في خاطر ابن اخيك • وأنا اعلم قصر باعه عن نيله ولكن حسن السياسة تقتضينا ملافاة اسباب الفتن لئلا يرى اعداؤنا غرة منا فيقتالونا وهم كثيرون ، ومنهم الروم في القسطنطينية والامويون في

الاندلس . وأنا أعتقد عجزهم عن الفوز ولكن الحكمة تستدعـــي التكاتف وجمع الكلمة ، وهذا يسير على الرشيد اذا استخدم ذكـــاءه ودهاءه فيشغل اهل المطامع من اهله بخدمة دولته بدلا من ان يتفرغـوا لاقلاق راحته» .

فبادر الرشيد الى قطع كلامه خوفا من ان يسترســـل في الحديث ويصرح بأكثر من ذلك ، فلا يقوى على كبت شعوره فقال : «قد كان بودنا ان نولي ابن اخينا مصر لولا ما سبق من الوعد بها لابراهيم ، فهل ترى لي حيلة في الامر ؟»

فأسرع اسماعيل بالجواب قائلا وقد غلبت عليه الانفة والاستقـلال بالرأي : «لي حيلة واحدة» .

قال : «وما هي ؟»

قال وكفاه على ركبتيه كأنه يتحفز للقيام : «تبايع له بالخلافة بعـــد محمد وعبد الله (الامين والمأمون) ــ افعل ذلك مجاملة وترضية له» .

فلما سمع الرشيد قوله القى القضيب من يده على السرير ، ونهض فجأة ونزل الى البساط بسرعة حتى انحرفت البردة عـن كتفيه فكادت تسقط وقد نسي موقفه ومنزلة اسماعيل عنده ، ثم أصلح البردة وجعل يخطر في الايوان . فنهض اسماعيل وأدرك ان بقاءه هناك اصبح خطرا ولا فائدة منه ، وأجل التصريح بما في نفسه لفرصة اخرى . فتراجع في موقفه ، وقد رأى في نهوض الخليفة مسوغا لخروجه من حضرته لان ذلك من علامات الصرف عند الخلفاء ، ولكنه لم يشأ الخروج على تلـــك الصورة لئلا يسيء الرشيد الظن به فقال : «اظن امير المؤمنين ندم على ما اباحه من اطلاق لساني بين يديه ، وأظنني تطاولت في الدالة عليه الى ابعد مما ينبغي فدخلت فيما لا يعنيني ؟»

وكان الرشيد قد وقف وتشاغل بقراءة بيتين من الشعر منقوشين على

حائط الايوان ، فلما سمع قوله تحول اليه وتكلف ابتسامة لم تخف غضبه وقال : «ان اسماعيل عندنا في المقام الذي تعلم ، وله فضل النصح والمشورة ، فلا يزعجك ما رأيته من وقوفي فجأة . واذا غضبت فان غضبي لك لا منك ، وكيف اغضب من شيخ بني هاشم وحكيم بني العباس ؟. ولكن ساءني انك لم تطلب امرا استطيع ان اجيب سؤالك فيه على رغبتي في اكرامك !»

فأدرك اسماعيل من خلال كلامه ما كان يحاول اخفاءه من الغضب وتكلفه من التلطف في الجواب فقال : «أشكر لمولاي تفضله وحسن قصده ، والظاهر ان سوء طالع الرجل قد اوجب هذا الاتفاق . اذ لكل وقت طالع وكأن طالع هذه الساعة لا يوافق حظه . فهل يأذن مولاي لي في الانصراف ؟ وتؤجل الامر الى ساعة ابرك من هذه ؟»

فسر الرشيد وقال : «لا بأس من انصرافك يا عماه» .

فرجع اسماعيل يمشي القهقرى بين يدي الرشيد ، على العادة في الخروج من مجالس الخلفاء ، حتى وصل الى الستار ، فخرج والرشيد واقف ينظر اليه وقد قام في نفسه من الغضب ما اقلقه وحبب اليه الخلوة بنفسه .

خرج اسماعيل فركب لساعته جواده وقد ندم على مجيئه ، ومشى الغلامان في ركابه وهما غافلان عما يتقد في قلبه من الغضب وما يتردد في ذهنه من الاسف على حال تلك الدولة لما يعلمه من تضارب الاحزاب واختلاف الاغراض . فوصل الى قصره والشمس قد تكبدت السماء ، فوجد ابن الهادي في انتظاره ، فاستفهمه عما جرى ، فقص عليه بعض الخبر وأبلغه عذر الرشيد من امتناعه عن تزويجه بالعالية ، وبالغ في الاعتذار عنه لئلا يهيج غضبه . ولم يخبره بطلب ولاية مصر ولا ولاية العهد الى ان قال : «واني آسف لما نابني من الفشل والرشيد أشد اسفا

مني على ذلك ، ولكن لا حيلة لنا في الواقع فاصبر وكن عاقلا وسنغتنم فرصة ابرك من هذه ، فان الرشيد حسن الظن بك» .

فلم يخف على جعفر غرض اسماعيل من تلطيف الخبر ، ولكنه جاراه وقال : «اني صادع بأمرك . ولكن هل تعلم السبب الذي بعث على خطبة العالية لابراهيم ؟»

قال : «كلا .. ولكن للوزير دالة على الخليفة ، ولعبد الملك دالة على الوزير ، فلعله تقدم اليه ان يتوسط في خطبة العالية له ، فأجاب الرشيد طلبه» .

قال : «لو كان الامر كذلك لهان ، ولكنني أقص عليك السبب فتتحقق ما قلته لك من استخفاف هؤلاء الموالي بالخليفة وأهله . اخبرني جاسوس لي عند جعفر صباح اليوم بأن هذا الوزير كان في مجلس أنس خلا فيه بندمائه فلبس الحرير وتضمخ بالخلوق وكذلك فعل سائر جلاسه، وأمر حاجبه ان يحجب عنه كل احد الا عبد الملك بن بحران قهرمانه . فسمع الحاجب لفظ عبد الملك ولم يسمع لفظ ابن بحران . وكان ابن عمنا عبد الملك بن صالح يرقب فرصة يخاطب بها الوزير في بعض حوائجه فلما سمع بذلك المجلس قدم الى داره ، فجاء الحاجب وقال لجعفر ان عبد الملك بالباب ، فظنه ابن بحران فأمر بادخاله ، فدخل وهو في سواده وقلنسوته فرأى القوم في لباس المنادمة . ولما رآه جعفر اربدّ وجهه وأنت تعلم ان عبد الملك لا يشرب النبيذ ، فلما رأى تلك الحال خلع السواد والقلنسوة وطلب ثياب المنادمة ودخل وسلم وقال: (أشركونا في امركم وافعلوا بنا مثل فعلكم بأنفسكم) . فجاء الخادم وألبسه ثياب المنادمة ، ثم أكل معهم وأتوه برطل نبيذ فشربه وقال لجعفر : (والله ما شربته قبل اليوم) . فزاده جعفر من النبيذ ، وأتوه بالخلوق فتضمخ ، ونادم القوم احسن منادمة . فذهب عن جعفر خجله . فلما اراد عبد الملك

الانصراف قال له جعفر : (أذكر حوائجك فاني لا استطيع مقابلة ما كان منك) . فقال : (ان في قلب امير المؤمنين موجدة علي ، فتخرجها من قلبه وتعيد الي جميل رأيه فيّ) . فقال : (قد رضي عنك امير المؤمنين وزال ما عنده منك) . فقال : (وعلي اربعة آلاف درهم دَينا) . قال : (تقضي عنك وانها لحاضرة ،ولكن كونها من امير المؤمنين اشرف بك وأدل على حسن ما عنده لك) . قال : (وابراهيم ابني أحب ان أرفع قدره بصهر من ولد الخلافة) . قال : (قد زوجه امير المؤمنين العالية ابنته) . قال : (وأوثر التنبيه على موضعه برفع لواء على رأسه) . قال : (وقد ولاه امير المؤمنين مصر) . فانظر لى هذه الجرأة التي ليس أغرب منها الا رضاء الرشيد بها ، وقد فعل جعفر ذلك مكافأة على شرب النبيذ ، ونحن نلوم ابن عمنا الامين على صغر سنه على شربه ونعده خليعا ، وهذه هي الخلاعة ولا يخفى عليك اضرارها بالملك . ومع ذلك فان الرشيد أطاع جعفر ولم يهمه ما يترتب على ذلك من اضعاف الملك» .

وكان اسماعيل يسمع كلام ابن الهادي وهو يكاد يتميز غيظا ، ولكنه اختصر في الجواب وأظهر الاستخفاف بالقصة وقال : «هكذا أبلغك الجاسوس ، ولا يخلو كلامه من مغالاة ، ومهما يكن من شيء فاكتم ما دار بيننا واصبر لنرى ما يكون» .

فسكت جعفر عن احترام لا عن اقتناع فقال اسماعيل : « ذهب الى البصرة وأنا موافيك اليها بعد يومين» .

قال «سمعا وطاعة» . فودعه وأظهر انه يتأهب للسفر ، فاختفى يوما ثم اتى الى الفضل بن الربيع في منزله ، وكان الفضل لا يزال يفكر في أسلوب يبلغ به خبر العلوي الى الرشيد ، وقد عاد محمد الامين وأخبره بحديث أمه وما دار بينها وبينه عن خبر العلوي ، وما في نفسها على البرامكة . ولم يكن الفضل يجهل ذلك . فلما جاءه ابن الهادي رحب

به ، فأخبره بما سمعه من امر عبد الملك بن صالح وزواج العالية وما في ذلك من الدلالة على ضعف الخليفة واستبداد البرامكة ، وحرضه على ابلاغ خبر العلوي الى الرشيد .

فقال له الفضل : «قد أعددت كل شيء» .

قال : «وهل وقعت على من يذهب بالخبر ؟»

قال : «ليس لنا الا ابو العتاهية فانك تشتريه بالمال وله دالة على الخليفة » .

قال وقد تذكر امرا نسيه : «وهل عاد من اقتصاص اثر الطفلين ؟»

قال : «عاد وقد اخذهما وحبسهما في مكان امين لوقت الحاجة» .

فأبرقت أسرة جعفر وقال : «لقد قتل البرمكي والله . والآن انظر ما تفعل لابلاغ الخبر الى الرشيد ، فاني راحل عن بغداد وقد ألح علي عمي اسماعيل بذلك ، وأنت كفؤ لاتمام لعمل» .

قال : «كن مطمئنا» .

فودعه وذهب وهو يظن انه اغرى الفضل بالبرمكي واستخدمه في غرضه ، بينما الفضل يعتقد انه استخدم ابن الهادي لغرضه ، لانه اذا سقط البرامكة عادت الوزارة اليه ، ولم يخف عليه ما في نفس ابن الهادي على الرشيد وانه انما يسعى لارجاع الخلافة الى نفسه ، ولذلك كان يوهمه انه ساع في معاونته على نيل الخلافة ، وهو انما يعمل لاسترجاع الوزارة ولا يبالي أكانت وزارته للرشيد او لسواه . فكانت النيات مختلفة والدسائس متنوعة والمساعي متضاربة . ولكن الهدف متفق فيها كلها وهو اسقاط البرامكة بأية وسيلة كانت . واذا اراد الله امرا هيأ له اسبابه .

تركنا الرشيد في الايوان وحده ، وقد ساءه خروج اسماعيل على تلك الصورة مع رفعة مقامه وجلالة قدره فأخذ يفكر فيما دار بينهما

ويردد ما قاله له ، فلم يجد في امكانه ان يفعل غير ما فعله . فجعــــل يخطر في الايوان وقد تراكمت عليه الهواجس ، فتذكر حاله مع وزيره وما بلغ اليه من نفوذ الكلمة عنده حتى اصبح اكثر وجاهة ونفوذا من ابناء عمه ، ثم رجع الى صوابه فرأى انه محمول على ذلك ببواعث الاحوال، لأن الوزير قابض على زمام الدولة يدير شؤونها ويصرف اعمالها بحكمة ودراية . وقد اراحه من مشاغلها وخفف عنه أثقالها ، فضلا عما بينهما من روابط الولاء والمحبة وما لأبيه يحيى من الفضل علّيه ، وهو الذي اقامه على منصة الخلافة بحسن تدبيره . ثم اعترض حسن ظنه به ما يعلمه من ميله الى الشيعة العلوية وما يراه من كثرة الطاعنين عليه ولكنه كان يحمل طعنهم على محمل الحسد منه .

وبينما هو يمشي في الغرفة ويفكر ، لاحت منه التفاتة الى السرير فرأى القضيب الذي كان قد وضعه هناك ، فتقدم ليتناوله فوقع نظره على بطاقة وراء الوسادة فالتقطها وفضها وقرأها فاذا فيها الابيات التي قرأتها زبيدة زوجته على ابنها محمد وقد تقدم ذكرها . فلما بلغ الى قوله :

ونحن نخشى انــه وارث	ملكك ان غيبك اللحـــد
ولن يباهــي العبد أربابه	الا اذا مـــا بطر العبـــد

توارد الدم الى رأسه وحمي غضبه ، فأعاد نظرة الى البطاقة فقرأها ثانية ، وهو يعمل الفكرة ، وقد نسي البحث عن سبب وضعها هنـــاك لعظم ما كان من تأثيرها في ذهنه فعاد الى التفكير في جعفر وما بلغ اليه من الثروة والاستبداد حتى يزوج بنات الخلّيفة ويولي الامصار لمن يشاء ويهب الاموال بلا مشورة ، لا يخشى بأسا ولا يخاف اعتراضا . فقال في نفسه : «لقد آن لك يا هرون ان تستيقظ من رقادك ، وتنظر في امر هذا المولي وما بلغ من تطاوله ، فانه لا يلبث ان يمد يده الى اعظم من

ذلك والعياذ بالله» • ثم وثب من موقفه والقضيب مشهر بيده كأنه يهاجم عدوا وهو يقول :

واذا بدت للنمل اجنحة   حتى يطير فقد دنا عطبه

ثم تراجع ونظر حوله فرأى ما هو فيه من النعيم والأبهة ، وتصور انه اذا مات افضى الامر الى جعفر لانه يعرف ضعف ابنه الامين ، ويعرف ان المأمون اقوى منه ، ولكنه ضالع مع الفرس لانه ربي في حجر جعفر وشب على حب الشيعة ، فاذا افضي الامر اليه وجعفر حي خرجت الخلافة من بني العباس • فندم على تسليم المأمون الى جعفر واهمال الامر الذي كان ينبغي ان ينظر فيه قبل كل شيء وهو بقاء الدولة لبني العباس • ثم تذكر كيف حرضه جعفر على المبايعة للمأمون ولم يكف عنه حتى أطاعه فتوهم انه انما فعل ذلك لينقل الخلافة الى الشيعة بعد ذهابها من يد الامين ، فحرق أسنانه ندما ثم عض انملته وهز راسه وقال:

لقد بان وجه الرأي لي غير انني   عدلت عن الامر الذي كان أحزما
فكيف يرد الدر في الضرع بعد ما   توزع حتى صار نهبا مقسما
اخاف التواء الامر بعد استوائه   وأن ينقض الحبل الذي كان أبرما

وعاد فاسترجع رشده وأعمل فكرته في حقيقة الواقع ، فغلب عليه الخوف من جعفر لما يعلمه من كثرة مريديه وأنصاره ، وفيهم جماعة كبيرة من نخبة رجال الدولة ، ومن بعض بني هاشم الذين غمرهم بالعطاء وقيدهم بالانعام • فكانت هذه الهواجس تتردد في مخيلته وهو يمشي في الايوان ويداه وراء ظهره • واتفق وهو في ذلك ان وقف امام الستر فقرأ عليه بيتين مطرزين بالقصب هما :

واياك والامـر لذي ان توسعت   موارده ضاقت عليك المصادر
فما حسن ان يعذر المرء نفسـه   وليس له من سائر الناس عاذر

فلما قرأهما أمسك نفسه وعاد الى صوابه ونظر الى البطاقة في يده وقال : «لعل الذي كتب هذه الابيات من حساد جعفر وهم كثيرون ، واني على كل حال صابر أترقب الفرصة للاطلاع على الحقيقة» •

وقضى في تلك الخواطر وأمثالها حينا ، وهو يقف تارة ويمشـي اخرى ، وعليه ذلك اللباس الفخم ، ثم اذا بالحاجب دخل يقول : «ان الشعراء والندماء بباب العامة منذ الصباح ، وهذا يوم الجلوس لهـم فهل يأذن مولاي في دخول احد منهم ؟»

فلما سمع لرشيد قوله انتبه كأنه هب من رقاد ، وتحير في امره لانه في حال لا يروق له معها مجالسة الندماء والشعراء ، وانما يفضل الخلوة• ولكنه استنكف من ان يشعر احد بقلقه اذا صرف الشعراء فقال : «من في الباب من هؤلاء ؟»

قال : «كثيرون وفيهم المقيمون ببغداد من اهـل العيش الراتب والارزاق الجارية وفيهم الوافدون للاستجداء من أطراف البلاد» •

فقال : «أما الوافدون فنأذن لهم في وقت آخر ، اصرفهم الان وقل لصاحب بيت المال أن يحسن جوائزهم ويطيب خواطرهم • ومن بالباب من اهل الرواتب ؟»

قال : «فيهم من العلماء الاصمعي والكسائي وأبو عبيدة» • فقطـع كلامه وأشار اليه بيده ولسان حاله يقول : «دعني من العلماء واذكـر غيرهم » •

فقال : «أما الشعراء فمنهم الحسن بن هانىء (ابو نواس) وأبـو العتاهية ومروان بن ابي حفصة •• وأما ••»

فأشرق وجه الرشيد عند سماع اسم مروان لانه كان يستلذ شعره

لما فيه من الطعن على العلويين ، ولكنه لم يجد في نفسه ـ حة لسماع الشعر او الادب وعلم انه لا يجلو ما في خاطره غير الغناء فقال : «ادع هؤلاء الشعراء الثلاثة فقط يدخلوا الى قاعة الشراب ، وهل ببابنا احد من الندماء والمغنين والملهين ؟»

قال : «أما المغنون فرأيت منهم بعض اصحاب مولانا ابراهيم بن المهدي اخي امير المؤمنين ، ممن هم على طريقته في الغناء كابن جامع وابن نابه ، وابن ابي العوراء ، ويحيى الملكي . ورأيت بعض اصحاب اسحق الموصلي المعجبين بطريقته ، وسمعتهم يتقارعون في أي الطريقتين افضل » .

فقطع الرشيد كلامه وقال : «دعنا من هذه الطبقات فانـي لا ارى الاجتماع للمناظرة في طرق الغناء اليوم ، فادع برصوما الزامر ، وأبـا زكار الربابائي الاعمى ، وحسينا الخليع . وأما الغناء فأحب سماعه من قيان القصر» . ثم أطرق وقال : «ولكن ذلك لا يحلو الا بوجود ابراهيم الموصلي ، ادع لي مسرورا الخادم» .

فأشار مطيعا وخرج ، ثم اتى مسرور بسيفه وفظاظته وحيى ، فقال له الرشيد : «الي بابراهيم المغني على عجل» .

فظل مسرور واقفا ، فعلم الرشيد انه يطلب ان يتكلم فقال : «مـا بالك لا تذهب ؟»

قال : «لا دري اين اجد ابراهيم الان ، وأمير المؤمنين قد أذن له في ان يختلي بأهله يوما في الاسبوع لا يطلبه فيه .. وهو هذا اليوم» .

قال : «هاته حيثما وجدته» .

فأطاع وخرج ، وصفق الرشيد فجاءه خادم فقال له : «الي بصاحب الثياب» ــ يريد الذي يلبسه ثيابه ــ فأتى به فقال له : «عزمت على مجلس منادمة فالبسني ثيابها» . فخرج ثم عاد ومعه عدة وصفاء يحملون

تلك الثياب ، وهي غلالة وشي منسوجة بالذهب ، وعمامة صغيرة موشاة، وازار رشيدي عريض العلم مضرج . وهذه كانت ملابسه الصيفية في مثل هذا المجلس . وجاء غلمان آخرون في أيديهم المباخر فيها العود والند ، وفي أيدي آخرين جامات الطيب . فبدأ صاحب المنزل ينزع ما على العمامة من الحلي حتى حل العمامة وأخذ البردة والجبة ، ثم ألبسه الغلالة وعممه وناوله الازار فاتشح به . فلما فرغ من لباسه خرج من باب في الايوان يؤدي الى دار النساء وما زال ينتقل من رواق الى آخر ومن دار الى اخرى حتى دخل دارا مفروشة الصحن بالرخام ، وملبسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب . ثم انتهى منها الى قاعة ارضها وحيطانها ملبسة بالوشي المذكور ، وقد نصبوا له هناك سريرا من الصندل ، وأرخوا في منتصف الغرفة سترا من ذلك الوشي المطرز ، عليه نقوش جميلة . وحول ارض الغرفة الوسائد من الوشي المطرز ، وليس عليها احد لان الشعراء يجلسون في القسم الاخر من الغرفة وبينه وبينهم الستر .

فلما جلس هناك ووقف الغلمان بين يديه ، تذكر انه لم يتناول الطعام منذ الصباح ، فأمر صاحب الطعام ان يأتيه ببعض الاطعمة ، فنصبوا له سماطا وأتوه اولا بالمرق من السكباج تنشيطا لجسمه ، ثم جاءوا بمطبوخات البقول ، ثم الدجاج ، فالشواء من الحمام او الدراج ، فأنواع السمك ، فبعض ما يطبخ بالتوابل من اللحم والبقول . ثم قدموا له رقاقا من السنبوسج المحشوة باللحم والدهن عليها التوابل من الفلفل والزنجبيل ، ثم الحلوى من الفالوذج واللوزينج . وأخيرا النقل للتعلل بعد الطعام . وكان يأكل وخاطره قلق ، حتى اذا فرغ من الطعام سمع عودا يضرب ضربا مطربا على نغم لم يسمعه من قبل .

فأصاخ بسمعه فأطربه ذلك الصوت وعلم انه آت من الرواق وبينه

وبين ذلك المكان ستر فشعر بذهاب الانقباض عن صـــدره شيئا فشيئا وهو يعجب لذلك النغم الغريب ، وقد ادرك من نعومته انه صوت جارية فصاح : «من يغنينا في الرواق جزاه الله خيرا ؟»

فسمع الجواب من وراء الستر : «هذه قرنفلة وصوتها مثل رائحتها» فعلم الرشيد ان الذي يخاطبه حسين الخليع فصاح فيه : «قبحك اللـه وأي قرنفلة ؟»

فقال : «هي جارية أرسلها مولانا ولي العهد هدية لامير المؤمنين هذا الصباح . غني يا قرنفلة ان الخليفة طرب لصوتك .. يا ليتنـــي كنت مكانك فيغنيني ذلك عن اللطم والصفع» .

فلمع سمع الخليفة مجونه ضحك ، وضحك سائر السامعين فاستأنف الخليع الكلام قائلا : «هذا هو حظي بتقربي من الخلفاء ، انا ابكي وهم يضحكون ، فعسى ان يسعدني الحظ وأصير قرنفلة او وردة يشمنـــي الناس ويسمعون صوتي او يرفقون بجلدي . ولكنني اخاف لادبـــار سعدي ان يجاب دعائي ويقع الالتباس في طلبتي فيجعلني القضاء بطيخة او سكباجة فيأكلني الناس ويتمتعون بي وأصير انا الى ظلمة الاحشـاء وبئس الظلمة . غني يا قرنفلة غني .. اطلب من الله ان يبقيني على ما انا . وقد قيل نحس تعرفه ولا سعد تتعرف اليه !»

فأغرب الرشيد في الضحك ، ولم يبق احد هناك الا قهقه . ثـــم سكتوا جميعا ينتظرون ما يبدو من الرشيد . ولم يكن عنده احد من الندماء او الخاصة الذين يجالسونه بلا حجاب ، فلم يكن يرى وجهه في ذلك المجلس الا الغلمان والوصائف الوقوف في خدمته او الترويح له. وسكت الرشيد لحظة وهو يغالب هاجسا مما كان فيه ذلك الصباح ثـم قال : «قد علمت ان هذه القينة جديدة عندنا منذ سمعت ضربها وغناءها مع كثرة من في هذا القصر من القيان . قبح الله ابراهيم الموصلـــي

اين هو ؟ »

فقال الحاجب : «ذهب مسرور في اثره ولم يأت بعد» •

فقال انصبوا الستار لهذه المغنية ، وضموا اليها احسن من في قصرنا من القيان ممن أتقن الصناعة على يد ابراهيم • وهاتوا الشراب» •

* * *

كان في قصر الرشيد ثلاثمائة قينة ، فيهن العوادة والجنكية والمزهرية والطنبورية ، وغيرهن من المتقنات للعزف على آلات الطرب وان تفاوتن في المنزلة لديه بتفاوت الجمال ودقة الصناعة • غير ألفي جارية لا يحسن الغناء وهن السراري • وكان لمنوط به امر السراري • والقيان مسرور الخادم ، فناب عنه قيم الجواري ، ثم جاء صاحب الشراب بمائدة الشراب وما تحتاج اليه من الاباريق والاقـــداح من للبلور والذهب والفضة ، وعليها النقوش على نحو ما وصفناه في مصطبة الامين • وأما الاشربة التي تعاطوها في ذلك المجلس فأنواع الانبذة المصنوعة من عصير العنب ومنقوع التمر او التفاح او المشمش او غيرها من الفاكهـــة اللذيذة ، وأشربة من محلول العسل او الدبس او غيرهما • فلما انتظمت القيـــان للغناء دار الساقي بأباريق الشراب على الرشيد ، فشرب قليلا وهـــو محجوب عن القيان بستارة ، وعن الشعراء بستارة اخرى ، ومع القيان برصوما وأبو زكار • وكان كلما غنت احداهن صوتا عرفها وطرب لها وناداها باسمها • ثم صاح بالحاجب فأتى فقال له : «قل للحسن بـــن هانىء ينشد ما عنده» •

فبلغه امر الرشيد فقال أبياتا كان قد هيأها فأنشدها انشادا على عادة الشعراء في مجالس الخلفاء فطرب الرشيد وصاح : «وأنت يا ابـــن ابي حفصة» •

فقال : «لبيك يا امير المؤمنين» . وأخذ ينشد قصيدة نظمها في مدح الرشيد ضمنها التعريض بالعلويين . فأذكره ما كاد ينساه من هواجسه فصاح فيه : «دع عنك هذا الان . قل لأبي العتاهية هل هو باق على الزهد في الشعر ؟»

فأجاب ابو العتاهية : «ان ما نسمعه يا امير المؤمنين من اسباب الطرب يرمي الزهد بالمنجنيق . وقد صدق القائل ان الغناء رقية الزناء» .

فاستلطف الرشيد تعبيره وضحك وهو يقول : «هذا هو الشعر بعينه . فقل بيتا او بيتين» .

قال : «سمعا وطاعة ، وسأتلو ما يحضرني بعد قليل لاني تركت النظم من زمن طويل» .

وبينما هم في ذلك دخل مسرور فلما رآه صاح فيه : «ويلك اين ابراهيم» .

قال : «هو بالباب يا مولاي ، لقد اتيت به من أقاصي الارض !»

قال : «ادخله الي ليكون قريبا من هؤلاء القيان يعلمهن او يساعدهن» .

فدخل ابراهيم وسلم فأمر له الرشيد بالجلوس وقال له : «أظننا أزعجناك لدعوتنا اياك على غير انتظار ، ولكننا آثرنا لذتنا على راحتك . فاعذرنا» .

فخجل ابراهيم لهذه المجاملة وقال : «نحن عبيد امير المؤمنين ، واذا دعانا الى خدمته فقد شرفنا ورفع منزلتنا» .

فقطع الرشيد كلامه وقال : «اسمع الغناء الجديد» . والتفت الى صاحبة ستار القيان وقال : «ان ابراهيم استاذ المغنين يحب سماع ذلك الغناء الجديد» .

فصاحت الجارية : «غني يا قرنفلة» .

فلما سمع الموصلي اسمها ابتسم وقال : «قرنفلة هنا • ان هذه المغنية نادرة في رخامة الصوت واتقان الصنعة وطالما كنت أتمنى دخولها في جملة قيان القصر • وهي من جملة الجواري البيض اللواتي تعلمن الغناء على يدي ومن اكثرهن براعة واتقانا» •

قال الرشيد : «ان ولدنا محمدا اهداها الينا اليوم ، ولم أر وجهها بعد» •

قال : «وجهها جميل يا مولاي» •

فصاح حسين الخليع من وراء الستر : «نحمد الله على ان استاذها علمها الغناء فقط ولم يعلمها الجمال»•

فضحك الرشيد ، وأمر الساقي فصب له قدحا ولابراهيم قدحا وقال: «ان حسينا خفيف الروح ، اشرب هذا القدح يا ابراهيم» •

فصاح حسين الخليع من الداخل : «جزى الله امير المؤمنين خيرا لانه أنصف بيني وبين مغنيه ، فأعطاني خفة الروح وأعطاه القدح ، كأن خفاف الروح لا يشربون لئلا يزدادوا خفة فيطيروا» •

فضحك الرشيد وقال لابراهيم بصوت منخفض : «قبحه الله رمى حجرا فأصاب اثنين ، فجعلني من الثقلاء وهو لا يدري» •

فسمع الخليع قوله فاستدرك خطأه وقال : «أستميح عذر امير المؤمنين فان منع الشراب عني اسكرني فخلطت • ورميت القول جزافا• ولكن صاحب الحاجة يعرف حاجته ولذا لم يتجاوز كلامي ابراهيم خطوة واحدة » •

فضحك ابراهيم وقال : «اطمئن يا حسين فاني قد حبسته عندي فاكفف عني» •

ثم قال الرشيد : «نسمع يا قرنفلة» •

فأخذت تضرب على العود وحدها وتغني ، والرشيد يبالغ في

استحسان صوتها حتى حسدتها رفيقاتها وفيهن من كانت لها حظوة كبرى عند الرشيد ، فسمع الخليفة لغطا وراء الستار أعقبه ضحك فقال : «على اي شيء يضحكن ؟»

قالت صاحبة الستار : «تقول ضياء المغنية ان امير المؤمنين معجب بقرنفلة وهي لا تحسن الا صوتا او صوتين بعودتهما ، فاذا أمر بعض الشعراء ينظم بيتين لتغنيهما ارتجالا» .

فصاح الرشيد : «احسنت احسنت .. الى أبا العتاهية ببيت او بيتين مما نظمته الان» .

قال : «لبيك يا امير المؤمنين. هل اقول وعلي الامان مما قد يكون؟»

فاستغربوا سؤاله ولاسيما الرشيد ، ولكنه ظنه يقول ذلك متماجنا خوفا من القيان فقال : «عليك الامان» .

قال : «وتجيزني يا امير المؤمنين غير اجازة الشعراء ، لاني لم اقل الشعر من زمن مديد» .

فازداد الرشيد استغرابا لهذه الشروط ، ولكنه ما زال يحسبه مازحا فقال : «ونجيزك» .

قال : «وتسمح لي ان ارى وجهك على حدة ؟»

فضجر الرشيد من شروطه ولكنه تحمله وقال : «ولك ذلك ايضا . قل» .

فقال : «لا تعجب يا مولاي لجرأتي هذه . فقد قيل :

ولن يباهي العبد أربابه الا اذا ما بطر العبد»

فلما سمع الحضور هذا البيت ظنوه يشير الى جرأته في شروطه على الخليفة بما لم يسبق له مثيل . وأما الرشيد فحالما سمع قوله تذكر انه قرأه منذ ساعة في تلك البطاقة ، فانقبضت نفسه ، وأدرك ان أبا العتاهية لم يقدم على ذلك الا وفي نفسه شيء يريد اسراره اليه ولاسيما

بعد ان اشترط ان يرى وجهه كناية عن طلب مقابلته ، فتغير الرشيد ونسي ما كان فيه من الطرب وأصبح همه الاطلاع على سر تلك البطاقة، فنهض للحال ونهض الحضور معه ولم يفهموا شيئا مما في خاطره ، لانهم خليو الذهن من أمر تلك القصيدة . ثم صفق فجاء مسرور فأسر اليه ان يجيز الشعراء والقيان ، وان يأتيه بأبي العتاهية وحده . فاستأذن من المجلس وخرجوا جميعا . وتحولت تلك الضوضاء الى سكوت ووقار. أما مسرور فدخل ومعه ابو العتاهية وقد قبض على عنقه لظنه انه السبب في انقلاب سرورهم الى كدر ولم يكن يشك في ان الرشيد سيأمر بقطع رأسه .

اما ابو العتاهية فانه أقدم على هذا الامر الخطير طمعا في مال كثير وعده به الفضل بن الربيع ، فدبر هذه الوسيلة وكان عالما بالقصيدة ولا يبعد ان يكون نظمها لأم جعفر فبعثت بها فوضعت على سرير الخليفة في دار الخاصة ، ولا بد من ان يكون الرشيد قد قرأها فالاشارة الى بيت منها تبعثه على طلب المزيد فاذا استزاده قص عليه خبر تسريح العلوي . على انه لم يشعر بالخطر الذي تعرض له الا لما رأى انقلاب المجلس من الغناء والهرج الى الانقباض والسكوت ، فخفق قلبه وخاف على حياته ولاسيما بعد ان قبض مسرور على عنقه وجاء به بين يدي الرشيد. وقد انحرفت عمامته وتشوشت لحيته وارتعدت يداه واصطكت ركبتاه حتى لم يعد يستطيع الوقوف . فلما وقع نظره على الرشيد ارتمى على قدميه وأخذ في تقبيلهما وغلب عليه البكاء ، فتحقق مسرور عند ذلك انه مذنب ولا يلبث ان يسمع امر الخليفة بقتله ، فوقف ويداه على قبضة الحسام وعيناه الى شفتي الرشيد .

فلما رأى الرشيد ما استولى على ابي العتاهية من الرعب وما اظهره من التذلل والاستعطاف بعد ان اعطي الامان أشفق عليه وقال : «لا بأس

عليك يا أبا العتاهية ، انك شاعرنا ونحن نكرم الشعراء . قم لا تخف».
فما صدق ان سمع تلك العبارة حتى وقف وتكتف وأطرق لا يرفع بصره عن الارض والرعشة ظاهرة في ركبتيه ويديه من الخوف ، الى ان سمع الرشيد يأمر مسرورا بالخروج فرمقه بطرف عينيه ، فلما تحقق خروجه اطمأن قلبه ورفع بصره الى الرشيد بخشوع .

فاتكأ الرشيد في مجلسه ، وأومأ اليه ان يقعد فقعد جاثيا على البساط والدموع لا تزال في عينيه فقال له : «لا تخف يا أبا العتاهية انك في أمان» .

فقال وصوته مختنق : «أآمن انا يا امير المؤمنين ؟»

قال : «انت آمن اذا صدقتني» .

قال : «آمن منك ومن وزيرك ؟»

قال : «لا تكثر السؤال ، اذا أمنك امير المؤمنين فلا خوف عليك».

فتنفس الصعداء وهدأ روعه وقال : «سيعلم مولاي اني انما ركبت هذا المركب الخشن تفانيا في خدمته» .

قال وقد مل الانتظار : «قل من اين عرفت هذا الشعر ومن اطلعك عليه» .

قال : «لم يطلعني عليه احد» .

قال : «وكيف عرفته ، لعله من نظمك ؟»

قال : «نعم» .

قال : «وما الذي حملك على نظمه ؟»

قال : «حملني على ذلك امر عرفته ، وعلمت ان ليس بين رجال بطانتك من يجرؤ على ان يطلعك عليه ، فاحتلت هذه الحيلة في ايصاله اليك فأرجو ألا اكون قد اسأت الى نفسي والى اهلي» .

قال : «لا بأس عليك ، وما هو ذلك الامر وما دخل وزيرنا فيه ؟»

قال : «هو صاحبه وحده يا سيدي ، وسأقصه عليك فاذا كذبتني الوقائع فدمي مهدور» •

قال : «اقصص الخبر ولا تخف» •

فروى حكاية العلوي ونجاته على يد جعفر الى اخر الحديث •

وكان ابو العتاهية يتكلم وصوته يرتجف ويتقطع ، والرشيد مصغ بكل جوارحه وجأشه رابط • فلما سمع حديثه سأله : «أواثق انت من صدق الرواية ؟»

قال : «لو لم اكن واثقا ، بل لو لم اكن على يقين من الامر ، لما عرضت حياتي لهذا الخطر العظيم !»

فتذكر الرشيد علاقة جعفر به ورفعة مقامه عنده ، فأكبر ان يدخل ذلك الشاعر بينهما ، ورأى من الحزم والحكمة ان يغالطه فاغتصب ضحكة وقال : «لا ريب عندي انك اقدمت على كشف هذا الامر غيرة منك على الدولة ، ولذلك فأنت اهل للشكر والجائزة • ولكنك كلفت نفسك عناء عظيما باطلا ، لأن وزيرنا لم يأت شيئا من عند نفسه فهو لم يطلق سراح العلوي الا باشارتي» •

فلما سمع ابو العتاهية ذلك سقط في يده ، وتولاه الخجل • ولكنه اطمأن بالا على حياته وعلى ربح المال الذي وعده الفضل به • ولكنه ظل خائفا من جعفر اذا بلغه خبر هذه الوشاية فقال : «احمد الله على ان ما حدث كان برأي امير المؤمنين • وقد اطمأن بالي على حياة الوزير ولكنني اصبحت خائفا على حياتي منه اذا اتصل به اني نقلت هذا الخبر فيحسبني من اعدائه !»

فقطع الرشيد كلامه قائلا : «لا تخف ، فاني سأكتم ذلك عنه • كن مطمئنا» • قال ذلك ونهض ، فنهض ابو العتاهية وقد هدأ روعه • أما الرشيد فكظم غيظه حتى ضاق صدره عنه وكاد يصرعه • فعل ذلك رغبة

في اخفاء ما في نفسه عن اعداء جعفر ـ ولم يخف عليه ان أبا العتاهية لم يقدم على فعل من تلقاء نفسه • ولكنه اكتفى بما سمعه وصفق فجاء مسرور مسرعا كالبرق الخاطف فقال له الرشيد : «خذ أبا العتاهية وأمر صاحب بيت مالنا ان يعطيه الف دينار وأطلق سبيله» •

فقال : «سمعا وطاعة امير المؤمنين» • وأمسك أبا العتاهية وخرج به •

فلما خلا الرشيد الى نفسه هاج بلباله وعادت اليه وساوسه فتذكر ما دار بينه وبين اسماعيل في الصباح ، وكيف رده خائبا مع قرابته وجلالة قدره مراعاة لحق جعفر • فكيف تبدر منه هذه البادرة فيطلق اسيرا عهد به اليه • فثبت عنده ما كان يتهمه به من الميل الى العلويين والرغبة فيهم عن العباسيين • فلما تصور ذلك هاج غضبه ونسي موقفه وجعل يمشي ذهابا وايابا على غير هدى ويخاطب نفسه قائلا : «هل انا في حلم ؟ أيرتكب جعفر هذه الخيانة وقد احببته وأكرمته ورفعت قدره وسلمت اليه مقاليد الاحكام وأطلقت يده في شؤون الدولة ؟• وهل يعقل ان يكون ما سمعته من الحساد ؟•• ولكن كيف يغدر بي جعفر ويطلق عدوا سلمته اليه على ما يعلمه من كرهي للعلويين • بل كيف يفعل ذلك ولا يخاف على حياته ؟• ان هذا ايضا لا يعقل ، الا ان يكون الرجل مصابا في عقله، لانه يعلم بطش هرون اذا غضب !»

- ١٢ -

بين الرشيد وجعفر البرمكي

قضى الرشيد ساعة في هذه المناجاة وهو لا يقر له قرار ، ثم رأى

ان خير ما يجلو عنه هذه الشكوك ان يسأل جعفر نفسه عن صحة الخبر، فاذا كان صحيحا بادر الى الانتقام • فأمسك غضبه • وكان مع سرعة غضبه وشدة بطشه قوي الارادة ذا اقتدار على الكظم والكتمان ، فصفق فجاءه مسرور فقال له : «دع لي صاحب الطعام واذهب أنت الى الوزير فادعه الي» •

فسأله : «ماذا اقول له ؟»

فأجاب : «قل له ان امير المؤمنين أحب ان تتناول معه العشاء الليلة، ولا تزد على ذلك» •

قال : «سمعا وطاعة» • وخرج •

وكانت الشمس قد قاربت المغيب ، فلما جاء صاحب الطعام قال له : «أعدد مائدة اتناول عليها العشاء مع الوزير» •

فأشار مطيعا وخرج ، ومكث الرشيد وحده فعادت اليه افكاره وقد تعب منها فأحب ان يلهو حتى يأتي جعفر ، فخطر له ان يخرج الى حديقة القصر للنزهة ، فأمر برداء تزمل به ، وجاء غلام ألبسه النعال ، ثم خرج الى الحديقة يتمشى بين الاشجار والرياحين الى حيث لا يعلم •

فما لبث ان وجد نفسه بجانب اقفاص السباع ، وكان فيها اسد قد تعود الرشيد ان يلهو بمداعبته • فلما وقع نظره عليه شعر بشيء لفت انتباهه وهو ارتياح طبيعي في الانسان اذا رأى الأسد او غيره من السباع في قفص • ولعل سببه الاعجاب بقوتها والدهشة من منظرها غير ما يجيش في النفس من حب التمثل بها • ومنظر السباع يهيج القوة الغضبية في الانسان فكيف اذا كان غضبان ؟• فوقف الرشيد عند القفص وأمر السباع ان يرمي للاسد طعامه فأتى بخروف كان قد ذبحه وجعله قطعا صغيرة فرمى له قطعة فوثب الاسد عليها والتقمها لقمة واحدة ووقف ينتظر اخرى ، فنهى الرشيد السبّاع ان يرمي اليه شيئا • فجعل

الاسد يزأر ويخطر في القفص ذهابا وايابا وذيله كالقوس فوق ظهره ينظر الى السيّاع بعينين يكاد الشرر يتطاير منهما والسيّاع يريه اللحم عن بعد • فلما استبطأ الطعام أقبل يضرب قضبان القفص برأسه تارة وبمخالبه اخرى يحدق الى قطعة اللحم بيد السيّاع ويزأر ويكشر عن أنيابه ، والسيّاع يضحك والرشيد يشارك الاسد غضبه وقد ازداد عبوســـــا وازدادت أسرته انقباضا ، حتى لقد كاد يفتك بالسيّاع ، كأنه تصور نفسه شريكا للاسد في الغضب ، لان حاله مع جعفر مثل حال الاسد مع فريسته •

ولكن ليس للكواسر ما يعقلها عن اظهار احساسها فتغضب وتقلق في أقفاصها • اما الرجل العاقل فيملك غضبه ويمسك نفسه عن الفتـــــك بفريسته وهي بين يديه •

كان الرشيد يفكر في ذلك والسيّاع ينتظر امره ليرمي القطعة للاسد حتى زأر الاسد زأرة نبهت الرشيد فأشار الى السيّاع فرمى له القطعة فانقض عليها وعاد الى الزئير حتى رمى له القطعة الثالثة والرابعة وهكذا حتى شبع • فربض ووضع رأسه بين ساعديه وسكن وبقيت عيناه تبرقان والحنق ظاهر فيهما •

قضى الرشيد ساعة في ذلك حتى سري عنه وزاد تمكنا من اعتقاده انه رابط الجأش من الناس اذا كان ذا سلطان وأمسك غضبه كان اسدا عاقلا• وأراد ان يكون ذلك الاسد في تلك الليلة •

فلما غابت الشمس وأخذت الظلال تتكاثف فوق قصور بغـــــداد وبساتينها رجع الرشيد الى قصره ماشيا بين الاشجار بثوبه الموشـــى وعمامته المزركشة والغلمان يتباعدون عنه احتراما ، وقد لحظوا غضبـه وعرف بعضهم سببه والرشيد يحسب سره مكتوما •

وفيما هو في ذلك سمع دبدبة وصهيلا وصلصلة وضوضاء بيـــاب

القصر ، فعلم انه موكب جعفر فظل ماشيا حتى اذا دنا من باب الخاصة لقيه مسرور فأخبره ان الوزير ينتظره في الدار .

فقال له : «ادعه لموافاتي الى القاعة التي كنا فيها اصيل هذا اليوم».

★ ★ ★

مشى الرشيد حتى دخل القاعة وقد أضيئت فيها الشموع على مناور الذهب ، وفاحت روائح البخور والاطياب فتربع على السرير ولم تمض هنيهة حتى اقبل الحاجب يستأذن لجعفر ، فقال الرشيد : «يدخل ليس على الوزير حجاب» .

فدخل جعفر وعليه القلنسوة والجبة على عادته في مجيئه لمقابلة الخليفة ، وهو لباس العباسيين الرسمي . ولم يكن جعفر مطمئنا الى هذه الدعوة في اخر النهار موجسا من سعاية حساده به في شأن العباسة بعد ان أطلع ابو العتاهية على سره ورأى ابنيه مع أمهما رأي العين . فلما دعاه مسرور الى الرشيد سأله عما يريد منه فقال : «لا ادري» . ولم يتوسم في وجه الرجل سوءا فركب في موكبه الحافل وفيه جماعة من الفرسان الأشداء ممن يتفانون في نصرته ، ودخلوا معه الى الباب الرابع في القصر ، ولم يكن يسمح بالدنو منه الا له ولبني هاشم ومن اليهم من الخاصة . فترجل جعفر وأقبل على دار الخاصة ومسرور بين يديه لا يتكلم ، ثم دخل القاعة وهو يتكلف الابتسام ويظهر الاطمئنان وليس ذلك في قلبه . فلما أقبل على الرشيد رحب به وابتسم له وقال : «ليتك جئتني بمثل لباسي ، فان مجلسنا مجلس أنس» . ودعاه للجلوس بجانبه على السرير . فحياه وقعد متأدبا ، وقد سرى عنه واطمأن قلبه . وجعلا يتطارحان الاحاديث والرشيد يحتفي به ويلاطفه . ومما قاله : «لقد دعوتك رغبة في أنسك ، لاني شعرت بملل اثناء النهار على اثر استقبال

الوفد الهندي» .

وأقبل يقص عليه ما جاء به الوفد من السيوف القلعية والكـــلاب السيورية وما كان من قوتها وفتكها بالاسد .

فأجابه جعفر : «لا زال قصر الخلد مصدر الأبهة والسؤدد ، ولا زال امير المؤمنين مؤيدا بنصر الله يتقرب له الملوك والسلاطين بالزلفى» .

وليس بخاف ما في قلب جعفر من الرشيد وما يكتمه من الخوف اذا اطلع على حاله مع العباسة وما ينويه من الفرار اذا اطلع الرشيد علـــى سرهما . فكانا يتد جيان وفي قلب كل منهما غل على صاحبه . وما زالا في ذلك حتى آن وقت العشاء.ومد السماط وقد أعدت عليه ألوان اللحوم والطيور والتوابل وأنواع الفاكهة وأصناف البقول ، ووقف الغلمـــان بأباريق الماء وأقداح الشرب . فجلسا يأكلان ، والرشيد يبالغ في الاحتفاء بجعفر ، حتى كان يقدم له الطعام من الصحاف ويلقمه بيده ، ويناوله السنبوسجة بعد السنبوسجة والتفاحة بعد التفاحة ، ويبش له ويحادثه ويضحك لحديثه ، حتى تطرق الى ذكر العلوي فقال له : «ماذا جـرى للعلوي الذي عهدت به اليك ؟»

قال : «على حاله يا امير المؤمنين لا يزال في الحبس كما أمرت» .

فابتسم الرشيد وقال : «أباق هناك ؟»

قال : «نعم يا امير المؤمنين» .

قال : «بحياتي» .

ففطن جعفر الى ان السؤال كان ذا مغزى ، فبغت حتى ظهـــرت الدهشة على وجهه فقال : «لا وحياتك ، بل اطلقته لاني لم اجد خطرا منه . وقد اخذت عليه المواثيق والعهود حتى لا يعود الى شيء ممـــا كان فيه » .

فضحك الرشيد وقدم لجعفر خوخة كانت في يده وقال : «بورك

فيك ، فقد فعلت ما كنت ارجوه منك ولم تتجاوز ما في نفسي» •

فاستأنس جعفر بهذا التلطف ولاسيما لما انتقل الرشيد الى حديث آخر ، ومضى يمازحه وكأن شيئا لم يكن •

ولما فرغا من العشاء جاءهما الخدم بآنية الغسل فغسلا أيديهما ، وجلسا يتحدثان ساعة ، ثم استأذن جعفر في الانصراف فأذن له الرشيد ومشى لوداعه حتى باب القاعة • فلما ودعه عاد يحرق أسنانه وقال في نفسه : «قتلني الله ان لم أقتلك» •

أما جعفر فلم تنطل عليه مداجاة الرشيد ولم تخدعه مظاهر الترحيب فخرج وهو شاعر بأنه اصبح في خطر وأدرك ان الحديث الذي قاد الى ذكر العلوي لم يأت عرضا ومحض اتفاق فلم تكن نية الرشيد منصرفة الى اطلاق سراحه كما زعم • وكيف يصدق ذلك وقد كان العلوي مطلقا ومعه أمان بخط الرشيد وخاتمة فما زال الرشيد يسعى حتى أفسد الامان ومزقه وأمر بالقبض عليه وحبسه خوفا منه • فهل ينطلي على جعفر انه كان يريد تسريحه وهو العالم بطباع الرشيد وفرط تكتمه • ولكنه أظهر الاطمئنان ، فافترقا وهما يتداجيان ويظن كل منهما انه خدع صاحبه وكلاهما خادع ومخدوع •

وعاد الرشيد بعد وداع جعفر وهو يفكر فيما مر به ذلك اليوم من المفاجآت • فتذكر مجيء اسماعيل في الصباح وما كان من رده خائبا ولم يقض له حاجة رعاية لحق وزيره جعفر ، وما عرفه بعد ذلك من استئثار هذا الوزير بالامور واطلاق سراح العلوي ، حتى قام في نفسه ان يقتله• ورأى انه اساء الى اسماعيل على جميل نصحه وحسن قصده ، فأحس بحاجته الى مجالسته ليطلعه على ما فعل جعفر ويسر اليه ما نواه من الفتك به ، لانه كان واثقا من اخلاصه وثوقا لم يكن لاحد من اهله او رجال دولته ، على ان يتدرج الى الاعتذار عن رده خائبا • وضاق

صدره فلم ير خيرا من ان يخرج للصيد يفرج به كربه . فلما اصبح دعا مسرورا خادمه وأمره ان يوصي اصحاب الصيد بالتأهب للخروج الى ارض دجيل (قرب بغداد) الى ان قال: «وهل تعلم مقر اسماعيل بن يحيى؟»

قال : «نعم يا مولاي» .

قال : «اذهب اليه وادعه ولا تزعجه بفظاظتك» .

قال : «واذا سألني عما يريده امير المؤمنين منه ؟»

قال : «قل اني عازم على الصيد وأحب ان يكون معي» .

فأشار مطيعا وخرج الى الفهادين والبيازة والحجالين وأصحاب الصيد والقنص فأمرهم بالخروج الى ارض دجيل . وكانت لهم رسوم وطرق في خروجهم الى ذلك المكان يعرفونها ولا يحتاجون فيها الى ترتيب او تدريب، ودجيل هذه بقعة من الارض طولها عدة فراسخ في مثلها احاطوا بعض جهاتها بسور في نصف دائرة مبني بالاعمدة المنصوبة وقد شد بعضها الى بعض بالامراس او الاسلاك على هيئة سور منيع . وكانت عادتهم في الصيد ان يطاردوا الحيوانات التي يريدون صيدها الى ذلك السور ، ثم يضربون حولها حلقة من الجهة المفتوحة ويطاردونها بخيولهم وفهودهم وكلابهم وهي تفر امامهم بين الاعشاب والادغال ، فلا يزالون يضايقونها ويحدونها حتى يدخلوها وراء السور ولا يكون لها مجال . فاذا انحصرت في ذلك الموضع أقبل الخليفة ومن معه من الخاصة فقنصوا منها ما شاءوا .

وكانت عادة الرشيد اذا خرج للصيد ان يجول بعض النهار على جواده في أرباض بغداد وما يحدق بها من المغارس والضياع حتى يعلم ان الحيوانات قد حضرت وآن صيدها فيأتي ويباشر قنص بعضها بنفسه او يتفرج على البزاة والصقور والفهود كيف يستخدمها اصحابها في الصيد مما يطول شرحه . أما في ذلك اليوم فقد جعل الخروج الى

الصيد وسيلة للتحدث الى اسماعيل .

فلما جاء رسول الرشيد يدعو اسماعيل الى مرافقته في الصيد ، لبس الثياب الخاصة بذلك وركب الى قصر الخلد ، وكان الرشيد في انتظاره بموكب الصيد وهو يختلف عن سواه من مواكب الخلافة . فما أقبل على القصر حتى رأى اصحاب الصيد خارجين بصقورهم وبزاتهم وفهودهم وقد لبسوا الملابس الخفيفة وفي جملتهم اصحاب اللبابيد ، وعلت الضوضاء وتزاحم الناس . هذا يلاعب صقره ويخرضه على طائر مار فوق رأسه فاذا تحفز الصقر أمسكه . وذاك يقود فهده بسلسلة من الحديد وآخر يستحث كلبه على طلب فريسة يوهمه انها وراء شجرة هناك والكلب لا يكترث لانه لم يشم رائحة الفريسة الى غير ذلك من اسباب الضوضاء واختلاط الاصوات بين صهيل ونباح وهرير وصرصرة وقعقعة وصلصلة وطقطقة وهدير . فتجاوزهم اسماعيل حتى دخل الباب الثاني من ابواب القصر ، فلقيه مسرور وقال له : «لا يترجل مولاي ، لأن امير المؤمنين خارج بموكبه وقد امرني بذلك» .

فوقف حتى رأى الرشيد قادما على جواده بثيابه الخفيفة و لفرسان حوله في موكب الصيد فلم يستطع ان يمسك نفسه عن الترجل فابتدره الرشيد قائلا : «اركب يا عماه وأدن فرسك من فرسي» .

فركب وأراه ان يسير متأخرا عنه تأدبا على العادة في مصاحبة الخلفاء ، فدعاه ان يحاذيه وقال له : «ليس اسماعيل بن يحيى ممن يطالب بمثل هذه المراسم ، وما دعوتك لمرافقتي الا لأستأنس بك» .

فدعا له وسار بجانبه ، وأمر الرشيد مسرورا ان يطلق اصحاب الصيد الى عملهم في دجيل كالعادة . ثم سار هو واسماعيل لا يتكلمان وما زالا ساكتين حتى خرجا من بغداد وأشرفا على بساتينها وأرباضها فأمسك الرشيد شكيمة جواده والتفت حوله لفتة فهم منها فرسان الموكب

انه يريد انصرافهم ، فتفرقوا وظل هو واسماعيل سائرين . فلما انفردا نظر الرشيد الى اسماعيل وقال والاهتمام باد في محياه : «ما الذي حدثتك به نفسك لما خرجت من عندي امس ؟»

قال : «لم تحدثني بشيء غير موالاة الدعاء بطول بقائك وتأييد سلطانك » .

قال : «ذلك عهدي بك ، على انك لو عتبت على هرون وانتقدته لما وجدت سبيلا للومك ، لاني لم أرع حقك ، وقد اسأت اليك من اجل رجل لم يرع حقي ولا حق بني العباس !» . قال ذلك والتفت كأنه يحاذر ان يسمعه احد . ثم تشاغل باصلاح ما على مقدم السرج من الديباج الموشى ، ومد يده الى ناصية الجواد وجعل يمشطها بأنامله وهو ينظر ما يبدو من اسماعيل .

اما هذا فأدرك ما في نفس الرشيد ، وانه يضمر سوءا لجعفر ، فشق عليه ذلك لعلمه انه يعود على الدولة بالخسران ، فتجاهل وأقبل يشكر للرشيد حسن ظنه الى ان قال : «ارى امير المؤمنين يبالغ في اكرامي ، وحاشا له ان يأتي امرا يوجب اللوم . وهب انه فعل ذلك فهو فوق اللائمين . وانما ساءني انه غير راض عن مواليه ولو صرح لي بما يريد وأباح لي الكلام لزادني منة» .

فقطع الرشيد كلامه وقال : «أظنك تتجاهل يا عماه ومثلك لا يفوته ادراك ما أريد» .

قال : «اذا صدق ظني فان الرشيد يشكو من وزيره» .

قال : «وهل تستغرب شكواي من رجل سلمت اليه مقاليد دولتي وأطلقت يده في شؤوني على اهلي وذوي قرباي ، فأخذ يسعى في هلاكي ؟ »

فقال : «معاذ الله ان يكون ذلك . وما وزيرك يا امير المؤمنين الا من

بعض مواليك يبذل نفسه لاجلك ، ذلك عهدي به» •

وكانا يتكلمان والفرسان يسيران متحاذين بين الاشجار الباسقة المشتبكة أغصانها حتى تظلل الطرق ، فبعدا عن المدينة الى غير مكان مقصود • واتفق انهما اشرفا على ضيعة (عزبة) عامرة ومواش كثيرة وعمارة حسنة يدور طريقها حول الضيعة ، فدارا حولها حتى اقتربا من بابها ، فنظر الرشيد الى بيدرها وكثرة الغلال عليه وما يسرح من الماشية الكثيرة حوله ، والتفت الى اسماعيل وقال : «لمن هذه الضيعة يا اسماعيل ؟ »

فعلم اسماعيل انها لجعفر ، وقد اراد الرشيد ان يتخذ ذلك حجة على صحة الطعن عليه فقال : «هي لأخيك جعفر بن يحيى» •

فتنفس الرشيد الصعداء وقال : «ولو سألتك عن سائر ما في هذه الضاحية من الضياع لما اجبت غير هذا الجواب ، لان الذي دعوته اخي قد ملك اهله كل ما يحدق ببغداد من الضياع والبساتين • أرأيت كيف غنينا هؤلاء البرامكة وأفقرنا اولادنا وأغفلنا امرهم ، حتى صارت البلاد لهم وأصبحت مواكبهم اعظم من مواكبنا وأموالهم اكثر من أموالنا ؟• واذا كانت هذه ضياعهم قرب المدينة فكيف بما هو لهم على غير هذا الطريق في سائر البلدان ؟»

فشق على اسماعيل ذلك القول غيرة منه على سلامة الدولة فقال : «انما البرامكة عبيدك وخدمك ، وما ضياعهم وكل ما يملكون الا لك!»

ولم يكن الرشيد يتوقع من اسماعيل دفاعا عن رجل كان بالامس سببا في فشله فازداد رفعة في عينيه ولكنه استاء من دفاعه ، وكان يريده على ان يجاريه فيما ينويه شأن كل غاضب مستبد • فنظر الى اسماعيل نظرة جبار عنيد وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيما وقال : «اراك حسن الظن بأعدائي ، وتحسبهم عبيدا لي ، والبرامكة يعدون

بني هاشم عبيدهم ، وانهم هم اصحاب الدولة وألا نعمة لبني العباس 'لا والبرامكة يمنون عليهم بها» .

فرأى اسماعيل ان يقف في دفاعه عند ذلك الحد لئلا يتحول غضب الرشيد اليه ، فقال : «ان امير المؤمنين أبصر بخدمه وعبيده» .

فأدرك الرشيد انه خاف غضبه ولم يصرح بما في نفسه ، فأحب ان يتعرف رأيه فقال : «ليس لهذا استصحبتك يا عماه ولا هذا عهدي بك. تسايرني وتجاريني خوفا من غضبي ؟»

فتحير اسماعيل في امره وتردد بين ان يجيبه و يبقي على الكتمان. ومع علمه بمنزلته عند الرشيد لم يكن ليطلق لنفسه الحرية الا محاذرا غضبه مخافة ان ينقلب الرشيد عليه اذا اساء الظن به . وهذ جعفر لم يبلغ احد ما بلغه من الدالة والنفوذ حتى صار الرشيد يدعوه اخاه ، ويدعو أباه يحيى أباه ، فلما شك فيه اصبحت حياته في خطر . فظل سماعيل ساكتا يفكر وهو سائر بجانب الرشيد ولا يدري الى اين يسير به .

ونظر فاذا هو بباب المدينة فانتبه فقال : «ارانا قد عدنا الى بغداد فأين الصيد ؟»

قال : «انما جعلت الصيد وسيلة للتحدث اليك ، فلم أسمع منك غير ما يقوله سائر الناس ممن يجالسوننا ويصانعوننا ، ولكنك شيخ بني هاشم وحكيمهم ، فلا اقبل منك مصانعة او مجاملة» .

فقال : «أنا بحمد الله عند حسن ظن امير المؤمنين بي ، ولكنني لم اسمع سؤالا صريحا فأجيبه جوابا صريحا» .

وكان موكب الرشيد قد عاد الى السير بين يديه وهو يدخل بغداد، فقال لاسماعيل : «نحن داخلون بغداد الان ، وعما قليل ندخل قصر الخلد فنخلو ونتفرغ للحديث» .

فأوجس اسماعيل خيفة من العاقبة ، وسكت حتى دخلا القصر فترجلا وسارا الى غرفة خاصة ، فجلس الرشيد على السرير ودعا اسماعيل الى الجلوس بجانبه ، فجلس مطرقا ينتظر ما يقوله الخليفة ، فبدأ هذا بقوله : «قل ما في نفسك ، ألا ترى ان هؤلاء الأعاجم قد تطاولوا علينا واستأثروا بالدولة وأموالها دوننا ؟»

قال : «بلى . اتوا هذا نزولا على رأي امير المؤمنين ، فلو اشار بغير ذلك لأتمروا بأمره» .

قال : «وهل أمرتهم بأن يستأثروا بكل شيء دوني ؟»

فتوقف اسماعيل عن الجواب وهو يتردد بين ان يصرح له بما يعتقده من فضل البرامكة على الدولة وبين ان يسايره في اقواله ، فغلب عليه استقلال رأيه فقال : «أما وقد اكرمني امير المؤمنين بحسن ظنه ، فلا ينبغي ان أكتمه شيئا يجول في خاطري . ان البرامكة عبيد مولانا ومواليه ، لا خلاف في ذلك ، ولكن امير المؤمنين أعلم الناس بما كان من بلائهم في سبيل الدولة ، من عهد جدهم خالد الذي كان في خدمة جدك المنصور ، فعرف له فضله وقدمه ، كما قدم امير المؤمنين ابنه يحيى وحفيده جعفر . ولا يخفى على الرشيد ما لهؤلاء من الاثر الصالح في خدمة دولته وتنظيم ادارتها وسائر شؤونها ، غير ما لهم من المآثر في رفع منار العلم وأسبابه بتقديم الفلاسفة واستقدام الاطباء من الهند وفارس الى بغداد ، وقد بنوا المارستان وأدخلوا الكاغد ، وعمروا بغداد، وعنوا بنقل الكتب . وهم لم يفعلوا ذلك الا والرشيد راض عنه . وأخشى ان أطيل الكلام» .

وكان اسماعيل يتكلم وهو يراقب ما يبدو من الرشيد وكأنه لمح في وجهه امتعاضا من الثناء وانه لا يرضيه الا ما يعضد عزمه على الفتك بهم فاستدرك قائلا : «ولا أنكر انهم من الجهة الاخرى استأثروا بالاموال .

والانسان مطبوع على الطمع ، ولكني أعلم ان الاموال التي تجمع من غلتهم ينفق معظمها على اهل الفاقة» .

فضحك الرشيد اغتصابا وهز رأسه وقال : «لا يفعلون ذلك مروءة احسانا ، ولكنهم يبتاعون الاحزاب ولا يلبثون ان يجندوا علينا الجند».

فابتدره اسماعيل قائلا : «معاذ الله» .

فقطع الرشيد كلامه وقال وهو مقبل عليه : «كيف لا ووزيرنا الذي دعوته اخي يمالىء العلويين علينا ؟»

فأجفل اسماعيل وقال : «يمالئهم ؟»

قال : «نعم انه أطلق سراح يحيى بن عبد الله وكنت امرت باعتقاله».

فقال : «أطلق سراح يحيى العلوي ؟»

قال : «نعم أطلق سراحه لا شك في ذلك ، وقد اعترف لي هو نفسه بالامـــر » .

فلم ير اسماعيل بابا للدفاع ، وتحقق ان الرشيد ماض في غضبه لما في نفسه على الشيعة العلوية فقال : «انها جسارة وتطاول . وهل تظنه فعل ذلك عن عمد وقصد سيء ؟»

قال : «مهما يكن من قصده فاني لن أصبر على فعله هذا» .

فقال : «وما الحيلة يا مولاي ؟»

قال : «الحيلة ؟. لقد حل قتله والسلام» .

فأكبر اسماعيل تسرعه وقال : «اذا قتل امير المؤمنين عبيده فانه مالك رقابهم . ولكنه أعلم مني بعاقبة هذا الامر . وقد قال لي الساعة ان البرامكة يبتاعون الاحزاب» .

فأطرق الرشيد واسماعيل يعملان فكرتهما ثم رفـــع الرشيد بصره وقال : «فما الذي يراه ابن عمنا ؟»

قال : «ألا ترى ان تفرق بينه وبين احزابه بعمل يتولاه بعيدا عن

بغـداد ؟ »

فأبرقت أسرة الرشيد عند ذاك وقال : «ذلك ما عزمت عليه ، وسأوليه خراسان . فاذا بعد عن بغداد فكرنا في شأنه» .

فسر اسماعيل لقبول الرشيد ما اشار به وقال : «نعم الرأي هذا» .

قال : «انه رأي سديد وبعد ذلك ننظر في امره» . ثم توجه اليـه بكليته وقال وهو يتفرس فيه : «اعلم يا اسماعيل اني لم أطلعك علـى سري هذا الا لعظم ثقتي بك واني آمرك ان تكتمه فانه ما علم به احد غيرك ، فاذا بلغهم شيء مما جــــرى علمت انه ما أفشاه الا انت .. أفهمت ؟ »

فبهت اسماعيل من هذا التهديد . وتحقق لما سمع الرشيد يخاطبه بتلك اللهجة ، ان على مشيري الملوك ان يسايروهم ويداهنوهم والا كانت حياتهم في خطر فقال : «أعوذ بالله ن أقدم على افشاء سرك يا امير المؤمنين» .

ثم تزحزح الرشيد من مجلسه ، ففهم اسماعيل انه قد آن موعـــد الانصراف ، فوقف واستأذن فأذن له ، فخرج وقد عظم عليه ما سمعه وأصبح خائفا على الدولة من تغير الرشيد ، وانطلق الى منزله يترقب ما يكون منه .

وفي اليوم التالي علم ن الرشيد بعث الى جعفر فجاءه فأجلسه الى يمينه وأكرمه ، وحادثه ساعة وأهداه هدايا كثيرة في جملتها غلام من خاصة خدمه وأنبلهم وأوضحهم وجها وأكملهـــم ظرفا ، كاتب حاسب لبيب ، وان جعفر سر سرورا كاملا . فعجب اسماعيل من اقتـــــدار الرشيد على كتمان ما في نفسه مع شدة وطأته وسرعة غضبه . وربما تبادر الى ذهنه ان الرشيد قد صفح وذهب غضبه على جعفر لولا علمـه باطلاق سراح العلوي مع كره الرشيد للشيعة وخوفه منها على ملكه .

ثم علم اسماعيل بعد يومين ان الرشيد خلع على وزيره الخلع ، وعقد له لواء على خراسان .. فظنه قد صفا له ، وتمنى ان تزول الضغائـــن وتعود المياه الى مجاريها ولاسيما بعد ان علم برضاء جعفر عن هذه الولاية واسراعه في ارسال أعوانه ورجاله يتقدمونه الى النهروان خارج بغداد. فانهم ذهبوا وضربوا مضاربهم وأخذوا يتأهبون للرحيل الى خراسان ، وهي بعيدة الشقة تحتاج الى الاحمال والاثقال . فلما تحقق اسماعيـل قرب سفر جعفر رأى ان يزوره ويودعه ويسعى في ازالة ما قد يكون في نفس الرشيد عليه بوسيلة خطرت له .

وأما جعفر فلم يكن ذلك كله ليذهب ما في قلبه على الرشيد ولكنه رأى توليته خراسان بابا للفرج وعزم على ان يتصل بالعباسة ليكلمها في شأن الذهاب معه . ففي اليوم الذي احتفلوا فيه بالخلع عليه عاد الــى قصره في الشماسية وهو احد قصور البرامكة في ذلك الحي ، وكان لهم عدة قصور هناك أشهرها قصر يحيى بن خالد عند باب الشماسية ، وقصر آخر في باب البردان . وكان جعفر في ذلك العام مقيما بقصره ببـاب الشماسية ، ولا تقل قصوره فخامة عن قصور الرشيد ، ويكفي ما تقدم من وصفها في القصيدة التي دستها زبيدة الى زوجها وفيها يقول الشاعر في وصف تلك الدار :

وقد بنى الدار التي ما بنى	الفرس لها مثلا ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤهـا	وتربهـا العنبر والنـــد

فاعتبر ما يكون من فخامة هذا القصر وأمثاله من قصور البرامكة مما يضيق المقام عن وصف ما فيه من الرياش الفاخر ، وقد وصفنا قصر الخلد وقصر الامين ودار القرار (قصر زبيدة) فقس عليها .

فعاد جعفر الى قصره وهو لا يصدق انه ولي خراسان ، وان كان الرشيد قد وعده بها غير مرة فتبادر الى ذهنه أن ليس في قلب الخليفة غل عليه ، او انه ولاه خراسان خوفا منه على دولته اذا ظل في بغداد ، فتشجع واستضعف الرشيد ونسي خوفه منه • فلما عاد الى القصر أمر قهرمانه ان يستعد للرحيل ويوصي قيِّم الجواري والعبيد وكاتبه بأن يتهيأوا في الغد • ودخل القصر وكان قد أعجب بالخادم الذي اهداه الرشيد اليه لأدبه وفرط جماله فاصطحبه الى قاعة ريشها سماوي اللون لاعتقاده ان هذا اللون يشرح الصدر على مذهب القدماء ودخل الغلام لمؤانسته • ثم جاءه الحاجب يقول : «ان اسماعيل بن يحيى بالباب» •

فنهض جعفر لاستقباله وأدخله حتى أجلسه في صدر مجلسه ، لانه كان يجل مقامه ويثق به لصفاء نيته وصدق لهجته • ثم لحظ في اثناء الحديث انه يكتم امرا يريد اطلاعه عليه ، فصرف من في مجلسه من الناس ولم يبق في الغرفة سواهما • وأقبل جعفر بكليته ليسمع حديثه فقال اسماعيل : «يا سيدي انت عازم على الخروج الى بلدة كثيرة الخير واسعة الاقطار ، فلو صيرت بعض ضياعك لولد امير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده» •

فلما سمع جعفر قوله تبادر الى ظنه ان الرشيد أوفده للتوسط في ذلك فزاد استخفافا به واستقواء لنفسه ، وغلب عليه الحقد ، وظن نفسه نجا من قبضته بانتقاله الى خراسان قبل ان يكشف امر العباسة • وكان حسن الظن باسماعيل وكثيرا ما ذكر فضل بيته على الدولة بين يديه واسماعيل يوافقه فقال : «والله يا اسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك الا بفضلي ، ولا قامت هذه الدولة الا بنا • أما كفى اني تركته لا يهتم بشيء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته ، وقد ملأت بيوت أمواله أموالا ، ولا زلت للأمور الجليلة أدبرها حتى يمد عينه الى ما ادخرته

لولدي وعقبي من بعدي ، وحتى يدب فيه طمع بني هاشم . والله لئن سألني شيئا من ذلك ليكونن وبالا عليه سريعاً» .

فندم اسماعيل على مجيئه اليه ، وخاف ان يترتب على حديثه أمر يبلغ الرشيد فيعده منه افشاء ، فغيَّر الحديث حتى اغتنم فرصة للاستئذان وخرج .

أما جعفر فعاد الى صوابه بعد ذهاب اسماعيل فرأى انه اخطأ بما بدر منه طعنا في بني هاشم واسماعيل منهم . فسبق الى وهمه انه ربما باح للرشيد بما سمعه منه فلا يبقى سبيل للصلح ، فزاد تمكنا من عزمه على الفرار بالعباسة والولدين ، وصفق فجاءه خادمه حمدان ، وكان حسن الاعتماد عليه ، فأسر اليه عزمه وقال له : «نحن غدا مسافرون الى معسكرنا في النهروان ، فاذهب الى عتبة وقل لها ان تخبر مولاتها العباسة ان تكون على أهبة الرحيل ريثما أبعث اليها من يحملها الي . أفهمت ؟»

قال : «نعم يا مولاي فهمت» . وخرج حمدان مسرعا .

★ ★ ★

كانت العباسة اثناء هذه الحوادث وعلى ثر اجتماعها الاخير بجعفر وما سمعته من الوعد بالذهاب الى خراسان لا تنفك تفكر في هذه الامنية ، وهي لا تصدق انها تظفر بها ، لانها كانت تفضل الاقامة مع زوجها وولديها سالمين آمنين بكوخ حقير على الاقامة بتلك القصور الفخمة تحت الخطر وبين الرقباء . ولاسيما بعد ان اطلع ابو العتاهية على سرها ورأى ولديها بعينه وحدث ما حدث له . فكانت لا يهدأ لها بال خوفا من بلوغ ذلك الى اخيها . وكانت لا ترى اثنين يتساران الا ظنتهما يتكلمان عنها ، ولا ترى كوكبة من الفرسان مارة بقرب قصرها

الا حسبتها آتية للقبض عليها • ولم تكن تتعزى الا باجتماعها بجاريتها عتبة ، فكانت تبوح لها بمخاوفها وهذه تطمئنها وتمنيها ، حتى علمت في ذلك اليوم ان الرشيد عقد لجعفر على خراسان ، ورأت الناس يتسابقون في الطرق لحضور الاحتفال بذلك ، فكادت تطير فرحا • ومكثت تتوقع ان يأتيها رسول جعفر فمضت عدة ساعات حتى علمت بخروج أعـــوان جعفر ورجاله الى النهروان ولم يأتها الرسول ، فخطر لها ان يكـــون حبيبها قد شغل عنها ، وشكت في صدقه • والمحب كثـير الشكوك • وهمت بالشكوى الى عتبة وكانت جالسة معها على الشرفة التي انتظرت فيها جعفر منذ ايام • واذا بحمدان مقبلا بلباس خدم قصرها ، فلما رأته قادما ارسلت عتبة لاستقباله وتلقي الرسالة منه ، فلما لقيها قص علبهـا نبأ المهمة التي اتى بها ، وألح عليها ان تبلغ مولاتها ن تكون على أهبة السفر بما خف حمله وأن تتنكر بلباس بعض الجواري . حتى اذا جاء الرسول لا يحتاج في اخراجها الى اكثر من كلمة • فلما خبرتها عتبة بذلك بكت من شدة الفرح وأمرتها باستدعاء حمدان اليها لتسمع تلك البشرى من فيه ، فدخل ووقف متأدبا فقالت له :

«كيف فارقت سيدك ؟»

قال : «بخير يسلم عليك يا مولاتي» •

قالت : «ومتى تظننا نخرج من هنا ؟»

قال : «ربما في صباح الغد» •

فالتفتت الى عتبة لفتة كأنما تذكرها بالولديـن الحسن والحسين • فقالت هذه : «انهما في مأمن مع الخادمين كما تعلمين ومتى خرجنا من بغداد بعثنا من يستقدمهما من الحجاز او من حيث يكونان وتتخلصين من هذه المخاوف» •

فتنهدت العباسة تنهدا عميقا ، ولكن البشر كان ينجلي في وجهها ،

فصرفت حمدان ودخلت الى غرفتها وأخذت عتبة في الاستعداد للسفر . وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل والعباسة منفردة في الغرفة فما لبثت ان اصابها رد الفعل فانقبضت نفسها وغلبت عليها عواطفها اذ تصورت نفسها هاربة من قصرها ومن بين يدي اخيها وانها ستترك ذلك القصر بما فيه من اسباب الراحة ، بعد ان ألفت قاعاته وحدائقه وأثاثه وخدمه وجواريه وكل شيء فيه . نعم انها تؤثر الاقامة مع حبيبها بكوخ على الاقامة وحدها بقصر . ولكن الانسان ابن العادة اذا ألف شيئا شق عليه فراقه فكيف بها وقد ربيت في ذلك القصر ولم تخرج منه الا نادرا . على انها كانت اذا تصورت ما ترجوه من الاجتماع بجعفر وولديها هدأ روعها . ثم يعترضها ا تخافه من نقمة اخيها اذا علم بفرارها فقد يحمله غضبه على تجريد الجيوش في طلبها فكادت هذه الهواجس تثني عزمها وهي تغالب عواطفها وتمني نفسها بالنجاة . وفيما هي في هذا تذكرت خادما لها كان امينا على سرها ثناء مخاوفها حتى جعلته رئيس الخدم في قصرها واسمه «أرجوان» . وكانت تستأنس به ابان اضطرابها وقلقها ، فرأت ان تصطحبه في فرارها فنادت عتبة وسألتها : «اين أرجوان ؟»

قالت : «هو هنا في القصر ، هل أدعوه ؟»

قالت : «نعم فاني ارى ان نصطحبه» .

فخرجت ثم عادت ومعها أرجوان ، وكان اسود اللون أصله من بلاد البربر في شمال افريقية ، وقد ربي في قصر المنصور وكان مقربا منه لان أم المنصور بربرية . وكان طويل القامة وأكثر طوله في ساقيه على طبيعة الخصيان . وهو يومئذ في نحو الخمسين من عمره ولولا قلة الشعر في وجهه لظهرت شيبته وبانت كهولته . ولكن الخصيان قلما يعرف عمرهم من النظر اليهم . وكان أرجوان قد ربى العباسة منذ طفولتها وأخلص الخدمة لها فألفته وأحسنت الثقة به . فلما استقدمته وقف بين

يديها ، فنظرت اليه والدمع في عينيها ، فلما رآها تبكي بكى معها وقال بصوته المؤنس وغنته الاعجمية : «بماذا تأمرين يا مولاتي ؟»

قالت : «نحن مسافرون وأحب ان تخرج معنا» .

قال : «اني عبدك وطوع امرك» .

قالت : «أتدري الى اين ؟»

قال : «حيثما تشائين ولو الى القتل» .

قالت : «بورك فيك يا أرجوان ، فاعمل مع عتبة في اعداد حوائجنا وهي تخبرك الخبر» .

قال : «سمعا وطاعة» . وخرج مع عتبة فقصت عليه ما هم فيه فأخذ في التأهب .

فلنتركهم ولنعد الى الرشيد .

- ١٣ -

الرشيد وزبيدة

كان الرشيد اكثر كتمانا لسره مما ظهر لاسماعيل . فانه على عظيم ثقته به لم يطلعه على ما ينويه لجعفر انتقاما منه لاطلاقه سراح العلوي . وهو انما ولاه خراسان . وعقد له عليها ليجربه ويستطلع كنه ما في ضميره ، فأهداه ذلك الخادم الجميل ليكون جاسوسا ينقل اليه اقواله وكان هذا الخادم واقفا ساعة زيارة اسماعيل بحيث يسمع ما دار بينه وبين جعفر ، فكتب بذلك الى الرشيد لساعته . فلما وصل كتابه اليه

تحقق سوء نيّة جعفر فعادت اليه مخاوفه ، وكان جالسا على سريره فلما قرأ الكتاب هب من مقعده وقد عظم الامر عليه ورأى الفرصة ضيقة لا تأذن باعمال الفكرة . وخيل اليه ان وزيره اذا خرج من بغداد أفلت من يده ، وأهل خراسان طوع ارادته فيسهل العصيان عليه . فلما تصور ذلك خفق قلبه وأشكل عليه أمره فأخذ يخطر في الغرفة ذهابا وايابا كأنه أصيب بجنة ، وأحس بحاجة الى من يفضي اليه بقرارة نفسه ولم يعد يرى ان يتحدث مع اسماعيل بعد الذي علمه من حديثه مع جعفر وصداقته له وان كان لا يسيء به الظن فكأنه يسعى الى من يجاريه في عزمه ويصوب رأيه ولا يحاجه كما فعل اسماعيل .

قضى ساعة مترددا حتى كاد يتقد غيظا ، فخطر له ان يشاور امرأته زبيدة في الامر على غير المألوف من شأن المرأة في ذلك العهد . وكان يحب زبيدة ويحترمها ويتبرك بمشورتها ويعلم بما بينها وبين جعفر من العداوة القديمة . فلما خطر له ذلك سري عنه . وكان الوقت نحو الغروب فدعا مسرورا وأمره ان يهيىء له برذونا ليركب عليه خفية الى قصرها (دار القرار) ولا يكون معه احد سواه .

فأعد له البرذون فركبه ، وتلثم ومشى مسرور في ركابه فلما اقبل على الدار لم يعرفه الحرس ولكنهم عرفوا مسرورا ففتحوا له ، فدخل الحديقة ثم ترجل الرشيد وأمر مسرورا ان يسبقه الى زبيدة فيخبرها بقدومه . فلما أخبرها ادركت انه انما جاءها في تلك الساعة لأمر خطير، فخرجت لاستقباله في القاعة التي استقبلت فيها ابنها محمدا منذ ايام ، وقد أضيئت فيها الشموع فزادتها بهاء ولبست أفخر ثيابها وتطيبت واستقبلته احسن استقبال وعليها العقود من الجوهر وفي رأسها الدبابيس المرصعة وفي صدرها الحلي المنمقة على أشكال بديعة ، حتى خفافها كانت ايضا مرصعة كما علمت . وأقبلت ترحب به وتلاطفه .

فابتسم لها على شدة غضبه وجلس على السرير وأخذ يدها وأجلسها بجانبه وهو يتشاغل بالنظر الى ما عليها من الحلي وقد زادتها الشموع لمعانا ورونقا . أما هي فلحظت ما يستر ابتسامته من الغيظ ، ولكنها تجاهلت وعادت الى الترحاب فقالت : «مرحبا بأمير المؤمنين لقد آنسني بلقياه وشرفني بقدومه فهل يأمر بطعام او شراب ؟»

فقال : «لم آتك للطعام يا ابنة العم !»

فقالت : «لخير جئت ان شاء الله» .

فمد يده الى جيبه وأخرج الكتاب الذي جاءه من جاسوسه ودفعه اليها ولم يتكلم . فتناولته وقرأته وهو يراقب ما يبدو منها ، فلما فرغت من قراءته أعادته اليه وهي تضحك فقال لها : «اراك تضحكين كأنك لم تقرئي الكتاب ؟!»

قالت : «بلى قرأته !»

قال : «لا أظنك تدركين فحواه الا اذا اخبرتك بما ارتكبه هذا الفارسي» .

فلما سمعت قوله ظنته اطلع على خبر لعباسة فتجاهلت وقالت : «وماذا ارتكب ؟»

قال : «انه اطلق سراح العلوي الذي لم نقبض عليه الا بشق الأنفس ولم نكد نصدق اننا حبسناه وأمنا شره حتى أطلقه . وأنت ترين من الكتاب ان هذا العبد قد شمخ بأنفه حتى اصبح يهددنا . فمن يضمن لنا انه اذا سار الى خراسان لا تحدثه نفسه بالتمرد فيعصانا وتخرج خراسان من أيدينا . فأشيري علي فاني أتبرك بمشورتك» .

فضحكت زبيدة ضحكة يمازجها التهكم والاستخفاف ، ولم يكن احد من اهل الخافقين يجسر على ذلك بين يدي لرشيد سواها لانه كان يحبها ويحترم رأيها ولها عليه دالة القرابة وسلطان الحب ، فكيف اذا

أضيف اليهما نفوذ صاحب الحق لانها كثيرا ما نصحت له بأن يعدل عن الاستسلام لجعفر وأهله فلم يكن يطيعها بل كان يحمل ذلك منها علـى الغيرة منهم • فلما جاءها الان يشكو عواقب استسلامه نظرت اليه نظر الظافر وقالت : «مثلك يا امير المؤمنين مع البرامكة مثل رجل سكران غرق في بحر عميق ، فان كنت قد صحوت من سكرتك وأنقذت مـن غرقك أطلعتك على ما هو اعظم من ذلك بكثير • وان كنت لا تزال على الحالة الاولى تركتك» •

فأثرت لهجتها في نفس الرشيد تأثيرا شديد • ولولا حرمتها عنده ما أمسك عن الفتك بها فقال لها : «قد كان ما كان • فقولي آي شـــيء اعظم من هذا ؟»

قالت : «ان الامر الذي أشير اليه قد اخفاه عليك وزيرك ، وهـو أصعب مما انت فيه وأشنع» •

فغضب الرشيد وقال : «ويحك وما هو ؟ قولي» •

فأعرضت بوجهها عنه وقالت : «أجل نفسي عن الكلام فيه ، ولكن تحضر أرجوان الخادم وتشدد عليه وتوهنه ضربا فانه يعترف لك» •

فكاد الرشيد يتقد غيظا ، فنهض وقال : «أرجوان خادم العباسة أختـــي ؟ »

قالت : «نعم خادم العباسة اختك» •

فقال : «اين هو ••؟»

فصفقت فجاءها احد الشاكرية الواقفين ببابهـــا فقالت : «اذهب لساعتك وادع لنا أرجوان الخادم من قصر العباسة» •

فأجاب مطيعا وخرج ، وظل الرشيد في انتظاره كأنه على الجمر ، وزبيدة جالسة بين يديه ولم يفه احدهما بكلمة •

وكان أرجوان مطلعا على سر مولاته وسبب سفرها ، حريصا علـى

راحتها متفانيا في سبيل مرضاتها . والخصيان اذا طابت سرائرهم كانوا نعمة لمواليهم ، فالرجل منهم ينسى نفسه وينقطع لخدمة مولاه بكل جوارحه . ولعل السبب في ذلك انهم لا يتزوجون فلا يعلقون بولد او امرأة فتنصرف عواطفهم الى مواليهم يسرون لسرورهم ويحزنون لحزنهم، لا يبالون بما يقاسونه في سبيلهم سواء أكان مولاهم على حق فيما يعمله ام كان على باطل .

وكان أرجوان من اطيب الناس قلبا وأشدهم تفانيا في خدمة العباسة. ونظرا لما تتمتع هي به على يده من اسباب الراحة بما يسهله لها من دخول جعفر الى قصرها وخروجه ، كانت تبالغ في اكرامه وتحسن معاملته وهو يزداد تعلقا بها .

وكان ذلك المساء في شاغل من التأهب للسفر واذا بالخدم يدعونه، فخرج فرأى شاكريا ينتظره بالباب فعرف انه رسول من زبيدة فقال : «ما وراءك ؟»

قال : «أجب مولاتنا أم جعفر» .

قال : «الساعة ؟»

قال : «نعم في هذه الدقيقة» .

قال : «تمهل حتى أخبر مولاتي بذلك» .

قال : «لا حاجة الى اخبارها فانها كلمة تقولها مولاتنا لك ثم تعود». فصدقه وخرج والعباسة لا تعلم .

أما الرشيد فمل مجلسه فنهض وتمشى في فناء الدار وهو يرتعد من شدة الغضب ويسائل نفسه عما عسى ان يكون ذلك الامر العظيم حتى تأبى زبيدة التصريح به وتحيله على الخصي فخالجه الظن بأنها فضيحة تمس العرض . ثم سمع وقع أقدام في الحديقة فعلم ان الشاكري قد عاد فرجع الى القاعة ، وكانت أم جعفر قد خرجت منها لئلا تسمع ما يدور

بين الرشيد والخصي .
فدخل الشاكري وقال : «أرجوان بالباب يا امير المؤمنين» .
فقال : «هاتوا السيف والنطع» .
فأتاه الشاكري بهما فبسط النطع في الدهليز خارج القاعة ، ووضع السيف بجانبه . ثم قال : «اين أرجوان ..؟ ادخله» .
ولما سمع أرجوان صوت الرشيد مغضبا سقط في يده ، فدخل وركبتاه تصكان من الخوف ووقف متأدبا ، ولما رأى النطع والسيف لم يعد يستطيع الوقوف ولم يجسر ان يرفع بصره عن الارض ، فأشار الرشيد الى مسرور بأن يبعد الخدم والشاكرية وأن يغلق الابواب حتى لا يعلم احد بما يحدث ، ثم نظر الى أرجوان وقال : «ان لم تصدقني حديث جعفر ، فلا نجاة لك من القتل !»
فعلم انه يسأله عن امر جعفر مع العباسة ، فظل ساكتا ولو اراد كلاما لما أطاعه لسانه من شدة الخوف . فصاح الرشيد : «ما بالك ؟. تكلم والا فهذا النطع والسيف» . ثم صاح : «مسرور !»
فحضر ذلك الرجل الغليظ القلب بأسرع من لمح لبصر ، فأشار الرشيد اليه فاستل السيف ووقف بجانب النطع ينتظر أمر الخليفة . فلما رأى أرجوان ذلك جثا عند قدمي الرشيد وأخذ يقبلهما ويبكي ، فتلطف الرشيد في خطابه وقال بصوت هادىء : «قل الصدق ولا تخف . ما الذي تعلمه من أمر جعفر وأهل القصر ؟ قل حالا» .
فقال وصوته يختنق ولسانه يتلعثم من الخوف والبكاء : «الامان يا امير المؤمنين» .
قال : «نعم لك الامان ان نطقت بالصدق ، وان لم تتكلم فنحن مطلعون على كل شيء فنقتلك بهذا السيف» .
فحدثته نفسه ان يحافظ على سر مولاته فداء لها بنفسه ، ولكن

غريزة الضعف امام الموت غلبت عليه ، وهي تغلب على كبار الرجال في مثل هذه الحال فكيف بعبد خصي مهما يبلغ من اخلاصه • فانتحل لنفسه عذرا بأن الرشيد لم يسأله الا وهو عالم بكل شيء فاذا انكر وقتل فلا يجدي موته مولاته شيئا • أما اذا اعترف وظل حيا فقد يستطيع انقاذها او خدمتها • مرت تلك الخواطر في ذهنه كما يمر البرق الخاطف وأحس بوخز في ضميره ان هو باح بسر مولاته ، وجمد ريقه في فمه وتلعثم من هول موقفه ولحظ الرشيد تردده فصاح فيه : «قل • او اقتلك ؟»

فقال وصوته يتلجلج : «ان جعفر تزوج اختك العباسة منذ سبـــع سنين وولدت منه ثلاثة بنين : احدهم له ست سنين ، والاخر له خمس سنين ، والثالث ••• عاش سنتين ومـــات من قريب • والاثنان ••• آرسلا •• لى مدينة الرسول •• وهي حا •• مل •• بالرابـــع ••»

واختنق صوته •

وكان الرشيد يسمع كلامه والشرر يكاد يتطاير من عينيه فلما فرغ آرجوان من كلامه قال له الرشيد : «كيف تعلم بهذا ولا تخبرني ؟»

فتشدد أرجوان عند هذا السؤال وقال : «انت أذنت لوزيـــــرك بالدخول على اهل بيتك ، وأمرتني ألا امنعه في ي وقت شاء ليلا او نهارا » •

فقال وهو يحرق اسنانه : «امرتك ألا تحجبه • فلم لم تخبرني اول مرة« • ثم التفت الى مسرور وقال : «اضرب عنقه» •

فأمسكه مسرور بيد من حديد وجره الى النطع بعنف كأن له عليه ثأرا فسقط أرجوان وهو يصيح : « لامان الامان» •

فلم يمهله مسرور حتى يقول الثالثة مخافة ان يجيب الرشيد طابـه فيعفو عنه وهو سفاك غليظ القلب يلذ له منظر الدماء ويفتخر بعدد الذين قتلهم وبسرعة فتكه بهم فابتدر أرجوان بضربة سيف علـــى عنقه فأزاح

رأسه عن كتفيه .

أما الرشيد فحول وجهه وسأل عن زبيدة فدلوه على غرفتها فدخل عليها وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيما ، وكانت جالسة على فراشها وقد اطرقت تفكر . فلما رأت الرشيد داخلا تحفزت للقيام ولم تقم . اما هو فلم يلتفت الى شيء لما هو فيه من الحنق ، وقال وصوته يرتجف ولحيته ترقص وقد امتقع لونه : «أرأيت ما عاملني به جعفر ؟» وما ارتكب من هتك ستري وفضيحتي بين العرب والعجم» .

فقالت بصوت هادىء وجأش رابط : «هذه ارادتك . عمدت الى شاب جميل الوجه حسن الثياب طيب الرائحة جبار في نفسه وأدخلته على ابنة خليفة من خلفاء الله وهي احسن منه وجها وأنظف منه ثوبا وأطيب رائحة . لكن هذا جزاء من جمع بين النار والحطب» .

فقال : «ألا تزالين تعنفينني . والله لماحون هذا العار بالدم» .

فسرها تهديده وأحبت ان تمكنه من عزمه انتقاما من جعفر فقالت : «اخشى ما أخشاه ان يأخذك عليه عطف الأخوة اذا رأيته فتعفو» . قالت ذلك وهي تتشاغل بثنية أهداب كمها المزركش بالقصب والغضب والعتب في عينيها .

فأشعر الرشيد بما في كلامها من التأنيب ، وانها على صواب فيما توجهه اليه من اللوم المستتر على ان أصم أذنيه عن مشورتها ، ولكنه استكبر ان يسمع من احد كائنا من كان نقدا . فكظم وقال : «كفى يا ابنة العم وعلينا الآن ان نأخذ الحيطة لكتم جو هذه الفضيحة ، فوالله ما عرف بها احد الا قتلته عسى ان امحو وزر أختي ووزيري الذي كنت أدعوه اخي» .

وكانت أعلم الناس بطبعه وبتضارب عواطفه وتردده ، وأحست انه يهم بالخروج فوقفت وحاولت ابقاءه عندها فأبى وودعها غير آبه لما

خجلا او حنقا ، فأمسكت بيده واستوقفته فوقف فقالت : «تمهل .. ألا تحب ان تعرف اين الغلامان ؟»

فأجفل وقال : «الغلامان ؟.. علمت انهما في المدينة» .

قالت : «كلا بل هما في مكان قريب اعرفه ، أحضرهما متى شئت».

فقال : «في بغداد ؟» . قالت : «نعم» .

فتحول عنها وصاح وهو في القاعة : «مسرور» .

فحضر مسرور بأسرع من البرق فقال له وزبيدة واقفة : «هل رأيت شيئا الليلة ؟»

قال : «كلا يا مولاي فأنا أصم أعمى» . اشارة الى مبالغته في الكتمان . فأمره بأن يأتيه بالبرذون وسار في اثره فأتاه به فركبه وسار الى قصر الخلد ، ومسرور يعدو في ركابه وقد مضى هزيع من الليل فقطع الطريق غارقا في الهواجس ، وقد نسي نفسه لما جاش في خاطره من امر العباسة . وأعمل فكرته فيما دهمه . الامر العظيم فرأى ان ملكه وسطوته وأمواله وكل ما حازه من نعيم الدنيا لا يخفف عنه وطأة ذلك المصاب . وحدثته نفسه ان يستقدم اخته او يذهب اليها ويفتك بها . ولكنه خاف الفضيحة فصبر نفسه الى الغد .

- ١٤ -

بين الرشيد والعباسة

كانت العباسة في غفلة عما يدبرون ، لانهماكها في اعداد معدات

السفر ، وعتبة الى جانبها تبذل جهدها في تسليتها وتطييب خاطرها وتمنيها بما أعدته لها من اسباب الهناءوالسعادة متى خرجت من بغداد وأقامت بخراسان ، اذ يكون زوجها صاحب السلطة فيها . وكانت العباسة اذا اهتدت بهدي عقلها رأت انها تعرض نفسها لخطر عظيم ربما آل الى سفك الدماء . أما اذا اطاعت وحي قلبها وتصورت اجتماعها بزوجها بعيدة عن الرقيب منصرفة الى تربية ولديها تحت كنف ابيهما فتبرق أسرتها وتنبسط نفسها ، ثم يعترضها علم اخيها وغضبه فتعود الى لانقباض . ثم طرأ عليها فجأة خاطر ازال قلقها . وذلك ان تكتم اسمها وخبرها في خراسان فتعيش مع زوجها وولديها مستترة حتى يقضي الله بما يشاء .

وفيما هي في ذلك رأت عتبة تعدو نحوها والبغتة ظاهرة في وجهها، فخفق قلبها وتصاعد الدم الى محياها ولم يكن من شيء أسرع الى وقوع الرعب في ذلك القلب لما يحيق بصاحبته من الاخطار من كل صوب ، فلما رأت عتبة على ما هي عليه من الاضطراب صاحت بها : «ما وراءك؟»

قالت : «أرجوان !» . وسكتت .

فبغتت العباسة وقالت : «ماذا جرى له ؟»

قالت : «لا اعلم اين هو !»

قالت : «أليس في القصر ؟ ابحثي عنه لعله في بعض الغرف يهيىء معدات السفر» .

فهمت بالخروج وهي لا تنويه ثم عادت ووقفت متحيرة وأطرقت فازدادت العباسة خوفا وقالت : «ما بالك ؟.. ماذا جرى له . قولي اين هو ؟»

قالت : «لا ادري يا مولاتي ، وقد اخبرني الخادم انه خرج من القصر و .. »

فقطعت كلامها قائلة : «خرج من القصر ؟! أيذهب في مثل هـــذه الساعة ؟ اين ذهب ؟»

قالت : «لا أعلم ..» . وغصت بريقها .

فقالت العباسة : «ويحك قولي .. اين هو ؟»

قالت : «أظنه .. ذهب الى قصر دار القرار» .

فصاحت : «دار القرار ؟. الى أم جعفر ؟ ما شأنه هناك ؟»

قالت : «علمت ان شاكريا جاء في طلبه على عجل ولم يمهلـــه ليستأذنك » .

فعضت العباسة شفتيها وأطرقت لحظة ثم قالت : «شاكري جاء في طلبه ؟. وما ظنك بهذا ؟»

قالت : «أظنه ذهب لأمر مخيف !»

فقالت : «مخيف ؟! ولماذا ؟. قد يكون ذلك لأمر تافه» .

قالت : «بل ذهب لامر مخيف ، لان امير المؤمنين هناك الليلة» .

فدقت العباسة يدا بيد وصاحت : «امير المؤمنين هناك ؟ ومن أنبأك بذلك ؟ قولي ... لقد أزعجتني يا عتبة» .

قالت : «علمت هذا من جاسوس لنا في قصر الخلد جاءني منـــذ ساعة وأخبرني ان الرشيد ركب برذونه وجاء الى دار القرار ومعه الخادم اللعين مسرور ، ولم أعر الامر اهتماما بادىء ذي بدء ، فلمـــا علمت بذهاب أرجوان وقع الرعب في قلبي فجئت اليك .. اني خائفة مـــن العاقبة يا سيدتي !»

فأطرقت العباسة وقد اخذ الخوف منها مأخذا عظيما ، وفكرت فيما سمعته وارتبكت وقالت : «ماذا تخشين من وجود اخي هناك . وعلـــى كل حال فنحن على أهبة السفر غدا» .

قالت : «صدقت . قد فرغت من الاستعداد فاذا رجع أرجوان ورأينا

في الامر ما يدعو الى التعجيل خرجنا لساعتنا» .

قالت : «ولكن الوزير أمرنا ان نتربص ريثما يأتينا رسوله» .

قالت : «سنرى . سأرسل خصيا ليأتينا بنبأ أرجوان» .

قالت : «افعلي» . وتحولت عنها الى الشرفة التي تعودت ان تــرى منها رسول جعفر . وخرجت عتبة لارسال الخصي .



وقفت العباسة في الشرفة وعيناها شائعتان نحو الطريق والظـــلام يحجب بصرها وكلما رأت شبحا ظنته رسول جعفر .

ظلت على ذلك حتى انتصف الليل والشجون تتقاذفها ، فلمــــا استبطأت عتبة همت بأن تبعث في استقدامها فاذا بها آتية تعدو والدمع ملء عينيها وقد نبش شعرها وامتقع لونها وابيضت شفتاهـــا فصاحت العباسة : «ما بالك يا عتبة ؟ لماذا تبكين ؟.. ماذا دهاك ؟»

فأسرعت عتبة وأمسكتها بيدها وجرتها الى حافة الشرفة . وهـــي ترعش خوفا وقالت : «اذهبي يا سيدتي .. انزلي من هذه الشرفة .. انجي بنفسك !»

فقالت : «ماذا جرى ؟ هل عاد الجاسوس وماذا قال ؟»

قالت : «عاد ولم تنفعنا عودته !.. انزلي من هذه الشرفة واختبئي في الطريق حتى أرسل اليك من يصحبك الى مولاي الوزير . انزلي . هيــــا » .

فاستغربت وقالت : «ماذا جرى .. قولي» . فقالت وصوتها يرتجف ويتقطع : «امير المؤمنين .. يا مولاتي .. امير المؤمنين» . وأومــأت بيدها الى الداخل .

ففهمت ان الرشيد جاء القصر وأدركت ان الامر بلغ أشده لان اخاها لا يأتيها نصف الليل الا لأمر عظيم . فعظم عليها الامر لاول وهلة فوقفت ، ثم اخذتها عزة النفس وزال ما كانت فيه من الاضطراب وأكبرت ان تفر وهي لا تضمن النجاة : وتحولت رعدتها الى سكينة وثاب اليها رشدها فبقيت مكانها وعتبة تشد بهدب ثوبها وتحثها على الفرار من الشرفة . ثم سمعت وقع أقدام فجذبت ثيابها من عتبة وقالت: «دعيني فاني أريد ان ارى اخي وجها لوجه وأسمع ما يقول» . ثم تراجعت وهمست اليها قائلة : «ارسلي رجلا سريع الخطى الى الوزير ليطلعه على ما جرى ليأخذ حذره مخافة ان يصيبه ما اصابنا لان مجيء اخي في هذا الهزيع من الليل على هذه الصورة ينذر بشر مستطير» .

قالت ذلك ونزلت من الشرفة الى الدار ، فلقيت الرشيد مارا في الدهليز متجها نحوها وعليه ثوب بسيط فوقه عباءة واسعة ، لانه جاءها متنكرا ، وكان قد ذهب الى قصره على ان يؤجل امرها الى الغد ، فعظم قلقه واشتد أرقه فبادر اليها مستصحبا مسرور خوفا من ان يبلغها غضبه فتركن الى الفرار . ولم يكن يتوقع ان يراها خارج لفراش فكيف وقد شاهدها تتأهب للسفر .

أما هي فتجلدت ورحبت به قائلة : «لقد شرفني اخي بزيارته» .

فلم يجبها بل ظل ماشيا الى مقصورة لها في بعض جوانب القصر تعود ان يجالسها فيها اذا زارها ، فتبعته وركبتاها تصطكان وهي تضبط شعورها ، وقد ذهب عنها خوفها ، لان توقع المصيبة شر من وقوعها . وكبير النفس اذا تراكمت عليه المخاوف وتحقق وقوع الخطر تجلد ورجع اليه رشده . وهكذا هي فانها تشددت وقام في نفسها ان تناقش اخاها الحساب فاذا قتلت بعد ذلك فلا تأسف على الحياة .

وكانت عتبة تمشي في ثرها تبكي وتتمتم ، فأشارت اليها ان تنصرف

لانجاز المهمة التي كلفتها بها . ورأت العباسة في دهليز الدار مسرور الخادم واقفا فلما وقع نظره عليها حياها باحترام فلم تجبه . وما زالت تمشي وراء الرشيد حتى دخل المقصورة وفيها كرسي قعد عليه. وتوسمت العباسة في وجهه الغضب الشديد حتى كاد الشرر يتطاير من عينيـــــه فتجاهلت ووقفت امامه تنظر ما يبدو منه .

اما هو فأمرها باغلاق الباب فأغلقته ووقفت بجرأة لم يعهدها فيها من قبل فابتدرها قائلا : «اراك في ثياب السفر يا عباسة فالى اين ؟»

قالت : «الى حيث لا ارى اخا ولا اخاف ظلّما» .

فعظم عليه ان تفاجئه بهذه الجسارة ، على حين توقع منها تذلـــــلا وتضرعا . فحمي غضبه ثم تجلد ليرى بماذا تجيبه عما اراد ن يسألها فيه فقال : «أتعلمين لماذا جئتك والناس نيام ؟» . قالت : «كلا» .

قال : «فلماذا بادرتني بهذه القحة ؟»

قال : «سألتني سؤالا فصدقتك الجواب» .

قال : «لقد تأخرت في الصدق بعد الخيانة التي ارتكبتها» .

قالت : «لا اعرف اني ارتكبت خيانة ما .. ولو سألتني هذا السؤال من قبل ما كذبتك» .

قال : «ألم تكوني اخت امير المؤمنين ؟»

قالت : «بلى . وما زلت أخته فيما اعلم» .

قال : «أمثلك تخون اخاها مع رجل من الموالي ؟..»

قالت : «اني لم أرتكب خيانة قط ، وما كنت لأخون اخي او سواه!»

قال : «أهكذا تجيبينني ؟ لقد اصبح امرك مشهورا حتى أذللتني بين الملأ بما اتيته من الخيانة !»

قالت : «وأي أمر تعني يا هرون .. لعلك تعد الصدق خيانة ؟»

قال : «أعني امرك مع جعفر الذي لم يرع حرمتـــــي ولم يخش

سطوتـي » .

فأحبت عند ذلك ان تجادله بالتي هي احسن عسى ان يرق لهـــا ويستبقيها فقالت : «ان الوزير لم يخرق لك حرمة ولا اراد بك سوءا . فارفق يا اخي ولا تعجل في حكمك» .

فصاح فيها : «لا تدعيني اخا . فاني بريء منك» .

قالت : «تبرأ مني ما شئت . ولكن ذلك الرجل لم يرتكب اثما» .

قال : «ويحك ألا تزالين تحاولين الكتمان ؟. لقد علمت كل شيء ، وأطلعني أرجوان خادمك الخائن على سرك ، فاذا انكرت فان ولديكما يشهدان ! »

فلما سمعت ذكر ولديها تحرك حنانها وخيل اليها انها اذا جافته دعته الى ايقاع الاذى بهما ، فصغرت نفسها وضعف عزمها وغلب عليها الحنان واستسهلت في سبيل نجاتهما ان تتذلل وتستعطف . فجثت عند ركبتي الرشيد وأرادت ان تتكلم فسبقتها العبرات فظنها تهم بالاعتراف توطئة للاستغفار فحول وجهه عنها وقال : «لقد علمت اني مطلع على حقيقـــة امرك فلم تري بدا من الاعتراف والاستعطاف ولكن هيهات . فان من يأتي فعلتك لا علاج له غير القتل» .

فكفكفت الدمع وتجلدت وهي جاثية وقالت : «اني لا أستعطفك لاجلي ، ولا جريمة لي ولكنني اطلب حقا لا اخالك تنكره علي» .

قال : «وأي حق تعنين ؟»

قالت : «تمهل يا امير المؤمنين . ولا اقول يا اخي لئلا أغضبك . تمهل وأنا اذكر لك ذلك الحق» . فتجلد وقال : «قولي» .

قالت : «ألم تعقد علي لجعفر عقدا شرعيا صحيحا ؟»

قال : «بلى ، ولكنني فعلت ذلك لاجل ان ينظر احدكما الى الاخر، وليس لما وراء ذلك» .

قالت : «وهل يصح العقد هكذا ؟» وهل من الخيانة ان ننفذ حكم الشرع ؟ »

قال : «لا توّاربي فانكما علمتما عند كتابة العقد ان المراد منـــــه الاستمتاع بالنظر لا يتعداه وذلك لرغبتي في مجالستكما لاني احبكمـا وأحب حديثكما . فهل هذا جزاء المحبة ؟» . وهز رأسه وحرق اسنانه.

قالت وفي صوتها لين : «يرى امير المؤمنين اننا كنا قبل العقد خيرا منا معه ؟ »

فقطع كلامها وقال : «لا ريب في ذلك فبعد ان كنتما من أحب الناس الي صرتما أبغض الأبالسة عندي» .

قالت : «ولماذا ؟ الأننا اتينا امرا أحله الله وحرمته انت ؟» أليست طاعة الله أولى من طاعة امير المؤمنين ؟»

فلما رآها تكاد تفحمه اشتد غيظه ليس لانه ادرك وجه الحق عندها. وليس لاتهامها اياه بأنه يتعمد أذيتها ظلما وبهتانا ، ولكــن العادة غلبت على طباعه ، فقد تعود ألا يسمع غير التأمين على ما يقول والتنفيذ لمـا يريد ، حقا كان او باطلا ، شأن اصحاب السلطة المطلقة ولاسيما في تلك العصور ، حيث يكثر المتملقون الذين يتزلفون الى ولي الامر بالاطـراء والاغراء لا يبالون عواقب تغريرهم . فيستبد الحاكم فكرا وقولا وفعلا حتى ينسى ميزان الحق ويسوغ لنفسه ما لا يسوغه لسواه كأنه مــن طينة غير طينة البشر . فيبدو له انه صاحب الحق دائما . نعم ، لا يلام الرشيد اذا أصر على تخطئة العباسة وتجاهل قوة حجتها ، فعذره انه شب على انفاذ كلمته حتى صار الاستبداد طبيعة له تتغلب على عقله وسداد رأيه ولاسيما في حال الغضب . فلما سمع حجة العباسة عمد الـــى الاستعانة بسلطته الشخصية فقال : «ولكنني نهيتكما فعصيتماني ومن عصى امير المؤمنين حق قتله !»

قالت : «اذا لم يكن بد من ان تعد عملنا عصيانا ، فأنا العاصية وليس هو .. ولا ..»

فانتهرها وقال كأنه يتحفز للوثوب : «اراك تحبينــــه وتتحملين العبء عنه ؟»

فهاجت اشجانها وقالت : «نعم احبه . ولولا ذلك ما خالفت امـرك فيه . نعم احبه وأراه اهلا لمحبتي ومحبة من هو اعظم مني ، لانه من خاصة الناس . وقد اتى اعمالا ترفع من قدره فوق أقرانه . وليس ارفع قدرا منه غير امير المؤمنين وحده» . قالت ذلك وقد عادت اليها الانفة ولمعت عيناها واحمرت وجنتاها كأنها خجلت مما صرحت به علـى خلاف المأمول في نساء ذلك العصر ولاسيما في حضرة الخليفة .

فقال الرشيد : «ويحك أتعترفين بحبه في حضرتي ، ثم تفضلينه على سائر الناس حتى بني هاشم جميعا ؟ انك مهما رفعت في قدره فهو مولي أعجمي . لا تجادليني بالمحال فانه مقتول !»

فلما سمعته يهدد بقتله ارتعدت وعاد اليها ضعفها وهان علَيها التذلل في سبيل انقاذ حبيبها وولديها . فتجلدت وعمدت الى الملاينة فقالت : «هرون .. اخي هرون !.. بل امير المؤمنين . اذا كنت تنكر العباسـة الان فاذكر انها كانت اختك وكنتما صغيرين تلعبـــان معا وتتحابان . فاسمع لها واقبل شفاعتها في الوزير ، فانه وزيرك ولم يقصر فـــي خدمتك .. أتقتله وهو لم يرتكب ذنبا ؟. واذا لم يكن من قتله بـــد فاقتلني انا . انا المخطئة لا هو» .

فقال وهو يضحك استخفافا : «وأنت ايضا تقتلين . وسأقتل ولديكما لأمحو هذا العار من الوجود !»

فلما سمعته يهدد بقتل الولدين اقشعر بدنها ونهضت وصاحت بصوت مختنق : «تقتلهما ؟.. ما ذنبهما ؟. انهما طفلان بريئان .. انهما ملاكان

لا يعرفان حلالا ولا حراما . بالله ألا أشفقت عليهمـــا ؟» . ثم ضمت يدها الى صدرها وقالت : «ولدي .. آه .. يا امير المؤمنين .. رفقـا بذينك الطفلين» .

قالت ذلك وصوتها يتقطع وتكاد تشرق بدموعها . فكاد يرق الرشيد لها وتتحرك فيه عاطفة الأخوة والابوة ولكنه تمالك نفسه وعاد الى ما كان فيه من الغضب والرغبة في الانتقام . ولاسيما انه توهم ان وزيره انما استولد العباسة ليكون في ولده دم هاشمي يخول له تقلد الخلافة وهي يومئذ مقصورة على القرشيين . فكان يسمع استعطاف اختـــه ويغالب عواطفه ولاسيما لما سمعها تدافع عن الولدين وهو يعلم براءتهما ولكنه يرى بقاءهما خطرا عليه فأجابها بقوله : «اقتلهما لأخفي هذا العار من الوجود» .

فعادت الى التذلل رفقا بالولدين فقالت وهي تبكي وتشهق : «اشفق يا اخي .. نعم يا اخي .. فانك اخي .. تذكر الرحم .. واذا كنت لا تزال تعد عملنا خيانة فاقتلنا كلينا واستبق ذينك الولدين فانهما بريئان !»

فقال : «انما يؤخذن بذنبكما ولا يمحو هذا الذنب غير القتل» .

فلما رأت الاستعطاف لا يجدي عادت اليهـــا انفتها وعزة نفسها ، فمسحت دموعها ونظرت الى الرشيد نظرة كادت تخترق صدره وقالت : «ألا تزال تعد عملنا ذنبا ونحن انما اطعنا امر الله ؟»

قال : «لا تحاولي محالا فقد عصيتما امير المؤمنين . فحق عليكمـــا العقاب» . ووقف كأنه يهم بالخروج فاستوقفته وقالت : «لقد احرجتني يا هرون حتى الجأتني الى التصريح بما لم تتعود سماعه مني ولا من احد سواي . كيف تحرم علينا امرا تحله لنفسك ؟»

فانتهرها ويده على قبضة خنجره قائلا : «هل سعت بك القحة الى ان تتهميني بمثل فعلتك ؟»

قالت : «نعم اقول ذلك ولا اخاف لائما .. فما تحاسبنا عليه ليس الا زواجا شرعيا انت عقدته . ولكني أذكرك بمن في قصرك من الجواري والسراري فانهن كثيرات لا ترى بأسا من التمتع بهن والشرع لا ينهاك عنهن . فكيف تنهاني عن زواج واحد شرعي . أليس ذلك من الظلم ؟. ألا تتهادون الجواري بالعشرات والمئات ؟. ان زوجك أم جعفر قد اهدتك عشر جوار من اجمل النساء . وقد فعلت ذلك وهي لا ترى فيه حطة ولا ذنبا لك او لها ، ولكنكما تريان ذنبا لمثلي ان تتزوج من رجل عقدت له عليها . فاذا استعطفتك غضبت وهددتها بالقتل وهددت زوجها به ايضا وزدت على ذلك قتل طفلين لا ذنب لهما . ولم تقبل فيهمـــا شفاعة أم رضيت ان تقتلها وتبقيهما !»

فلما سمع قولها ورأى جرأتها لم يعد يطيق صبرا على رؤيتها فانتهرها قائلا : «اراك تماديت في القحة وقد اخطأت اذ افسحت لك مجال القول. وقد نفد صبري وآن لي ان افرغ منك» . ثم نادى : «مسرور !»

فدخل ذلك الفرغاني غليظ القلب وحسامه الى جانبه ، فلما رأتــــه استعاذت بالله من رؤيته وتحققت دنو منيتها ، فالتفتت الى الرشيد وقالت: «اني مقتولة الان لا محالة ، وليس من يدفع عني هذا القضاء ، فاذا كنت لا تصدقني عن نفسي فاني أتقدم اليك ان تصدقني في جعفر فانه لا يستحق القتل ولا ذنب له في شيء مما تتهمه به ، وارفق بالطفلين». قالت ذلك وخنقتها الدموع .

اما الرشيد فصاح بمسرور : «هل أوصدت ابواب القصر وحبست اهلــه ؟ »

قال : «نعم يا مولاي» .

قال : «وأين الخادمان والفعلة الذين اتيت بهم ؟»

قال : «هم على مقربة منا . هل ادعوهم ؟»

قال : «ادع الخادمين فقط» •

فخرج ثم عاد ومعه خادمان يحملان صندوقا كبيرا • فلمـــا رأت العباسة ذلك تحققت انها مقتولة ، والتفتت الى اخيها فرأته قد حول وجهه عنها وأشار الى مسرور فهجم عليها بالسيف فقالت لاخيها : «أمصر انت على قتلي ؟• ألا تخشى الله فيّ ؟• أتقتلني لاني اطعت الله وعصيتك ، ولكنكم معاشر الرجال تحلون لأنفسكم ما تحرمونه على نسائكم • أمن العدل ان يكون في قصرك مئات من السراري والجواري وتقتلني مـــن اجل رجل تزوجته بشرع الله وسنة نبيه • لا أبالي ان اموت ولقد لقيتك وناقشتك الحساب» • ثم خفضت صوتها وقالت : «ولكنني أبالي ان ترتكب مثله مع زوجي العزيز وولديّ الحبيبين» • ثم ولت وجهها شطر طريق الحجاز حيث تظن ابنيها يقيمان وقد تعودت ان تستنشق رياهما من تلك الجهة وقالت : «أستودعكما الله يا حسن ويا حسين» • ثم حولت وجهها نحو الشماسية كأنها تهم بأن تناجي حبيبها فسبقها مسرور بالسيف فقتلها والرشيد لا يلتفت، وود لو انه له يشهد قتلها لانه كان يحبها كثيراء

فلما سقطت ميتة أومأ مسرور الى الخادمين فوضعاها في الصندوق، ثم جاء الفعلة وهم عشرة من الرجال الأشداء يحملون المعاول والزنابيل وقد حسروا عن سواعدهم وشمروا عن سوقهم فأمرهم ان يحفروا وسط المقصورة فحفروا حتى بلغوا الماء فقال : «حسبكم هاتوا الصندوق» • فأتوا به ودلوه في الحفرة ثم قال : «ردوا التراب عليه» • ففعلوا وسووا الموضع كما كان • ثم اخرجهم وأغلق الباب ، فأخذ الرشيد المفتاح وأمره ان يحرس القصر ولا يدع احدا يخرج منه وأن يقبض على اي انسان يحاول دخوله • ثم قال له : «خذ هؤلاء وأعطهم أجرهم ووافني الـــى القصر» • ففهم مسرور انه يأمره بقتلهم فأخذهم وجعلهم في جواليق بعد ان ثقلهم بالصخر والحصى ورماهم في دجلة وعاد الى قصر الخلد فوجد

الرشيد هناك وقد طار نومه ، فلما أقبل سأله الرشيد : «هل فعلت ما أمرتك به ؟»

قال : «قد وفيت القوم أجورهم» •

قال : «خذ هذا المفتاح ابقه معك حتى اسألك عنه» • ودفع اليه مفتاح المقصورة •

فتناوله وقال : «سمعا وطاعة» •

وكان الصبح قد اقترب فقال : «نحن في صباح الخميس وهو يوم موكب جعفر الوزير فلا تبعد عني» • فأومأ مطيعا •

- ١٥ -

مصرع جعفر البرمكي

كان جعفر البرمكي في غفلة عما حدث ، اذ كان يتهيأ للرحيل في الغد وقد قرر التعجيل به بعد ما جرى من الحديث بينه وبين اسماعيل• ولم يكن بد من وداع الخليفة قبل خروجه الى خراسان كما جرت العادة عند خروج العمال الى اعمالهم • وكان قد أعد كل شيء ولم يبق غير الركوب والخروج فلما عزم على وداع الرشيد نادى خادمه حمدان فجاءه فقال : «اننا مسافرون اليوم • ألا تعلم ذلك ؟»

قال : «نعم يا مولاي • فهل اذهب الى مولاتي العباسة فآتي بها او نوافيك الى النهروان ؟»

فسر جعفر لسرعة خاطره وتيقظه في خدمته فابتسم وقال : «بل ارى

ان توافياني الى النهروان ، فلا باعث على العجلة في الذهاب اليها .
ويحسن ان تؤجل ذلك حتى اعود من وداع الخليفة» .
قال : «الامر لك يا سيدي» .

فلما كان الضحى خرج جعفر في موكبه الحافل وحوله الفرسان والركابية ، حتى أقبل على قصر الخلد فوسعوا له فدخل بالأبهة والعظمة على عادته وهو يقول في نفسه : «هذه آخر مرة أدخل فيها هذه الابواب لملاقاة رجل أداجيه ويداجيني ، فمتى صرت الى عملي في خراسان كنت بين اهلي وأعواني ، ولا نظننا نلتقي بعد الان الا اذا جاءني الحرب !» .
وما عتم ان وصل الى دار الخاصة فترجل .

وكان الرشيد قد جلس للناس فدخلوا على مراتبهم فسلموا وانصرفوا حتى دخل جعفر وسلم فرد عليه الرشيد احسن رد ورحب به وضحك في وجهه وأجلسه في مرتبته وكانت اقرب المراتب اليه وأخذ يحدثه ويلاطفه. وأتوه بكتب وردت من النواحي فقرأها على الرشيد وأمضاها . ثم نظر اليه وشكر له حسن احتفائه به وقال : «لقد غمرني امير المؤمنين بنعمه ، وأعلى مقامي حتى ولاني اكبر عمل من اعمال دولته فوجب علي شكره».
فابتسم الرشيد وقال : «انك اخي فلو قسمت المملكة بيني وبينك لأنصفتك » .

فتظاهر جعفر بالخجل من هذا الاطراء وتأدب في مجلسه وقال : «اني من موالي امير المؤمنين ، وكل ما يأتيني منه انعام وتفضل على مولاه» . ثم قال : «وان أقصاني امير المؤمنين عن مجلسه فاني ابقى عبده ابذل دمي في طاعته» .

قال : «بورك فيك . ولا شك اني سأفتقر الى رأيك بعد ان توليت أمور الدولة وتركتني لا أهتم بشيء من امر نفسي» .
فلما سمع جعفر قوله تذكر انها نفس العبارة التي قالها لاسماعيل

بالامس ، فوخزه ضميره وخاف ان يكون كلامه قد بلغ الرشيد ولكنه استبعد ان ينقله اسماعيل ، ولم يدر في خلده ان ذلك الغلام كتب به اليه • فشكر الرشيد وقال : «مهما يبذل العبد من خدمة مولاه فلا منة له ولا فضل» •

ومكث ينتظر امر الرشيد بالخروج الى خراسان ، لان التأدب يقضي بأن يبدأ الخليفة بذلك • فلما لم يسمع منه شيئا قال : «هل يأذن لي امير المؤمنين في الانصراف» • ولم يذكر خراسان لتحمل عبارته على انه يستأذن في الانصراف الى منزله •

فقال الرشيد : «هل تهيأت للسفر الى عملك ؟»

قال : «نعم يا مولاي» •

قال : «وهل تنوي الذهاب اليوم ؟»

قال : «اذا أمر امير المؤمنين» •

وكان الرشيد يريد تأخيره حتى يقر قراره على الفتك به فيكون قريبا منه لانه كان حتى تلك الساعة مترددا في الامر ، لما يعلمه من قوة احزاب البرامكة حتى بين بني هاشم انفسهم اذ كان اكثرهم يحبونهم ، فرأى ان اغتيال جعفر يقتضي الاحتياط وأعمال الفكرة وليس كالفتك بالعباسة • فقال له : «وهل استطلعت طالعك اليوم ؟»

قال : «لا يا مولاي» • وكانوا شديدي التمسك بالطوالع ، ويعتقدون بالسعد والنحس في النجوم باختلاف الساعات ، ولم تكن منازل الكبراء تخلو من اسطرلاب لاستخراج الطالع • وكان عند الرشيد اسطرلاب متقن الصنعة آل اليه عن جده ابي جعفر المنصور الذي كان شديد العناية بالتنجيم والمنجمين • وكان الاسطرلاب موضوعا على رف من الأبنوس المرصع بالعاج بجانب سرير الرشيد ليستخدمه عند الحاجة • وكان له المام بهذه الصناعة ، وجعفر أعلم منه بها فبادر الرشيد الى

الاسطرلاب وأمر الحاجب ان يأتيه ببعض المنجمين لانهم من جملة أرباب الفنون المقيمين بقصر الخلد على عادة الخلفاء في ذلك العصر فجاءوه بأحدهم .

فلما دخل المنجم قال له الرشيد : «كم مضى من النهار ؟»

قال : «ثلاث ساعات ونصف ساعة» .

قال : «خذ الارتفاع» .

فأخذه فجعل الرشيد يحسب حسابه بنفسه . ونظر الى نجمه . ثم التفت الى جعفر وقال : «يا اخي هذه ساعة نحس ارى نه سيحدث فيها حدث . فالأوفق ان تؤجل سفرك الى الغد وهو يوم الجمعة ، فتصلي وترحل في سعودك ، وتبيت في النهروان وتبكر يوم السبت وتستقبل الطريق فانه أصلح من اليوم» .

فشق هذا لتأجيل على جعفر وأخذ الطالع وحسبه لنفسه . وقد يكون رأي غير ما قاله الرشيد ولكن ليس من آداب مجالسة الخلفاء ان يراجعوهم او يخطئوهم .

فقال جعفر : «صدقت يا امير المؤمنين ان هذه الساعة ساعة نحس وما رأيت نجما أشد احتراقا وأضيق مجرى في البروج مثل نجمي هذا اليوم . ورأي امير المؤمنين على صواب» .

ولبث ينتظر اشارة الصرف على عادة الخلفاء ، فتزحزح الرشيد فقام جعفر وخرج يلتمس قصره والناس والقواد والخاص والعام من كل جانب يعظمونه ويبجلونه في داخل القصر وعلى قارعة الطريق وفي كل مكان ، غافلين عن حقيقة حاله وما يحدق بحياته من الخطر .

خرج جعفر من قصر الخلد وهو لا يكاد يصدق انه سيستقل بعمله في خراسان ويعيش آمنا بين اهله وأعوانه ومعه العباسة وابناها ، وينجو من دسائس أهل البلاط وما يحدق به من الخطر .

فلما وصل الى قصره بالشماسية بعث الى حمدان ، فلما اتى اخبره بتأجيل السفر الى الغد ، وأوصاه بأن يهتم بأمر العباسة فيبقى في الشماسية بعد سفره حتى يخيم الظلام ثم يمضي الى قصرها ومعه الركائب يحملها ومن شاءت نقله معها الى النهروان ، او يسير بها الى ما وراء ذلك لتكون في مأمن . وهو يعلم انها تحب ان تصطحب عتبة وأرجوان . ثم خلع ثيابه وجلس .

★ ★ ★

كانت العباسة ساعة مجيء الرشيد الى قصرها قد امرت عتبة ان تبعث الى جعفر لتخطره بما يهدده لعله ينجو بنفسه . فمضت الى غرف الجواري والخدم لترسل احدهم في هذه المهمة فرأت القصر محاطا بالحراس ولا سبيل الى الخروج . فعظم الامر عليها وذهبت الى غرفتها ترتعد خوفا على سيدتها بعد ما شاهدته من مجيء الرشيد على تلك الصورة ، وأخذت تفكر فيما دهمها من الامر ، وأيقنت ان سيدتها عرضة لشر عظيم ، ولم تكن قد قتلت بعد . فلما علمت بقتلها بكت وندبتها وعلمت ان الخطر سيتطرق اليها ولكنها احتقرت حياتها بعدها وأصبح همها ان تبلغ رسالة سيدتها الى جعفر لانها لم تكن تشك في قتله بعد قتل العباسة . فأعملت فكرتها في وسيلة تنذره بها فرأت السبل مقفلة في وجهها فزادت حيرتها وطلع الفجر وهي تطوف من غرفة الى غرفة تبكي وتنتحب .

ثم رأت ان البكاء لا يجديها ، وان خير ما تفعله في تلك الساعة ان تسعى في الخروج من القصر فاذا خرجت نجت من القتل وأبلغت الخبر الى جعفر ، وفي نجاته تعزية لها على مصابها بسيدتها . وانتقل فكرها

فجأة الى ابي العتاهية لعلمها انه سبب هذه المصائب كلها ، فلعنته وتذكرت ما كان من حبه لها وكيف طلبها من الخليفة وأبت المجيء اليه فخيل اليها انها اذا وفقت الى مقابلته واظهار حبها له فقد لا يعدم وسيلة لاخراجها من القصر لما تعلمه من دالة الشعراء ونفوذهم ، فاذا خرجت سعت في الوصول الى جعفر • وتذكرت حب ابي العتاهية للمال وهو كثير بين يديها ، فرأت انها ان لم تستعطفه بالحب تستطيع استخدامه بالمال ، فارتاحت لذلك • ولكنها لم تكن تعلم مكان ابي العتاهية في تلك الساعة •

ثم خطر لها ان المال يذلل الصعاب ويلين أغلظ القلوب ، فأخرجت عقدا من الجوهر كان في جملة ما جمعته من حلي مولاتها عند التأهب للسفر • وتنكرت بثوب غريب وتقنعت بخمارها ولبست خفها وخرجت تقصد الى باب القصر • فلما بلغت الباب ووجدته مقفلا قرعته ونادت البواب الذي كان عليه في عهد مولاتها فلم يجبها احد ، فقرعته ثانية ففتحت الخوخة وأطل منها رجل عرفت انه حارس من جند الرشيد فقالت له : «اين البواب ؟ ما بالكم أغلقتم علينا الابواب ؟»

فأغلق الخوخة وتحول وهو يقول : «ادخلي لا سبيل الى الخروج»•

قالت : «ولماذا ؟»

فصاح فيها : «ادخلي ولا تكثري الكلام فان القصر مغلق بأمر امير المؤمنين » •

فدقت كفا بكف وقالت : «ويلاه !• ما الذي جاء بي الى هنا ؟»

فأدرك الحارس انها ليست من اهل القصر ففتح الخوخة ونظر اليها فرآها تبالغ بالتقنع وهي تقول : «بالله عليك افتح لي لأذهب في سبيلي فاني لم أجن ذنبا ولا انا من اهل هذا القصر» •

فقال : «وما شأنك ؟»

قالت : «جئت امس بمهمة الى مولاتنا العباسة ، وخيم الظلام قبل الفراغ منها فبت مع بعض الجواري وأنا مزمعة الان الخروج الى سيدي لئلا يستبطئني ويسيء الظن بي» .

قال : «ومن هو سيدك ؟»

قالت : «سيدي ابو العتاهية شاعر امير المؤمنين» .

فلما سمع اسمه استأنس به لشهرته ، و لشعراء يومئذ زينة مجالس الخلفاء فقال : «وما الذي جئت به من قبله ؟»

فأظهرت انها تخاف التصريح بذلك وظلت ساكتة .

فقال الرجل : «ما بالك لا تجيبينني ؟»

قالت : «جئت من قبله بمهمة الى مولاتنا العباسة .. و... و... فافتح لي ولا تعيفني حرسك الله» .

فلم يشك الحارس في انها تقول الصدق فأراد العبث بها فقال : «اتيت بمهمة سرية ، فامكثي في مكانك واحفظي سرك معك» . قال ذلك وأغاق الخوخة .

فصاحت : «بالله افتح لي ولا تضايقني فقد كفاني تأخري الليلة الماضية ، ولا آمن من شر أتوقعه بسببه فكيف اذا تأخرت اليوم ايضا».

فعاد وفتح الخوخة وقال : «لا أفتح الا اذا اخبرتني عن السر الذي جئت به» .

قالت : «أتراك تعبث بي وقلبك مستريح وأنا قلقة ، فاذا لم تصدق قولي فاني أستشهد مولاتنا العباسة . ألا تصدقها ؟»

فزاده تظاهرها بالسذاجة اعتقادا بصدقها ، ولكنه تذكر تشديد الرشيد فخاف ان يخرجها ويتحمل تبعة ذلك فقال : «هذا لا يعنيني فاني أمرت ان امنع اهل هذا القصر من الخروج والسلام» . وأراد اغلاق الخوخة فأمسكتها منه وحاولت فتحها وهي تقول : «اذا اخبرتك بسبب

مجيئي هل تطلق سراحي ؟»

قال : «ما ذلك ؟.. قولي» .

فأجابته همسا بقولها : «أظنك تعلم ان أبا العتاهية كف عن نظم الشعر » .

قال : «أعلم ذلك» .

قالت : «وأظنك تعلم انه يحب المال ؟»

قال : «انه مشهور بذلك» .

قالت : «فاذا اراد مالا نظم القصائد سرا لبعض الامراء ، وقد نظم بالامس قصيدة في مدح العباسة وبعثها معي فحملتها اليها مساء امس فأعطتني الجائزة وآكرمتني بالمبيت هنا . ليتها لم تفعل» . وهزت رأسها .

فقال : «وما هي الجائزة ؟»

فتظاهرت بالخوف من الاقرار وتوقفت عن الجواب فابتدرها قائلا : «ألا تقولين ؟»

فقالت بلهجة الخائف المستعطف : «هذه هي» . ومدت يدها الى جيبها فأخرجت العقد فأبرق بين اناملها كالشمس ، فمد الحارس يده ليتناوله فأسرعت في ارجاعه الى جيبها فقال : «اريني اياه» .

فدفعته اليه وهي تظهر خوفها عليه . فتناوله وأخذ يقلبه ويعجب به وهو يقول : «انه ثمين ، ولكن هل تظنين اني أخرجك بهذا العقد وأنا لا أملك جوهرة من جواهره ؟»

قالت وهي تتأفف : «يهمني الخروج والسلام» .

فلما رآها تتلهف للخروج قال : «فاذا شئت الخروج فاخرجي وحدك » .

قالت : «وماذا اقول لأبي العتاهية ؟»

قال : «قولي له ان العباسة لم تعطك شيئا» .

فسرها ذلك ولكنها ارادت سبك الحيلة عليــه فقالت : «ولكنه لا يصدقني . وأرى ان أنصف بينكما فأعطيك نصف الجائزة وأحمل اليه نصفها » .

فرضي الحارس وبادر لساعته فقطع العقد وأخذ معظمه ودفع اليهـا الباقي وقال : «يكفيك هذا القدر .. فاذا اعجبتك القسمة فاخرجي والا فادخلي » .

فأطرقت لحظة ثم قالت : «بل اخرج وأحسب انها لم تعطني شيئا» .

فسر الحارس لفوزه بتلك الجواهر وفتح الباب وقال لها : «اخرجي، ولكن احذري ان تخبري احدا بخروجك فانك تقتلين لا محالة» .

فخرجت وهي لا تصدق انها نجت وقلبها يكاد يطير فرحا بنجاتها من الاسر وأملا في نجاة جعفر ، وكان الحارس اكثر مرحـا منها . وكانت الشمس قد اشرقت فأسرعت لا تلوي على شيء واكترت حمارا ركبته الى قصر جعفر بباب الشماسية .

تركنا جعفر في قصره وقد خلع ثيابه للراحة ، ثم بدا له ان يجلس للصبوح ، وهو مجلس كانوا يعقدونه للشراب صباحا كأنما اراد ان يودع بغداد به . فأمر فأعدت المائدة وجاءوه بالشراب ، وسأل عمن في داره من المغنين فقالوا : «ابو زكار الاعمى هنا» . فقال : «الي به» . فدخل ونصبت الستارة، ودعا بعض جواريه المغنيات والعازفات. فأخذ ابو زكار يغني والجواري يصاحبنه ويعزفن على العيدان ، وأخذ جعفـر يشرب ويظن ان الناس غافلون عما بينه وبين الرشيد . وربما علموا من ذلك اكثر مما يعلمه هو ولاسيما المغنين فقد كانوا يطلعون على اسرار الناس بما يتاح لهم من حضور مجالس الأنس التي يدور فيها الشراب ، فاذا طرب الجلساء بدرت منهم بوادر تشف عن سرائرهم والمغنون يتجاهلون ذلك ويسرونه خوفا على حياتهم . فالرشيد على تكتمه أمر جعفر لم يكـن

ليخفي سره على مغنيه الموصلي حتى قيل انه سأله مرة في بعض مجالسه: «بماذا يتحدث الناس ؟» . فأجابه : «يتحدثون بأنك مستقبض علـــى البرامكة وتولي الفضل بن الربيع الوزارة» . فانتهره الرشيد وقال : «ما انت وذاك ؟ ويلك !»

وكذلك ابو زكار الاعمى ، فان عماه كان يجريء جلاسه علـــى التصريح بأكثر مما يصرحون به امام سواه ، فكان على بينة ممـــا يحدق بجعفر من الخطر ، وربما اشار الى ذلك في بعض غنائه فلا يلحظه غير العارفين . فلما دعاه الى الغناء في ذلك اليوم غناه :

فلا تبعـد فكـل فتى سيأتي	عليه الموت يطـــرق او يغادي
وكـــل ذخيرة لا بد يومـا	وان بقيت تصير الـــى نفـاد
ولو فوديت من حدث الليالي	فديتك بالطريـف وبالتـــلاد

فلما سمع الحضور قوله ادركوا مراده الا جعفر . وما آتم ابو زكار غناءه حتى فتح الباب ودخل الحاجب . فقال له جعفر : «ما بالك ؟»

قال : «ان مسرورا خادم امير المؤمنين بالباب» .

فلما سمع اسمه أجفل ، لانه كان يستثقله ويستثقل روحه ، لكنه لم يسعه الا الاذن في ادخاله ، فلما دخل قال له جعفر : «ما وراءك ؟»

قال : «يا سيدي أجب امير المؤمنين» .

فانزعج جعفر من تلك الدعوة وقال : «ويلك يا مسرور ، انا فـــي هذه الساعة خرجت من عنده ، فما الخبر ؟»

قال : «وردت كتب من خراسان يريد ان تقرأها له» .

فاطمأن قلب جعفر قليلا فنهض وهو يقول في نفسه : «كنت احسبها آخر مرة ألاقي فيها هذا الرجل ببغداد عندما اجتمعنا صباح اليوم ، فاذا

انا القاه مرة اخرى فلا حول ولا قوة الا بالله !»

ثم دعا بثيابه وسواده وقلنسوته فلبسها وتقلد سيفه وأمر ان تعد له الركائب وخرج وانفض المجلس .

وفيما هو خارج من القاعة ومسرور بين يديه جاءه الحاجب ووقف بحيث يراه ويفهم انه يريد ان يسر اليه امرا فتحول جعفر اليه وسأله عن غرضه فقال : «ان عتبة جارية مولاتنا العباسة في دار النساء تطلب ان تسرالك» .

فظنها جاءته من عند العباسة لتسأله عن السفر فقال : «قل لها اني عائد لساعتي» .

قال : «انها تطلب مقابلتك الان» .

فبدا له ان يراها ويسألها عن شأنها ، ولكنه خشي ان يلحظ مسرور ذلك فيبلغه الى الرشيد . فوقف هنيهة يتردد ، ثم تذكر ريحان وانه عالم بكل شؤون السفر فقال للحاجب : «دعها تقابل غلامنا ريحان وتطلب ما تريده منه» .

فأشار الحاجب مطيعا ، وخرج جعفر حتى اتى باحة القصر فركب في موكبه من الفرسان والغلمان ، وساروا يطلبون قصر الخلد يتقدمهم مسرور على فرس ، ويتوسط الموكب جعفر بسواده وقلنسوته ، وحوله الفرسان من نخبة رجاله وأكثرهم من الفرس الذين يفدونه بأرواحهم فقطعوا الشماسية حتى اتوا الجسر فتخطوه وأقبلوا على الميدان امام قصر الخلد . فلما وصلوا الى باب القصر ترجل مسرور وأشار الى فرسان الموكب ان يقفوا هناك ، فوقفوا وهم في غفلة عن مراده ، ثم دخل مسرور ، ودخل جعفر والغلمان في ركابه دون ان يفطن الى وقوف الفرسان خارج القصر ، لاشتغال خاطره بأمر تلك الدعوة . ولما دخلوا اومأ مسرور الى البوابين فأقفلوا الباب وكانوا على اتفاق على ذلك قبل

ذهابه . ثم دخلوا الباب الثاني فاستبقى مسرور الغلمان خارجه ، ودخل جعفر فأقفل الباب وراءه . ولما دخل الباب الثالث التفت فاذا هو وحده ولم يبق معه احد من رجاله ، فندم على ركوبه في تلك الساعة . ورأى في فناء القصر قبة تركية كان قد نصبها مسرور هناك بأمر الرشيد وحولها اربعون غلاما من السودان ، فظن ان الرشيد ينتظره فيها فدخلها فلم يجد احدا ورأى في ارضها سيفا ونطعا فأيقن بالهلاك ووقف وركبتاه ترتعدان، وغلب عليه الخوف وصغرت نفسه وهو يعلم قسوة مسرور ، وانه لو اراد مقاومته لا يقوى عليه . وهو على كل حال محصور في تلك الدار فعمد الى الملاينة فقال لمسرور : «يا اخي ما الخبر ؟»

فضحك مسرور مستخفا وقال : «انا الان اخوك ؟ وفي بيتك تقول لي ويلك . انت تدري القضية .. وما كان الله ليمهلك ولا يغفلك .. فقد أمرني امير المؤمنين بضرب عنقك وحمل رأسك اليه الساعة» .

فلما سمع قوله اقشعر بدنه وكاد الدم يجمد في عروقك ، ولعل الضعف طرأ عليه من الشراب . ولعل القارىء كان يتوقع ان يرى من جعفر الوزير ثباتا ورباطة جأش في هذا الموقف شأن الرجل الكبير . ولكن الانغماس في الترف والسكر يضعف القلوب ويحل العزيمة فلا صبر لصاحبهما على المكروه اذا وقع المحذور، وكان هذا شأن جعفر في ذلك الصباح . فلما سمع مسرورا يغلظ له القول ترامى على قدميه وأخذ يقبلهما ويقول : «يا اخي مسرور ، انت تعلم كرامتك عندي دون سائر الغلمان والحاشية ، وان حوائجك عندي مقضية في سائر الاوقات ، وأنت تعرف موضعي من امير المؤمنين وما يوجه الي من الاسرار ، فلعله بلغ عني باطلا . وهذه مائة الف دينار أحضرها لك الساعة قبل ان اقوم من موضعي هذا ، وخلني أهم على وجهي» .

فقال مسرور : «لا سبيل الى ذلك ابدا» .

قال : «فاحملني الى امير المؤمنين وأوقفني بين يديه فلعله اذا وقع نظره علي تدركه الشفقة بي فيصفح عني» •

فهز مسرور رأسه وقال : «ما من سبيل الى ذلك ابدا ، وقد علمت ألا وسيلة الى الحياة ابدا» •

قال : «فتوقف عني ساعة وارجع اليه وقل له انك فرغت مما أمرك به واسمع ما يقول ، وعد فافعل ما تريد • فان فعلت ذلك وسلمت ، فاني أشهد الله وملائكته اني أشاطرك نعمتي وما ملكته يدي ، وأجعلك امير الجيوش» •

فلما سمع مسرور هذه الوعود ارتاحت نفسه اليها وخطـــر له ان الرشيد قد يكون أمر بالقتل في سورة غضبه فاذا سكن غضبه يندم ويعفو عنه فيكتسب هو هذه الاموال ويتمتع بهذا المنصب ، فأطرق • فلما رآه جعفر مطرقا طمع في الحياة ولبث ينتظر ما يبدو منه ، فاذا به يقول : «افعل هذا» • ومد يده فحل سيفه ومنطقته وأخذهما ووكل به بعــض الحراس الواقفين هناك وأوصاهم بحراسته وخرج •

فلما خلا جعفر الى نفسه تلفت فلم ير غير النطع والسيف فاسترجع رشده وأدرك ألا مفر من الموت لعلمه بالاسباب التي بعثت الرشيد على قتله • وبما كان يدور بينهما من المداجاة والمخادعة ، وأيقن ان الرشيد عالم بحاله مع العباسة ، ثم تذكر مجيء عتبة العاجل فندم على جعلهـــا تنتظر عودته ، فقد تكون جاءت بتحذير او تنبيه ينفعه لو اطلع عليه قبل خروجه ، فاشتدت مصيبته وأصبح كأنه يرى الموت رأي العين ، وهاجت أشجانه فتمثلت له العباسة كما فارقها للمرة الاخيرة عندما تواعدا علـــى الفرار الى خراسان ، وتذكر ما كاد يظفر به من النجاة بها وبولديه لو سافر بالامس او لو كان كلم عتبة قبل خروجه • فضاق صدره وغلبـــه البكاء ، وود لو يرى العباسة قبل موته ويقبل طفليه قبل هذا الفـــراق

الابدي . فأخذ يناجي نفسه قائلا : «واحسرتاه عليك ايتها الحبيبة ، بل والهفي على قبلة من ولدي . قضيت العمر أتمنى ساعة ألاعبهما فيها كما يلاعب الاب اولاده فلما ظننتها قريبة اذا هي بعيدة عني بعد الابدية . وأنت يا زوجتي بشرع الله — وان ادعي اخوك العكس — لقد وقعت في الخطر لأجلي ، وعرضت نفسك لغضب اخيك المستبد .. ماذا يكـون حالك اذا عرف اخوك بأمرنا فانه قاتلك لا محالة اذا لم يكن قد قتلك الان . ترى هل جاءت عتبة تنعاك وتحذرني من القتل ؟ ربما كـــان ذلك — وأنت جديرة بهذه المروءة .. قد عرفت تفانيك في سبيل حبي غير مرة ، فاذا كنت قد قضيت نحبك قبلي ، فأنا راغب في اللحاق بك . واذا كنت على قيد الحياة فأنت لاحقة بي لا محالة لان اخاك لم يبـادر الى التعجيل بقتلي الا وقد عرف سرنا . والله يعلم اننا انما أطعنـــا الشرع والحب» .

وسكت لحظة يكفكف دمعه ثم قال : «وولدانا ؟ آه يا حسن ويا حسين !. اين انتما الان ؟ هل تعلمان بما حل بوالديكما على يد خالكما المستبد القاسي القلب ؟» . قال ذلك وغص بريقه وأحس باختناق صوته، واذا بالباب يفتح فأجفل وانتبه لنفسه فسكت وبصره شاخص الى الباب فدخل مسرور ووجهه مقطب ، فعلم انه لم ينجح في مهمته وهم بـــأن يسأله فسمعه يقول : «ذهبت الى امير المؤمنين ، فلما رآني سألني عنك فقلت له : «قد أنفذت امرك فيه» . فقال : «ائتني برأسه حالا» .

فلما سمع جعفر قوله تجلد وقال : «افعل ما بدا لك ، ولكننـــي اسألك سؤالا واحدا أصدقني فيه وأنا على آخر لحظة من لحظـــات الحياة » .

قال : «وما ذلك ؟»

قال : «ماذا جرى للعباسة ؟ قل الصدق ولا تخف وشاية فـــان

سامعك مقتول» .

قال : «قتلت» .

فصاح : «قتلت ؟!. اذن عجل بقتلي . لا أرب لي في الحياة» .

ولم يتم كلامه حتى ضرب مسرور عنقه بالسيف فأطار رأسه ، ثم حمله وهو يشخب دما وذهب به الى الرشيد .

كان الرشيد قد أمر مسرورا بأن يفعل ما فعله ودبر الحيلة لادخال جعفر قصر الخلد منفردا الى القبة التركية . وكان قد أمره ببنائها صباح ذلك اليوم على اثر خروج جعفر من دار الخاصة . وذلك ان الرشيد ظل بعد خروجه يخطر في تلك الدار ذهابا وايابا ويعمل فكرته قبل الاقدام على ذلك الامر العظيم ، مترددا بين التعجيل والتأني لعلمه بما للبرامكة من المريدين الذين يبذلون ارواحهم في سبيل نصرتهم . ولكنه اصبح بعد توالي قلقه وطول سهره لا يذوق طعاما ولا شرابا ولا يزداد الا نقمة وغضبا وخشي اذا أجل قتل جعفر ان يعلم هذا بمقتل العباسة فيتأهب للدفاع وربما انقلب الامر الى عكس المراد . وكان الرشيد يحب جعفرا حبا شديدا فقد ربيا معا وعاشره على غير كلفة كأنه اخوه ، فكان الرشيد اذا بدا جانب الرفق به ، عاد فغضب لسلطانه ولعرضه وأصر على قتله .

وقضى في ذلك حينا وهو يتمشى وحده في لدار مستغرقا في الافكار ، حتى نسي نفسه . ولو دخل عليه احد في تلك الساعة لرآه يسرع في مشيته تارة ويبطىء اخرى بين اطراق وتصويب ، يحك ذقنه او يشير بأنامله تهديدا ووعيدا او استمهالا وترددا ، ولا ينتبه لشيء مما يكسو جدران القاعة من الستائر المطرزة او الطنافس الموشاة كأنه لا يرى من الالوان غير السواد . وربما وقف لحظة امام ستارة ليقرأ ما عليها من الأشعار او ينظر فيما يكسوها من الاشكال ، وقد يقرأ البيت او الفقرة فلا يفقه لهما معنى لاستغراقه في الهواجس . فاتفق انه وقف امام

اسطوانة بجانب سريره قرأ علّيها بيتين استفزتا عزيمته وقضيا بامضاء امره وهما :

ليت هندا أنجزتنا ما تعـــد   وشفت انفسنا ممـا نجـــد
واستبدت مـــرة واحـدة   انما العاجز مـن لا يستبـــد

وكان مترددا بين الإقدام والاحجام ، فما فرغ من تلاوة هذيـــن البيتين حتى رجح عنده الاقدام فصمم على الفتك فصاح : «مسرور» . فدخل بأسرع من لمح البصر فأوصاه بما يعمله على نحو ما تقدم ، ومكث في القاعة ينتظر رجوعه على أحر من الجمر حتى جاءه بالحيلة التي احتالها جعفر على مسرور لعله يصفح فرده واستعجله القتل ، فرجع وضرب عنقه وحمل اليه رأسه وهو قابض على لحيته ، فتدلى الرأس مقلوبا والـدم يشخب من أوداجه ويسيل على خديه وعينيه وشعره .

دخل مسرور بالرأس والرشيد جالس على السرير ، فطرحه علـــى وسادة بين يديه ، وانتحى مكانا في بعض جوانب الدار . فلما وقع نظر الرشيد على ذلك الرأس أحس بزوال الخطر ، ولكنه لم يستطع كتمان الاسف فامتقع لونه وجاشت عواطفه وتذكر سابق الود بينهما . فنظر الى الرأس هنيهة وبيده قضيب من الأبنوس المطعم بالعاج ، فجعل ينكت البساط به ويخاطب الرأس قائلا : «يا جعفر ، ألم أحلك محل نفسي ؟.. يا جعفر ما كافأتني ولا عرفت حقي ، ولا حفظت عهدي ولا ذكرت نعمتي، ولا نظرت في عواقب الامور ، ولا تفكرت في صروف الدهـــر ، ولا حسبت لتقلبات الايام واختلاف أحوالها حسابا . يا جعفر خنتني في اهلي وفضحتني بين العرب والعجم . يا جعفر اسأت الي والى نفسك ، وما تفكرت في عاقبة امرك» . وكان يقول ذلك وينكت البساط بالقضيب او

ينقر به اسنان جعفر ، ومسرور واقف يسمع ويرى ، ولو كان له قلب لانفطر ولكنه كان فظا غليظ القلب .

وبينما الرشيد يخاطب جعفر بمثل ما تقدم ويعاتبه ، ومسرور لا يجسر على حركة او قول ، اذ سمعا وقع خطوات مسرعة نحو الباب ما زالت تقترب حتى سمعا قرعا وقائلا يقول : «السلام عليك يا امير المؤمنين أأدخل ؟»

فأجفل الرشيد لانه عرف صوت اسماعيل بن يحيى ، فأشار الى مسرور ان يأخذ الرأس ويمضي . ففعل وخرج من باب في الجانب الآخر من القاعة . ولم ينتظر اسماعيل جواب الرشيد فدخل .

أما الرشيد فما كاد يرسل بصره الى الباب حتى رأى اسماعيل داخلا والدهشة بادية في وجهه وحول قلنسوته عمامة لم يحسن هندامها ولا سرح لحيته او أصلح من شأنه كما ينبغي عند مقابلة الخليفة .

فلما رآه الرشيد داخلا تجلد ورد التحية وأشار اليه ان يجلس .

فجلس على كرسي بعيد عن الرشيد وهو يلهث ، فنهض الرشيد ومشى اليه وحاول الابتسام ترحيبا به ، ولكن التأثر غلب على تجلده وكظمه .

أما اسماعيل فلما رأى الرشيد واقفا وقف تأدبا فأمره بالجلوس وجلس الى جانبه وقد ادرك ان اسماعيل انما جاءه في هذه الساعة لأمر ذي بال ، فعجل بسؤاله عن غرضه فقال اسماعيل : «جئتك شفيعا يا امير المؤمنين . وان أبيت فمستمهلا امرك» .

فأدرك الرشيد انه جاءه يشفع لجعفر ، واستغرب علمه بأمره على شدة تحوطه في الكتمان . وانما عرف اسماعيل ذلك من ريحان غلام جعفر عندما جاءت عتبة بالخبر في الصباح ، فلما لم يتسن لها رؤية جعفر قصت الخبر على ريحان ، وكان الموكب قد سار فلم يجسر ان يتبعه لئلا

يشتبه مسرور في امره ، فوقع في حيرة ، ثم اتفق مع عتبة على الذهاب الى اسماعيل لما يعرفانه من صداقته لجعفر ، فأسرع ريحان الـى قصره فوجده جالسا في الحديقة فأخبره بما جرى ، فسارع الى لبس ثيابه وجاء الى قصر الخلد ، فمنعه الحراس من الدخول في بادىء الرأي ثم أذنوا له فدخل وهو لا يعلم بقتل جعفر ، ولم يخطر له تعجل الرشيد الى هذا الحد . فسأل عن الرشيد فقيل له انه وحده في دار الخاصة فجاء ودخل على ما تقدم .

فلما سمع الرشيد قوله ولحظ انه يشفع عنده في جعفر تجاهل وقال: «ان شفاعتك مقبولة وأمرك نافذ» .

فاستبشر اسماعيل وقال : «اطال الله بقاء امير المؤمنين ، لقد جئت لأشفع عندك في وزيرك جعفر» .

فهز الرشيد رأسه وقال: «جئت متأخرا يا ابن العم فقد نفذ القضاء».

فأجفل اسماعيل وتراجع وقال : «قتلت جعفرا ؟!»

قال : «قتله غدره !»

قال : «قتلته يا امير المؤمنين ؟» قتلت وزيرك وصاحب خاتمـــك وسلطان دولتك ؟»

قال : «لا أطيل عليك القول يا اسماعيل . ان وزيري هذا قتلتـــه خيانته ، ولو عرفت ذنبه وأنت هاشمي لسبقتني الى قتله» .

فحسبه يشير الى ما يتهمونه به من حب الشيعة العلوية باطلاقه سراح ذلك العلوي ، وكانا قد تباحثا في ذلك من عهد غير بعيد . وكـــان اسماعيل يرى انه لا يستحق القتل لعلمه بسعي اعدائه ووشايتهم به فقال: «ألم يكن امير المؤمنين قد عزم على ابعاده الى خراسان ليرى بعدئـــذ رأيه فيه » .

قال : «كنت عزمت على ذلك ، ثم رأيت في بقائه تحت عيننا صيانة

للملك وتسهيلا في نيل مرادنا ، لانه اذا سار الى خراسان كان في اهله وأحزابه ، وأهل خراسان لا يزالون ناقمين علينا منذ قتل جدي المنصور اميرهم أبا مسلم . نعم انهم يعجزون عن مناوأتنا ولكنهم يشغلوننا . فمن سداد الرأي ان تتدارك الخطر قبل وقوعه» .

فقال : «رأي امير المؤمنين أصوب .. ولكن حساد جعفر كثيرون ، وقد وشوا به وكثروا ذنوبه وبالغوا في الطعن عليه ، وأمـــير المؤمنين لحرصه على ابقاء الخلافة في بني هاشم عجل بقتله ، وربما كان استبقاؤه انفع للدولة ، ولكن قضي الامر» .

فلما سمع الرشيد تعريض اسماعيل بالواشين ، اراد ان يسترق منه أخبارهم لينتقم منهم او يجتنب أذيتهم فقال : «وهل انت على يقين من ذلك ؟.. ومن هم الواشون ؟»

فهم اسماعيل بأن يطلعه على ما يعلمه من سعي ابن الهادي والفضل ابن الربيع وغيرهما ، ولكنه أمسك لسانه وأعمل فكرته فرأى فــــي التصريح توسيعا للخرق وضعضعة للدولة وارتباكا ، وهو الحريص على صيانتها . فلو كان جعفر حيا لكان الخطر من التصريح قليلا . أما وقد قتل فأصبح ذكر الواشين والاقرار بأقوالهم وأعمالهم وشاية اخرى ، فندم على ما بدر منه وعزم على كتمان ذلك فقال : «اذا كنت قد قتلت جعفرا فانها احدى المصيبتين ، فاذا ذكرت لك غيره دفعت بالدولة الى مصيبـــة اخرى . فليعفني امير المؤمنين من ذلك ، وهو يعلم رغبتي في سلامة هذه الدولة ، وقد عصيتني فيما اردته من تبرئة جعفر فلا تكلفنــــــي الوشاية بآخرين . ولو كان في ذلك نفع ما كتمته . فأطعني في هــذا واعلم اني انما أكتمه لخير بني هاشم ، كما كان تصريحي ببراءة جعفــر لهذا السبب نفسه . وأتقدم الى الرشيد ألا يعد ابائي هذا معصية . واذا عده كذلك فله ان ينتقم . اني لا أبخل بروحي في سبيل هذا الكتمان» .

وكان الرشيد يجل اسماعيل ويعتقد اخلاصه وصدق نيته ويضـــن بحياته فقال : «ان حياتك عزيزة علينا يا عماه ، وحاشا لله ان نسيء الظن بك . وهب انك عصيتنا فانما تعصانا لتنفعنا . وأما جعفر فلو كان ذنبه مقصورا على ما علمت من تعرضه للدولة ونصرته للشيعة لصبرنا عليـه واحتطنا له كما صبرنا فيما مضى ، لان انحيازه للشيعة لم يكن جديدا علينا . ولكنه ارتكب ما هو افظع من ذلك كثيرا ، ارتكب ما لو علمته لسبقتني الى قتله . لا تسألني عما ارتكبه فاني حريص على كتمانه ولو علمت ان يميني علمت به لقطعتها» . قال ذلك وقد اشتد غضبه وزاد انقباض أسرته وارتجفت شفتاه حتى رقصت لحيته ثم هز رأسه وقال : «آه . لو استطيع قتله مرة اخرى !»

فتهيب اسماعيل غضب الرشيد ولم يفته الامر الذي سمعه يلمح اليه، فان خبر العباسة بلغه على علاته وهو على خلاف رأيه ، فتجاهل ولو رأى مجالا للكلام لما تكلم لئلا يجر الكلام الى الجدال بلا فائدة ، لعلمه بشدة غيرة الرشيد على العرض وحرصه على شرف بني هاشم فظل ساكتا .

ثم سمعا الأذان لصلاة الظهر ، فنهض الرشيد ونهض اسماعيـــل واستأذن وخرج .

- ١٦ -

الحسن والحسين

أما الرشيد فأمر صاحب وضوئه فجاءه بالماء فتوضـأ وخرج للصلاة

في المسجد ، فصلى بالناس جماعة ورجع الى داره فانفذ بعض خاصته للقبض على ابي جعفر وعلى اخيه وجميع اولاده ، وأباح قصورهم ودورهم فاستولى رجاله على ما وجدوه هناك من الجواري واستبقوهم لخدمتهم الا ريحان وعتبة فانهما فضلا اللحاق بجعفر فقاوما بعض الذين جاءوا للنهب فقتلوهما ، ووجه الرشيد مسرورا الى معسكر جعفر في النهروان فأخذ جميع ما فيه من مضارب وسلاح وخيام وغير ذلك .

وأصبح الرشيد يوم السبت وقد قتل من البرامكة وحاشيتهم الف انسان وترك من بقي منهم لا يرجع الى وطنه ، وحبس يحيى بن خالد أبا جعفر ، والفضل بن يحيى اخاه ، وأمر بجثة جعفر فصلبت على جسر بغداد .

فلما ارتاح باله من هذا القبيل ذهب الى زبيدة امرأته وأخبرها بما كان فاستحسنته ، ولكنها تذكرت الصبيين فقالت : «لقد فعلت فعل اهل الحزم وأنقذت الخلافة من الاعداء ، ولكن ما الذي فعلته بالصبيين ؟»

فأطرق وأعمل فكرته فابتدرته قائلة : «اذا اردت محو العار الذي لحقنا فبادر الى ازالة اثره لان بقاء الصبيين وصمة باقية» .

فقال : «وهل تعلمين مقرهما ؟»

قالت : «اذا شئت دللت خادمك على مكانهما» .

فقال : «اخبري مسرورا بذلك» .

فدلته على مخبئهما ومضى الرشيد الى قصره وجلس ينتظر مجيئهما .

وكان الفضل بن الربيع قد خبأ الغلامين على يد ابي العتاهية في بيت على شاطىء دجلة وأوقف عليهما الحراس ، فذهب مسرور اليهما وحملهما الى قصر الخلد ، بعد ان قتل رياشا وبرة الخادمين القائمين على تربيتهما .

فلما جاء مسرور بالغلامين أدخلهما على الرشيد ، وكان جالسا على

وسادة وحده . فدخل الغلامان يدرجان ويضحكان ووجهاهما يطفحــان سرورا وسذاجة وطهارة ، يحسبان الرجل جاء بهما الى مهرجان او وليمة، فلما رأى الرشيد جمالهما انقبضت نفسه أسفا على ما سينالهما من الاذى لعلمه انهما بريئان طاهران . ولكنه كان قد صمم على محو اثر الجناية من الوجود ، فتجلد ودعاهما اليه فأسرعا اليه وتراميا عليه وهما يتلفتان لمشاهدة ما في القاعة من الرياض الفاخر والالوان الزاهية .

فسأل الرشيد اكبرهما : «ما اسمك يا قرة عيني ؟»

قال : «الحسن» .

فقال للصغير : «وما اسمك يا حبيبي ؟»

قال : «الحسين» .

فأعجب الرشيد بمنطقهما وفصاحتهما الهاشمية ، ثم أعمل فكرته فيما هو مقدم عليه من الامر الخطير ، وهو اب محب لاولاده ــ وزد على ذلك ان في الغلامين دما هاشميا والقرابة من اسباب الانعطاف ، فعظم الامر على الرشيد ولبث حينا يفكر والغلامان يلاعبانه ويعبثان بلحيتــه وطوقه ، حتى كاد الحنو يغلب عليه . ولكنه عاد الى تذكر ما هو فيه وخاف غلبة الضعف عليه فاعتزم قتلهما على ألا يرى ذلــك بعينيه ولا يسمعه بأذنه . فتصادمت عواطفه وجاشت اشجانه فغلب عليه البكــاء وأغرق فيه حتى منعه من الكلام والغلامان يعجبان لبكائه . اما هــو فنظر اليهما والدمع يترقرق في عينيه وقال : «يعز علي حسنكمــا وجمالكما .. لا رحم الله من ظلكما» . ثم قال : «يا مسرور اين المفتاح الذي دفعته اليك . وأمرتك بحفظه ؟»

قال : «عندي يا امير المؤمنين» .

قال : «فأتني به» .

ثم دعا بجماعة من الغلمان وأمرهم ان يذهبوا مع مسرور الى تلـك

الحجرة ويحفروا فيها حفرة عميقة وأومأ الى مسرور ان يقتـل الغلامين ويدفنهما فيها . قال ذلك وهو يبكي بكاء شديدا حتى ظن مسرور انه رحمهما ولا يلبث ان يعدل عن قتلهما ، ولكنه مسح عينيه ونهض وأشار الى مسرور ان يمشي ، فأطاعه ومضى بهما الى تلك الحجرة ، ثم عـاد وأخبر الرشيد بأنه قتلهما ودفنهما هناك ، وقتل الرجال الذين ساعدوه في ذلك .

وأمر الرشيد ألا يذكر البرامكة في مجلس ، ولا يستعان بمن بقي منهم في شيء ابدا . فخرجوا على وجوههم هائمين في البلاد ، وأصبح الناس يتمثلون بنكبتهم مثل تمثلهم بثروتهم وسخائهم . وخلا الجـو لاعدائهم فنالوا ما تمنوه من التنكيل بهم ، وتولوا أمور الدولة بعدهم، ولاسيما الفضل بن الربيع فانه تقلد الوزارة وصار اليه الحل والعقد .

سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تأليف جرجي زيدان